عبد الغني ملوك

جسر على نهر جاف

أو المعجزة

رواية

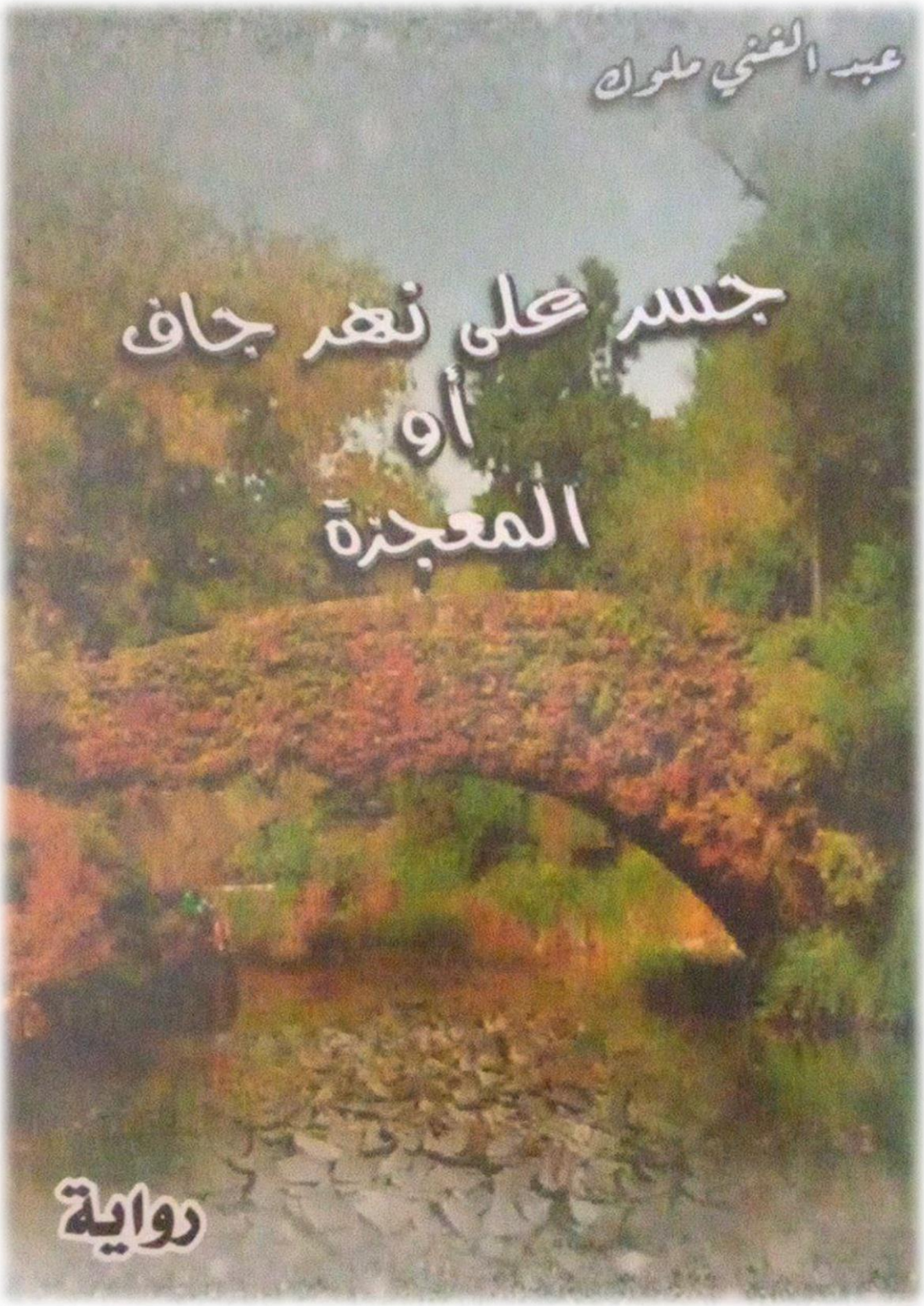
عبد الغني ملوك
جسر على نهر جاف
أو
المعجزة
رواية

يوم هبط ذلك الغريب بلدتنا كنت في سن المراهقة كان ذلك في خمسينيات القرن الماضي. والدي نمير اليقظان أستاذ التاريخ في ثانوية البلدة كان ينصحني دوماً :

(يا فارس انتبه للغرباء ، فطروادة لم تسقط إلا حينما أدخلوا اليها الحصان الخشبي.. لا تدخل يا فارس غريباً إلى بيتك .. التزم بأهلك ولو جافوك الجفاء مؤقت .. لأن الدم لن يُصبح ماء.. أما الغريب الذي إن صادقك يوماً ، فسيقلب لك ظهر المجن بعد ردح من الزمان..)

ناداه المختار عند عودته من المدرسة وكان الوقت ظهراً :

- استاذ يقظان .. في مضافتنا رجل غريب .. هلاً ساعدتنا في الترجمة .

كان والدي يتقن الفارسية والتركية أضف إليها الانكليزية.

دخل على المختار في المضافة، فوجد الغريب جالساً بهيئة متربصة هو رجل في أواخر الأربعينيات من عمره، طويل، عيناه سوداوان تشعان خبثاً، لحيته قد تركت من أيام ولم تحلق غزاها شيب خفيف.

قال والدي للمختار :

- ما قصة هذا الغريب ؟

- يزعم أنه تاجر مسافر، تقطعت به السبل، وغرقت بضاعته في البحر، وقادته المصادفات إلى بلدتنا، يطلب المأوى والمعونة حتى يتدبر أموره ويسافر إلى بلده .

- كيف استخلصت منه هذه المعلومات، وتريدني أن أترجم لك؟

- بشق النفس حصلت عليها، واستغرق ذلك وقتاً ، يعرف بعض العربية المكسرة 6

يقول والدي :

(بعد أن كلمتُ الغريب، عرفت أنه من سمرقند، وهو تاجر سجاد أفغاني، يدعي أن باخرته غرقت في البحر، وتمسك بخشبة ألقى بها الموج في اليم إلى الشاطئ)

ولكن البحر بعيد عن بلدتنا ، هناك بلدات أقرب لابد أن له هدفاً يُخفيه

قال والدي : إنه يعرف شخصاً في كفر الزمان (بلدتنا) التقاه في سمرقند، وباعه بضاعة ، وكانت بينهما علاقة دين وفاتورة حساب

ولما سأله والدي عن اسم الرجل . قال : إن اسمه) عمران البيروني) ...

حينئذ تعجب والدي لأن عمران هو زوج خالتي بشرى، وعنده مزرعة، ولكنه لم ينجب لأنه عقيم ... وفي إحدى السنين غادر إلى الشرق، وعاد ومعه طفل.. زعم بأن بشرى حملت به في السفر، وولدته هناك.. البعض صدق، لأن غيبته في الغربة

استمرت فترة طويلة، أما الذين لم يصدقوا فقالوا : إنَّ الطفل ليس من صلبه لأن ملامح الطفل غريبة.

لابد لي أن أقول شيئا عن والدي (نمير)، قبل أن أكمل قصة الغريب.. وعن بعض صفاته.. والدي صريح واضح، صاحب مثل .. لم يكن يوماً خبيثاً أو مراوغا، ولم يحمل من صفات الثعلب شيئاً، لكنه كان حريصاً ذكياً حذراً .. والحذر في بعض الأحيان لا يمنع القدر. ولكن الحذر قد يؤتى من مأمنه أحياناً ... فماذا على الإنسان أن يفعل ؟ بعضهم كان يقول عنه :

(تنقصه الدبلوماسية والمرونة والنعومة والكياسة هو خشن في أكثر الأوقات، ويليق به أن يكون جندياً) ، واعتبرت أنا ذلك بعد فترة طويلة من تأمل سيرة حياته، أن هذه نقطة قوته وليست نقطة ضعفه، بل هي القوة التي تميز بها، واحترمه الناس من أجلها، فالضعفاء وحدهم يحملون وجهين، ويملكون بطانتين

كان يقول كلمته ، ويبدي رأيه ويمشي .. لا يهمه

(زعل) فلان أو رضى علان . كان يهمه أن يقول الصدق كما يصارح طبيب مريضه بحقيقة مرضه بدون مجاملة أو مداورة .. كان قاسياً كنصل فولاذ.. ولكنه كان يحمل في داخله الرحمة بل كان يحمل في داخله قلب طفل وروح ملاك . وعلى الرغم من أنه كان من المثقفين والمفكرين .. إلا أنه بدا لي كجندي إسبارطي في جسده، وكحكيم يوناني في عقله .. ولم أجد ، أنا فيما بعد من المثقفين إلا القليل النادر على شاكلته. لكنّه مات بلا طائل وضاع غريمه في حادثة ملتبسة، ثم تكشفت الأمور. ترك وراءه فكراً وقاداً سيذكره التاريخ لوقت طويل. كان يحض على حب الحياة وعلى توحيد الحيين، فقد كانت بلدتنا تنقسم إلى حي شرقي وحي غربي يفصل بينهما واد قليل العمق تشكل من سيل قديم. وكان بينهما جسر خشبي ، للانتقال والتواصل . وكنا نسكن في الحي الغربي .

قال للمختار والغريب يسمع :

أعطه قرشين، ودعه (يتيسر) لبلاده فبلادنا تكرم الضيوف ، لكنها تكره الغرباء

المندسين الذين يتخفون، ويُظهرون عكس ما يُبطنون، ويُشوهون أواصر المحبة ويقطعونها .

حينذاك قال الغريب محتداً، وقد أخرجه التحدي عن تقيته :

أنا لست غريباً.. ألا فاعلموا أن لي جذوراً عندكم .. نعم لي ذرية خلفتها هنا .

حينئذ نظر أبي إلى المختار، فوجده مستغرباً مستفهماً .

قال أبي مخففا انفعال الغريب وحنقه :

الخلق كلهم عيال الله .

تمتم الغريب بكلمات غير مفهومة

عندئذ خرج أبي من عند المختار، منقبضاً لم يرتح للرجل. وقال في نفسه : (سأسأل عنه ، عمران البيروني)

كانت بلدتنا) كفر الزمان (كما قلت منقسمة إلى حارتين، الحارة الشرقية والحارة الغربية. كلها بيوت من الطين والقش . بعض البيوت ، حديثة...

معظمها أكل الدهر عليها وشرب. هي كأي بلدة من بلاد هذا الوطن الممتد من الماء إلى الماء على أرض من الرمل والملح. يُحرك أحياءها الأموات من قبورهم، والتغيير يتم بمعجزات الأولياء

يترعرع النقل على حساب العقل والإبداع بدعة وكل بدعة ضلالة. لكن أبي كان دوماً يحرك المياه الراكدة، ويدعو للإبداع واستخدام العقل . كان في دروسه في الصفت يقول لطلابه: (حاربوهم بالعقل)

قد تكون كفر الزمان مدينة افتراضية، لكنها في الوقت نفسه بلدة حقيقية لها أشخاصها وسكانها الذين هم من لحم ودم، وكان الاقتصاد في كفر الزمان. هو اقتصاد الكفاف) وكل يوم بيومه) مع أن بلدتنا غنية بخيراتها. لكن الهدر كان في القطاعات كافة متفشياً ومزدهراً. والفساد أيضاً منتشراً وله أبواب .. وكان معظم الناس في الحيين مظلومين في كل الأوقات التي عبرت من تحت ذلك

الجسر.. لكن الحارة الغربية كانت أكثر على من الحارة الشرقية، ولو بشكل نسبي. فالبلدة كلها فقيرة متخلفة، لذلك كان أبي يعتقد - وكان اعتقاده صائباً

- أن عليه رسالة تتجلى فى نقل بلدتنا إلى مصاف البلدان الراقية، وكثيراً ما أعجب بالتجربة اليابانية.

وقال لي يوماً :

علينا يا فارس أن نقدس العمل، وديننا وضعه في أعلى الدرجات ، وأن نقدّس العلم ونسعى إليه ولو في الصين، وأن يكون هناك تلازم بين العلم والعمل، وأن يسخر ذلك لخير الإنسان الذي فضله الله تعالى على سائر مخلوقاته، وأن نهتم بالصناعة والتصنيع، والعلم أساس الاختراع والإبداع والتصنيع، علينا أن ننشئ مراكز أبحاث فما سبقتنا الأمم إلا بالعلم والاختراع.. لا تفهم من قولي يا فارس، أننا يجب أن تهمل الزراعة.. البترول ينفد، والثروات كذلك لكن الأرض معطاءة.. والمعامل يجب أن تبقى دوارة ...

كنت دائماً أفكر بأقواله.. ويمضي زمن طويل لأستشف ما بين الكلمات، وماذا كان يعني بالضبط . وما هو الهدف من كل ذلك.

لكن التواكل والكسل كان هو السائد مع مبرراته الايديولوجية الجاهزة التي تتكئ على تفسير خاطئ للدين

كان تعيين المختار في بلدتنا (كفر الزمان) يتم بطريقة غريبة، ففي كل خمس سنوات يُعين مختار جديد المشكلة أن كل حارة من الحارتين تريد أن يعين المختار من سكانها. وجرت نزاعات حول هذا الموضوع فارتأى أهل الحل والعقد أن تجرى مباراة بين ديكين.. نعم) ديكين من الدجاج) ديك من الحي الغربي وديك من الحي الشرقي والديك الفائز يعين من حارته مختار البلدة كانت تلك ديموقراطية ابتدعتها عقول الموتى التي تحرك سلوكنا وتؤول مثلنا وعاداتنا. عادات غريبة انتقدها أبي دوما، وخشي من صراع دموي نتيجة تلك الأفكار والمعتقدات التي تقوم على الدم، دم يسيل من ديكين لا يفقهان من أمرهما شيئاً . قد يقودان إلى حرب تشبه حرب داعس والغبراء بين عبس وذبيان، إذ استمر النزاع بينهما أربعين سنة أزهقت خلالها أرواح بريئة من أجل هدف تافه .

مع الأسف ما توقعه قد حصل فيما بعد

قال لي يوماً :

ما أروع أن نستفيد من التاريخ ونأخذ منه العبر ! في يوم ما هدمت جدر من الكعبة، وصلب عليها رجل.. وفي يوم ما قتل الحلاج بسبب كلمة .

وفي كل يوم يقرأ المسلمون الآيات ولا يتدبرونها، وتُعاد المآسي تقريباً في كل منة عام أو أكثر. لماذا يحدث هذا ؟ الله رحيم يكره الدم، ويحض على المحبة، لماذا يصوره البعض إلها سادياً، يحب الدم ويهوى شحذ السيوف ؟

وتعرف أبي على أمي رابية الدمشقي عندما كانت تدرس في فرع السياسة والاقتصاد في الجامعة نفسها.. كان حباً أحلى من الأحلام.. هي امرأة جميلة بل فائقة الجمال بيضاء كالياسمين. إذا

رأيتها ظننتها نور قمر يذاب أو فضة مسالة على وجه ملائكي.. ذات عيون رمادية واسعة وذكاء لقاح نادر .. تزوج منها واستقر في الحي الغربي من بلدتنا .. وكان لها أخت أقل جمالاً تدعى بشرى تزوجها رجل يدعى عمران البيروني .. والذي لم ينجب رغم محاولة العلاج و البحث عن السبب. وذات يوم سافر عمران مع بشرى إلى بلاد بعيدة ... تاجر وباع واشترى.. وعاد ومعه طفل اسمه (جانتي).. لم يكن الاسم مألوفاً في بلدتنا.. إنه اسم غريب، فمن سماه بذلك الاسم يا ترى ؟ ثُمَّ استقر في مزرعة الأجداد.. يزرع القمح ويربي العجول...

لعل قلة من أهل بلدتنا تعرف أن جانتي هو ربيب عمران خالتي بشرى وأبي يعرفان حقيقة الأمر حتَّى إن جانتي نفسه كان يعتقد أن عمران هو والده الحقيقي. ربما بعد مجيء الغريب عرف السر.. كان يعتقد أن قرابة حقيقية تربطنا فكان يناديني بابن الخالة. ونحن عاملناه كذلك . كان يكبرني بسنوات وعاش في بلدتنا حتى راهق وشب.. ثُمَّ عمل في مهن شتى ولم ينجح في واحدة منها لأنه لم يكن

جدياً ، ولا يحبُّ الالتزام.. كان يتوق بغرابة أن يكون رزقه من تعب الآخرين. ولم يكن جانتى ليشبه عمران الذي رباه في شيء. فقد كان عمران هذا يحبُّ ركوب الخيل وكان محبوباً من أهل البلدة وذا شخصية قوية ... كان يعشق الأرض.. ولعل ذلك هربا من شيء ما .. من شيء هو داخلي أو شرخ نفسي مصدره العقم.. ولم يكن ربيبه جانتي كذلك لأنه لم يكن مثله ذا شخصية قوية أو جادة . بل كانت شخصيته دونكوشوتية خرعة.. يحب المبالغة والهذر والمزاح السخيف . ولم أره يوماً في جدية مقبولة..

كان يصور الأحداث بشكل كاريكاتوري مبالغ فيه تضحكك المبالغة أكثر من المفارقة. فمثلاً كنا يوماً جالسين مع شباب من حارتنا فقال :

والدي كما تعلمون يا شباب مزارع (فظيع) هكذا وردت الكلمة على لسانه . لا أدري كيف يُكبر مزروعاته فتغدو أكبر مما يتصوره العقل كأنه ساحر .. فمرة زرع قمحاً وسئده وسقاه فصار له طول سامق عظيم يكبر في كل يوم متراً

ركبت مرة فرس والدي ، ومعي رمح طويل، ودخلت حقل القمح، فغمرتني النباتات والسنابل وضعت فيه أنا والحصان فرفعت الرمح للأعلى.. وبصعوبة وصل سن الرمح إلى أول السنابل الشامخة

قال أحد الجالسين :

- معنى ذلك أن نبتة قمح أبيك بطول عشرة أمتار، كأنها شجرة سرو

قال جانتي :

بل وأطول من ذلك بكثير لم يضحكوا .. استخفوا بضعف عقله

ومرة قال :

إنني أمرن عضلاتي بالحديد لتصبح أقوى من الحديد، وغالباً ما أفتت تلك الأدوات الحديدية في لحظة غضب.. إن عضلاتي قوية إلى درجة لا تصدق سابرهن لكم الأمر من خلال حادثة :

هرب تورنا الكبير من يد والدى لأنه هاج وماج ، وأفلت منه .. ركض الثور باتجاهي

فقال لي والدي :

جانتي .. أمسك الثور ولا تدعه يهرب

من الثور من أمامي فأمسكت بقرنيه بقبضتي الحديثيتين، وكان الثور مسرعاً فانكسر قرناه وبقيا في قبضتي يسيل منهما دم

قال والدي :

- أسفاً يا جانتي لقد ضاعت فيك التربية

... كيف تركت الثور يهرب ؟ رفعت لوالدي قرني الثور ، وقلت :

- لقد كسرت لك قرنيه . احتفظ بهما للذكرى

ضحكنا من خياله الواسع ومن كذبه (المفبرك)... فسر جانتي وظن أننا صدقناه وأنه خدعنا بحديثه، وأنه استخف بذكائنا، فاستمر في هذره وقال :

أتعلمون يا شباب أنه قد حدثت لي، منذ أيام، حادثة فظيعة مروعة ؟

قلنا خير!

قال :

هرب الثور كالعادة من يد أبي وكان يمسك

به برسن

فقال لي أبي :

جانتي ردّ الثور ..

وقفت في وجهه فخاف مني والتفت إلى اليمين فضربته بخاصرته بقدمي كما تُضرب الكرة وصادف أن مرت سيارة مليئة بجرار الغاز المعدنية، ومن ضمنها جرة غاز غير محكمة الإغلاق، يخرج منها غاز خفيف مرت السيارة قرب الثور، وكنت عندما ضربته قد طارت شرارة نار من مؤخرته من شدة الضرب وقوته، فاشتعل الغاز في الجرَّة وتفجَّرت قوارير السيارة وتطايرت بمختلف الاتجاهات ويقال بأن أحدها وصل إلى العاصمة .

قال أحد الحضور وكان شاباً متحمساً :

) العمى بقلبك ... (لقد مرقنا) لك كذباتك الماضية أما هذه فلن تمر بسلام. وقام وركل جانتي بقدمه على خاصرته .

مع أبي غرق الجميع فى الضحك، وهرب جانتى من أمامه. بعد هذه الحادثة، كنت وأمي بزيارة خالتي بشرى. حكيت لهم ما قاله جانتي .. ثم سألت عمران :

- هل تم فعلا ما قاله جانتي ؟

ضحك عمران وقال :

لا تصدق ما يقوله جانتي . إنه يبالغ ويقول ما يعجز العمالقة عن تحقيقه وينسب كل ذلك إليه.. إنه يصور الأوهام وكأنها حقائق ويطمس الحقائق لتبدو كأوهام.. إنها شخصية العاجز

ضحك أبي وقال :

احتفظ به على علاته لعله يكون وزير إعلام في دولة مجاورة !

وهكذا كانت شخصية جانتي الهزلية المضحكة موضع تندر للجميع.. ولكن من كان يعرف أن

هذا الهازل التافه سيُصبح مهرب سلاح ومشعل فتن، وزعيم مليشيا، بل سيدخل عالم التآمر من أوسع أبوابه منقلباً على شعبه الذي رباه .

لكنه في الحقيقة هو ابن ذلك الغريب الذي هبط بلدتنا للانتقام والسيطرة. ولم يكن ابن تلك البلدة الوادعة. كان من أقرب أصدقاء أبي إلى نفسه رجلان هما الشيخ محمود العلي وهو عالم جليل لا تأخذه في الحق لومة لائم، وهو من الحارة الشرقية ، والمغترب عاطف رغدان.. الذي هو بالأصل ابن كفر الزمان، والذي نشأ يتيماً وسافر وعمل في مهن عديدة، درس في الجامعات الغربية، يُنفق من مردود عمله على نفسه، حتى نال الدكتوراه، وقيل إنه أصبح بروفيسوراً. أضف إلى ذلك أنه صار مليونيراً، لكنه لم يترك الكتاب، ليعبد المال فيلهيه عن البحث، وكان له تأثير في رفعة البلدة، وفي حياتي بشكل خاص بعد اغتيال أبي. لم ينسلخ

عن بلده ورفض كل الجنسيات لأنه عد جنسية بلده فوق كل تلك الجنسيات .

بقى الغريب فى بلدتنا سنوات. وغفل الكل عنه وعن نشاطاته، فقد كان يتقن فن الإخفاء.. يظهر الخير ويضمر الشر.. كان يعمل بشكل سري ممنهج ويشتري الذمم ويجند المرتزقة تحت ستار من السرية كتيم . يستر ذلك بمكتب ظاهره تجارة وأعمال سمسرة ، وباطنه تجنيد قوئ... لدرجة أن المختار صار يرهب جانبه ويخشاه... وقد استمال هو المختار، فدفع له مالاً كثيراً، ووعده بأن يكون سنداً له وظهيراً على أعدائه.. لكنه لم يفعل. وكان مكتبه يعمل بالسمسرة والفساد. فإذا صعبت مسألة على مواطن، يكفي أن يذهب إلى مكتبه لتحل المشاكل عن طريقه في الحال ، بعد دفع مبالغ طائلة . وسمى الغريب نفسه (عقيل الأعرج) واستغربنا جميعاً عندما انضم إلى مكتبه جانتي وأصبح ساعده الأيمن. وصار له عصبة وجند، متخلياً عن عمران البيروني وعن خالتي بشرى

التي ربته .. ولا أدري لماذا غفل المختار عنه، أو سمح له بذلك مع أنه كان يشكل خطراً عليه.

وظف الأعرج الصبي عدنان لتحضير الشاي وتقديمها للضيوف، وكان عدنان نقطة ضعف لم ينتبه إليها الأعرج على حرصه الزائد ويمكن أن نطلق عليه نقطة ضعف أخيل. وكان عدنان يتصل بالشيخ محمود العلي، ويُمده بالأخبار وأحيانا بالتسجيلات (أشرطة كاسيت صغيرة) وضعها عدنان بحرص ومكر في سقيفة الحمام .

وذات مرة بينما كان عدنان في السقيفة دخل الأعرج ونادى بأعلى صوته :

عدنان أين أنت ؟

لبد الصبي ولم ينبس بكلمة، ولم يبد حركة خوف انكشاف أمره وجهاز تسجيله

قال جانتي :

إنَّ عدنان خارج المكتب، ربما ذهب لجلب الشاي والسكر من البقالية

هذا أفضل، لأنى سأدلى إليك بأمر خطير

خير .. ما هو ؟

سنقتل عمران البيروني ونغتصب زوجته بشرى

لكنه هو من ربانى وبمثابة أبي وزوجته بشرى ربتني وكانت لي خير أم

ليسا أهلك أنا أبوك الحقيقي، في يوم ما استغل حاجتي للنقود واشتراك بحفنة من الدولارات. يومنذ حزنت أمك وماتت من شدة حزنها .. عليهما دفع الثمن. عليك بالحقد والتشفي منهما، لا تدع في نفسك أية بقية من رحمة. ستنقلب إلى النقيض، اشحن نفسك بالبغض والحقد على هذه البلدة التي انتزعتك مني

لكن أهل البلدة لا ذنب لهم

كلهم مدانون... أليست هذه البلدة هي التي أنجبت عمران وبشرى.. على الجميع دفع الثمن

نقل عدنان إلى الشيخ محمود كل ما سمع فما كان منه إلا أن شاور المختار ولم

يصدق المختار الرواية، ظناً منه أن الشيخ محمود يكرهه ولم يذكر الشيخ محمود مصدر المعلومات خوفاً من انكشاف أمر الصبي عدنان .

تأخر المختار في اتخاذ أي اجراء. بعدئذ قتل عمران وشقيقه جبرائيل في فراشهما ... واغتصبت خالتي بشرى.. ثُمَّ قتلت ومثل بها وقيل إن الأعرج الذي اغتصبها أجبر جانتي على الفعل .. كانت جريمة بشعة لا يصدقها عقل. كيف يقتل جانتي أمه وأباه.. الأب الحقيقي من يربي.. و الأم الحقيقية من تعتني وتربي. لم يكونا بشراً كانا الشر نفسه مجسداً بهيكل إنسان .

وقال أبي قبل أن يعرف حقيقة القاتل :

- لا يستبعد أن يكون الأعرج هو القاتل، أو واحداً من رجالات الغريب، الذين قويت شوكتهم.. عندئذ توقع الناس أحداثاً مؤلمة ستقع

أما الغريب فقال لنفسه :

(الآن سدد عمران وبشرى وأخوه الفاتورة وصفى الحساب ..) . فأي حساب هذا إذا كان عقيل الأعرج هو من باع ابنه بدريهمات معدودة وبثمن بخس.. ثم عاد محاولاً الاسترداد

قد تكون الأمور أبعد من ذلك وحزن أبي كثيراً على الأحداث المتلاحقة . وقال : إنها مقدمة لفتنة كبيرة، لكن عقيل الأعرج كان يُخفي بخبث أهدافه، ويعلن أنه جاء لإنقاذ البلدة من الذئاب التي تحوم حول حدودها .. وظن أنه دفن سره مع بشرى وعمران وأخيه جبرائيل ولكن ليس هناك جريمة كاملة، فسيكتشف أمره لاحقا من جهة لم يكن ليتوقعها إنه الصبي عدنان .

.. وتذكرت قول أبي :

(لا تدخل غريباً إلى بيتك ، فطروادة لم تدمر إلا بإدخال الحصان الخشبي. وتذكرت البدوي الذي ربى ذئبا صغيراً فلما كبر فتك بأغنامه)

في الفترة الأخيرة ازداد تهريب السلاح، وعمل جانتي والأعرج على تأليب الحي الغربي على الحي الشرقي لأن في ذلك ازدهاراً لتجارتهما.

وتعرض والدي لكمين كاد يودي به، فقد هجم عليه شخصان، وهو يسير في الحي ليلاً، يريدان خنقه، واستطاع التغلب عليهما لأنه أوتي بسطة في الجسم والعلم.. فهربا ولم تعرف هويتهما .. وكانت هذه رسالة إلى أبي، ليعرف أنه مطلوب للقتل...

بعد شهر وقعت حادثة مؤلمة جداً . فقد اغتال مجهولون) علاء الزعتري) من الحي الشرقي، ووالد الفتاة (حنان) التي أحببتها كأول حب في حياتي، وكأعنف ما يكون الحب وكان أخوها حسن من أعز أصدقائي. وكنت اقطع الوادي الجاف من فوق الجسر الخشبي لأصل إلى بيتهم، وكان الناس يستغربون الحب من فتاة في الحي الشرقي لشاب يسكن الحي الغربي، كان ذلك الوادي مقيتا وكم تمنيت ردمه حتى لا تبقى وديان فاصلة في بلدتنا

تأزم الموقف بعد محاولة اغتيال والدي، وكان التأزيم مقصوداً، إنه إرهاص بالفتنة التي تنبا بها والدي) نمير اليقظان (في كتابه القديم وفى أقواله عند المختار . حزنت حنان واخوها حسن لكن كل ذلك لم يؤثر على حبنا الذي بدا وكاله معجزة .

قيل إن علاقة ما تربط المختار بمكتب السمسرة. وإن له حصة من الأرباح كانت تصل إليه سراً . ولم يكن كل هذا إلا شائعاتٍ قصد بها الاساءة إلى المختار المؤكد أن الأعرج في قرارة نفسه يُضمر للمختار شراً، ويتحين الفرص إلى تنصيب جانتي مكانه، فلقد وصل نفوذه إلى العاصمة مركز القرار.

بعضهم قال :

إن المختار يخاف عقيل الأعرج وجنده ومريديه.. لكنه يما لنهم.. وبعضهم قال إن الأعرج هو صنيعة المختار ليخيف

خصومه كثرت الشائعات ولم يكن هنالك شيء مما راج. لكن المؤكد أن الأعرج قوي بدرجة كبيرة وقد ملك سلاحاً ورجالاً وأن قوى خارجية تدعمه .

البعض من بلدتنا قال :

إن يدأ خارجية زرعت عقيلا، وأقامت المكتب لتسيطر على البلدة . وأن قصة ولده الذي باعه فيما مضى ما هي إلا تبرير للفتنة وللغزو.. وهذه أصح الروايات ، لكن المؤكد أن فتنة بين الحي الشرقي والحي الغربي باتت محتملة نشأت حساسيات بين الحي الشرقي والحي الغربي لم تكن معروفة في السابق.. وكان لعقيل وجانتي دور في هذا من أجل تنفيذ مخططات شيطانية بعيدة المدى .

الفصل الثاني

من جملة من حضر التشييع عاطف رغدان، وكان صديقا لوالدي.. بعد انتهاء المراسم زارنا مساءً وطلب من والدي إدخالي في مدرسته التي انشاها للأيتام والمتفوقين من أجل إعداد جيل متفوّق يقود المجتمع وقال :

اهرب بابنك كما هربت العذراء بالمسيح إلى مصر .. فأنت وابنك معرضان للاغتيال...

قال والدي :

لكن مدرستك يا دكتور للأيتام فقط، ولم أمت أنا بعد لكي يصبح ابني يتيماً . لم يكترث عاطف رغدان للقول .. لكنه أجاب:

إنها للمتفوقين بالدرجة الأولى.. ثم للأيتام سواء أكان اليتيم متفوقاً أم غير متفوق .

- سنفكر في الأمر

وأسرع جانتي في اجراءات حصر الإرث . وقد ورث عن عمران أموالاً كثيرة باع جانتي الدار والمزرعة بثمن بخس. ثُمَّ آل المال كله إلى الغريب

عقيل الأعرج، الذي ازداد نفوذه، وكثر بالمال أعوانه، فجند لحسابه أشر الأشرار، وصار يؤلب الحي الشرقي على الحي الغربي بإصرار كما في السابق، ولكن بطريقة مكشوفة هذه المرة .

في هذه الاثناء اتصل عاطف رغدان مجدداً بأبي وأكد على دخولي مدرسته اقتنع والدي بإرسالي إلى تلك المدرسة . لكنه سألني :

هل اقتنعت يا فارس بالمغادرة والانتساب إلى مدرسة عاطف رغدان ؟

كيف أترككم والمدرسة داخلية، يغيب التلميذ

فيها شهوراً ولا يرى أهله

سترانا في الشهر مرة .

ثم قالت والدتي :

متى يمكنه أن يداوم في المدرسة ؟

بعد أيام سيبدأ الطلاب بدراسة منهاج الصف العاشر عندي سفر إلى العاصمة، عندما أعود سيدخل فارس مدرسة عاطف رغدان

لقد قرَّرا إرسالي إلى مدرسة عاطف رغدان وليس من اللائق الاعتراض ويبدو أنهما أتخذا القرار بعد دراسة وتصميم .

وحدثت قبيل التحاقي بالمدرسة حادثة كان لها أثر على مجرى حياتنا، إذ التقى الاعرج بابي بعد انتهاء دوامه، وطلب منه أن يشرب عنده فنجان قهوة لأمر هام.. ومن خلال الحديث عرض الأعرج عليه زعامة البلدة و بأن يحل أبي مكان المختار شرط أن يوافق على وجود الأعرج ويعترف بسلطته بدل معارضته ،

غضب أبي ولطمه على وجهه .. وقال :

هل تظنني كأبي رغال ؟

يومذاك قرر الأعرج اغتيال أبي .

الفصل الثالث

بينما كنا نجلس في الشرفة، وكانت إطلالتها رائعة، حيث يُرى الأفق منفتحاً على فضاء يصل حتى البحر، ويطل على غابات من الزيتون والزيزفون . قالت أمي :

أنت تعرف يا فارس أنني قررت أنا وأبوك بالاتفاق مع ادارة مدرسة عاطف رغدان على أن تكون أنت أحد طلابها.. وهذه مدرسة نموذجية توفر للإنسان التفوق.... ولم أدعها تكمل قلت :

أعرف أنكما وعدتما عاطف رغدان وكنت موجوداً بأن أنضم إلى تلك المدرسة. ولكن ماهي هذه المدرسة ؟ ولماذا الإصرار على الانتساب اليها

هي مدرسة نموذجية داخلية، على مسيرة نصف ساعة بالسيارة من بلدتنا يدرس فيها الطالب منهاج التربية المقرَّر من الدولة مضافاً إليه دروس الرياضة وألعاب القوى، ومحاضرات تثقيفية إضافية أعدتها الإدارة و منشيء المدرسة وممولها الدكتور عاطف رغدان غايته تعويض الأيتام عن فقدان الحنان بالتفوق، وإبراز مواهب الأذكياء وتنميتها. وكان عاطف رغدان يتيماً من أهل بلدتنا، ولم يجد من يرعاه أو يوجهه، فوجه نفسه بنفسه. وهو الآن (ملياردير) وذو شهرة على مستوى عالمي... يتنقل بين بلدان شتى، لممارسة نشاطاته لكنه ما يلبث أن يعود إلى بلدتنا مسقط رأسه يتفقد المدرسة ويحاضر فيها .

والجدير بالذكر أنه قارئ ممتاز ثقف نفسه بالجهد الفردي واطلع على الكثير من مؤلفات الفلسفة وهو يبشر بالإنسان المتفوق

قلت :

كيف كان ينظم وقته، وكيف استطاع أن يوازن بين الثقافة والسعي وراء جمع المال. لا شك أنَّه شد عن القاعدة، فأنا لم اسمع عن رأسمالي اهتم بالفكر والفلسفة والسعي لِرُقي الإنسان، إلا ما ندر .

ستستغرب أكثر يا فارس عند اطلاعك على منهاج العمل اليومي المليء بالرياضة والدراسة، وتعزيز حبّ الحياة الاجتماعية والتعاون.. وستستغرب أكثر من شخصيات المحاضرين في الثقافة والفكر، ومعظمهم عرب وأجانب يدرسون في أرقى الجامعات الأوربية والأمريكية يأتونك بفكر جديد طازج.. عندها ستعرف قيمة هذه المدرسة التي يتمنى كل متنوّر أن يضع ابنه أو ابنته فيها .

قلت لأمي :

أذهب مع أبي إليها ؟

ترك ابوك هذه المهمة إلى، لأن عنده مهمَّة في العاصمة استعد للسفر الآن لم العجلة ؟

لقد بدأوا بالمنهاج؛ ويستحسن الا يفوتك شئ تركتني ونزلت إلى الطابق الأرضي وسمعتها بعد هنية

تناديني : فارس حقيبة السفر جاهزة هل تريد اصطحاب بعض الكتب ؟

علينا الإسراع بالذهاب، لتتابع دروسك هناك استلم أبوك إدارة المدرسة والآن عنده مؤتمر لن يستطيع إيصالك. أنا من سيتولى الأمر.. قلت لك ذلك

نزلت من الطابق العلوي، وحملت بعض الكتب، وكانت والدتي قد استعدت ولبست ثياب الخروج واتصلت بالسائق أبي محمود الذي جاء، ووقف منتظراً على باب بيتنا

أدخلت الحقيبة إلى السيارة وصعدت مع أمي وانطلقنا باتجاه المدرسة. كانت الطريق صاعدة.. ومررنا بحقول القمح المتماوجة مع الريح، وقد بدأ المطر ينزل.. وشاهدت اسراب القطا تحوم حول البحيرة المتغضنة مياهها بفعل الريح والمطر. إلى أن وصلنا إلى رابية عالية على شكل هضبة تحيط بها من جنباتها غابات البلوط والصنوبر، وأحراش كثيفة فيها شجر السنديان والكستناء وأشجار السرو والشوح. وفي قمتها تربض تلك المدرسة كأنها قلعة.. ما أروع اختيارك يا عاطف رغدان لموقعها .. كأنها محط النسور !

وما إن وصلنا إلى الباب حتى لفتنا رهبة إجلال وخشوع كأننا أمام باب قلعة تاريخية. كانت أحجار المدرسة من

البازلت الأسود والأبيض الضخمة، والباب من خشب الجوز البني الغامق، وقد غلفت جوانبه بالبرونز النحاسي المائل إلى الخضرة.

وعلى جدار المدرسة الأمامي ثُبتّت رخامة بيضاء كتب عليها :

((أحب من يعيش ليتعلم ومن يتوق إلى المعرفة ليحيا الرجل المتفوق بعده.. أحب من يعمل ويخترع ليبني مسكناً للإنسان المتفوق)) نيتشه

أدركت عندئذ أن عاطف رغدان صاحب فكرة وإيديولوجيا، وأنني سأجد في هذه المدرسة أشياء لن أجدها في أية مدرسة أخرى، وأن هذا سيساعدني في حمل رسالة أبي التي حملني إياها .. واعداً

بتغيير البلدة كلها والنهوض بها إلى مصاف البلدان المتفوقة. لاشك أنه وعاطف رغدان من مدرسة واحدة ومن فكر واحد

ترجلت أنا وأمي من السيارة، وبقي السائق فيها، ليعود بأمي إلى البيت فيما بعد. دخلنا مكتب الاستعلامات الذي كان قريباً من الباب؛ وقد دلنا الموظف إلى مكتب المدير .. رحب بنا مدير المدرسة بعدما عرفت أمي عني وعن نفسها ... فقال :

فارس اليقظان المنتسب الجديد.. أهلا بك ابناً بيننا، لقد أوصى البروفيسور عاطف رغدان نفسه بك، وقص علينا صداقة والدك نمير اليقظان العزيزة على قلبه المدرس والمفكر المعروف ثم أردف :

- أنت الآن يا فارس من تعداد طلابنا، وسأرسل معك الآن الموظف المسؤول اثنين من أفضل طلابنا.. وأشار إلى ليدلك على غرفتك، ستعيش فيها مع رجل كان بقرب مكتبه.. قائلا :

خذه إلى غرفة ناصر وحمدان، وسلمه التجهيزات اللازمة .

ودعت أمي ، التي عانقتني متأثرة...

وقالت :

انتبه لنفسك يا فارس.. من الآن عليك الاعتماد على ذاتك.. وها إنَّ ساعة العمل الجدي قد دقت

لا عليك يا أمي سأكون على قدر المسؤولية التي حملتموني إياها

حملت حقيبتي، وذهبت مع الموظف المسؤول، وغادرت هي المدرسة عائدة

إلى البلدة، ومشيت في أرض تحف بها الأشجار وتتخللها المروج والورود، وفاحشذى عطر من أحد الأركان بينما غرد عصفور على شجرة كينا.. فزال علي غم كثير.. ومازلت أحمل حقيبتي، حتى وصلنا إلى الغرفة التي حددها المدير .. كان باب الغرفة مواربا، دفعه الموظف ودخل، وأنا اتبعه ، فشاهدت أسرَّة ثلاثة يجلس على اثنين منها طالبان والسرير في الصدر فارغ، فعلمت أنه سيصبح سريري.. وكان في الغرفة خزائن ثلاث، وطاولة كبيرة مع كراسي ثلاثة.

قال الموظف للطالبين اللذين وقفا عند دخولنا معرفا بي :

هذا زميل جديد هو فارس اليقظان، وهو مثلكما سيدرس الصف العاشر، وسيظل

في المدرسة معكما حتّى نيل الشهادة الثانوية فتقدّم الأول مني مصافحاً وقال:

ناصر البهالمي

ثم تراجع ليتقدم الثاني فيقول :

حمدان الطائي وصافحني

دلني الموظف على خزانتي وسلمني سريري وقال :

اجلس وسيأتي بعد قليل من يسلمك لباساً خاصاً للأوقات كافة ولوازم وكتباً ولباساً رياضياً وخفافات والدفاتر؛ أضف إلى ذلك الكتب.. ثم خرج .

بقيت مع ناصر وحمدان اللذين رحبا بي مجدداً، وسألاني عن بلدتي ثُمَّ تطرقنا إلى باني المدرسة ومنشئها

قال ناصر :

لقد بنى عاطف رغدان هذه المدرسة منذ عشر سنوات؛ وهو مثلنا يتيم عانى من القهر والحرمان وقلة الحنان قلت مقاطعاً :

أنا لست يتيماً

إذن أنت موهوب أو مدعوم

قلت : لا هذا ولا ذاك.. قد يكون قدومي فراراً...

لم يفهما ما أعني فقلت : آسف للمقاطعة ...

تابع ناصر قائلاً :

عندما كان عاطف رغدان في عمرنا اشتغل في البواخر، وجاب مدناً بعيدة وعمل في مطاعم، وتدرج فأصبح أمين صندوق ثم مديراً إدارياً ثم مديراً عاماً فكسب خبرة ومالاً .. فافتتح مطعماً لحسابه في لندن، ثُمَّ أضاف إليه بعد ذلك مخزناً للمواد الغذائية ... وما زال

يربح حتى بلغ رأسماله المليون دولار فصارت الأموال هي التي تربحوصار هو يُحصيها وهو مستريحو كما قال أوناسيس مرّة) وكان يومذاك أغنى رجل فى العالم (عندما سئل كيف جمعت ثروتك يا مستر و أوناسيس)

قال :

لقد تعبت في المليون الأول فقط وعندما ملكته.. أصبحت الثروة تجمع نفسها بنفسها .

وتابع ناصر :

وهذا الذي حصل مع عاطف رغدان.... الذي صارت أرباحه تزداد بمتوالية هندسية .

مرة سألوه :

بكم تقدر ثروتك بالأرقام يا مستر عاطف؟

أجاب:

تكون الأرقام قد ازدادت وتغيرت

للأعلى؛ ولا أدري كم هي بالضبط..

لا استطيع أن أعطيكم رقماً دقيقاً .. ففي اللحظة التي تتكلمون معي وتسألون ، وهكذا ازدادت ثروته بطريقة لم يكن ليحلم بها ، لكنه لم يكن كباقي جامعي المليارات.. فقد تمتع بمزايا إنسانية نبيلة وكان يقرأ الكتب ، ويفعل الخير ويساعد الناس؛ وكان هاجسه الاكبر هو أن يرى وطنه يصعد إلى مصاف الدول الكبرى ، وأن تكون بلده موئلا للعلماء والمفكرين ، وكان يحلم بجيل متفوق

قلت:

قرات عبارة مكتوبة على جدار الباب الخارجي ، والآن فهمت مراميها ..

ثُمَّ خرجنا نتمشى في المدرسة و نتجول في رحابها.. فعلمتُ أن أصغر وحدة فى المدرسة هي الغرفة التي تضم ثلاثة طلاب .. ثم المجموعة التي تضم عشر غرف .. ثُمَّ الجناح الذي يضم عشر مجموعات .. وعلمت فيما بعد ان المدرسة تحوي عشرة أجنحة...

الفصل الرابع

استيقظت على صوت بوق الصباح . كانت الساعة السابعة شعرت بنشاط فائق وهمة عالية قد يكون الهواء النقي مبعثاً لهما غسلت وجهي ولبست ثياب الرياضة وخرجت من الغرفة كانت الشمس في أول ظهورها فاتنة تتجلى في الرحب الواسع شعاعها يلامس رؤوس الأشجار الباسقة . ثمة برودة خفيفة لذيذة وعلى الأغصان تصدح طيور، وكان شعاع الشمس اللازوردي يقبل أجنحتها، فتتحرك بحبور قافزة من شجرة إلى شجرة . ومن بعيد لاحت الغابة التي تلف التل وتحضنه . أما الهضاب البعيدة فقد بدت خضراء ، تشوبها زرقة ، وينتهي الأفق عند البحيرة الواسعة حيث ينبثق النور على أمواهها فتصبح متلألئة بألق بهي . كان صباحاً رائعاً بهوائه النقي المنعش .

خرج ناصر وحمدان، توجهت معهما إلى المطعم وهو قاعة كبيرة هائلة صفت فيها الطاولات

الواسعة بأنساق تراتبية. وكانت على الصفين مقاعد متصلة كانت الوجبة الأولى التي تسبق الفطار .. كوب من الحليب محلى بالعسل وفواكه متنوعة فى سلال من القش . تناولت كوباً من الحليب المحلى وشربته ثُمَّ قَشرتُ موزة ناضجة فأكلتها .

أما ناصر وحمدان فقد تناول كل منهما تفاحة خرجنا بعد ذلك من المطعم إلى ساحة كبيرة جدا مستطيلة الشكل مسوّرة بأشجار الكينا والسرو. وعلى حدودها زرعت ورود متفتحة رائعة في أحواض رخامية.

كان هناك تنظيم ممنهج ومدروس لكل شيء في هذه المدرسة.. منافع جماعية تشمل حمامات ومغاسل وقاعة كبيرة بمقاعد وطاولات لتلقي الدروس صباحاً وللمطالعة المسائية ليلاً .

كانت ساحة الرياضة هي ساحة الاجتماع الصباحي أيضاً . لكل مجموعة وجناح مكان مخصص فيها .. وعلى الأرض المبلطة بالرخام الايطالي دوائر

حمراء ، كُتب عليها رقم الطالب الذي سيقف فوقها ليمارس رياضة الصباح . بحيث أن بوق الرياضة ما يكاد ينتهي حتى يكون كل طالب في مكانه المخصص له، يقف على تلك الدائرة . ومن بعيد تبدو ارتال الطلاب بلباس الرياضة الموحد متراصة متلاصقة كان ذلك في (استاد دولي أو دورة أولمبية

بدأ درس الرياضة مع موسيقا ذات ايقاع . وبدأت الحركات والتمارين تنسجم مع تلك الموسيقا .. كنت اقف خلف ناصر وحمدان مقلّداً. وقد بدت حركاتي التي لم اعتدها ، حركات لم تصقلها المهارة... وكان بالقرب مني مدرّب للرياضة ، مسؤول عن المجموعة كلها ، هو الذي حدد مكاني في نقطة حمراء كتب عليها رقمي الذي أعطوني إياه لحظة دخولي .. وكان يصحح لي بين فترة وفترة بعض الأوضاع. ويلقنني بعض الإرشادات فانسجمت وتوازنت حركاتي . واستمر درس الرياضة هذا ساعة كاملة . بعد ذلك انصرفنا وفق ايقاع خاص فذهبنا إلى الحمامات للاغتسال بالماء الفاتر، وعدنا جميعاً إلى غرفنا لنرتدي اللباس الموحد ، وعندما ازفت الساعة الثامنة دخلنا المطعم الكبير، لتناول الإفطار من خلال وجبة رئيسية خرجنا بعد ذلك، لنستعد لمرحلة تلقى دروس المنهاج في التاسعة .

كان الأساتذة يلقون دروسهم بحرفية عالية .. وقد اتَّبع أسلوب جديد في التعليم أدخله مخططون ومبرمجون على الطريقة الأحدث .. بحيث يُكلّف طالب بإعطاء الدرس المقرر بدل المدرس الأصلي، الذي يكون قد دربه على إعطاء ما يجب إعطاؤه سلفاً وأفهمه المادة الدرسية التي سيلقيها . ويقعد المدرس الأصيل كمستمع، بينما يأخذ الطالب المكلف دور مدرس المادة الأصيل . وقد فهمنا فيما بعد أن الغاية من ذلك هي خلق الشخصية القيادية لدى الطلاب ، وتمرينهم على القيادة منذ الصغر. وقد جاء دوري فيما بعد ، فأعطيت الدروس التي كلفت بإلقائها . ونلت استحسان الأستاذ ، وإعجاب الزملاء .

شعرت بأن الحرية في المعهد مقيدة ، ولكنها مفيدة

وأريد أن أنوه إلى أن القيلولة تعقب الغداء ، وتستمر ساعتين ، لتبدأ الرياضة المسائية التي يتعلم الطالب من خلالها الملاكمة والمصارعة والدفاع عن النفس والقتال القريب ، ويستمر هذا الدرس من الرابعة حتى الخامسة لنعود فنلبس اللباس المخصص ، وندخل قاعات الدروس ، لنراجع ما تعلمناه في الصباح ونثبته في الأذهان.. وتستمر المطالعة حتى الثامنة مساء، ثم ندخل المطعم الكبير مجدداً لتناول طعام العشاء ، وبعد أن نفرغ نذهب إلى الغرف ، ونرتدي مناماتنا وننتظر البوق الأخير.. ليعلن بدء النوم وإطفاء الأنوار في العاشرة .

كان هذا هو البرنامج اليومي المترع بالعمل المدروس . المليء بالتنظيم الدقيق . ورغم قساوته وتسارعه وكثافة الأعمال فيه ، فقد سررت به وتألفت معه من اليوم الأول .. وكان لناصر وحمدان دور في تشجيعي وتألفي . فكانا كأخين عزيزين ولم تبدر منهما نظرة تعال أو نزعة فوقية

.تجاه تلميذ جديد، يدخل حياتهما... كانت المحبة هي السائدة باقتناع ، لدى طلاب المدرسة وأساتذتها . تجاه تلميذ جديد ، يدخل حياتهما .. كانت المحنة

ومديرها ...

قلت لناصر وحمدان :

لماذا يبدو منهاج المدرسة ، وكأنه منهاج مدرسة عسكرية ، أو معسكر كشفي مغلق ؟

قال ناصر :

هذا ضروري لإعادة هيكلة عقل الطالب وجسده ، وبرمجته، وفق منهج غايته خلق إنسان جديد .

مضى شهر و أكثر على هذه الحال. تصلب عودي، وتحسنت صحتي، وقويت ثقتي بنفسي وبنيت سمعة واحتراماً ، نال إعجاب أساتذتي وزملائي .

وجاء يوم الجمعة... وفيه يزور الأهل أولادهم جاء والدي ووالدتي في هذا اليوم في الساعة العاشرة سمعت اسمي في (ميكروفون) إذاعة

المدرسة يدعونني للزيارة .. فرحت.. وجريت بأقصى سرعة إلى مكان استقبال الزوار.. المكان قريب من الباب الرئيسي . وهو حديقة كبيرة ، هي في حقيقتها غابة مليئة بأشجار الدلب والشوح والسنديان وفيها أشجار الزيزفون والبيلسان ، .. ثبت فيها تحت الأشجار مقاعد خشبية عريضة، أمامها طاولات من الرخام تقوم على جذوع الأشجار المقطوعة والثابتة على الأرض

استقبلتهما بفرح عظيم.. ولهفة حارة .. على الفور ضمتني أمي إلى صدرها وبتأثر قالت :

فارس .. كم اشتقت إليك .. أحياناً أتمنى لو كنت بقربي تدرس في بلدتنا !

قال أبي بعد أن ضمني إليه بدوره وجلس :

كان قراراً صائباً من كل الأوجه.. لم يعد في البلدة أمان

كيف ذلك يا أبي ؟

إن عدم وجودك في البلدة الآن فيه كلّ الخير،

فلقد ألبّ الغريب الحارة الغربيّة على الحارة إن عدم وجودك في البلدة الآن فيه كل الخير ، الشرقية ودس بينهما الدسائس . . والبلدة مهيأة للاقتتال الداخلي

قلت :

ما دور أهل الحل والعقد ؟ عليهم تدارك الفتنة

قبل وقوعها .

الأمور أكبر من قدرتهم ، وقد تبين أن للغريب ارتباطات قوية في الخارج .

وما دور المختار ؟

أسقط في يده وأصبح الأعرج أقوى منه لأن مؤامرات كثيرة حيكت ضده، يقولون إن الغريب يهيئ جانتي لاستلام منصب المختار قالت أمي :

لاحظت تغيراً إيجابياً فيك وجه صبوح يتدفق حيوية ونشاطاً ..

روح معنوية عالية... همة تستشرف مستقبلاً واعداً .

الأمور على أحسن ما يرام .

ودعاني وانصرفا ، وشعرت بعد مغادرتهما بفيض روحي وسعادة غامرة. وجلست مع ناصر وحمدان لنتناول معاً الحلويات اللذيذة التي أهدتني أمي إياها 55

الفصل الخامس

عندما أويت إلى الفراش تذكرت (حنان) فداهمني طيفها واعتراني شوق كبير للقياها حنان أختُ حسن ، ذلك الصديق الوفي ، هم من الحى الشرقي لكنهم أقرب إلى من الكثير من الحي الغربي. اللعنة الله على سيل قديم ظالم جائر قسم بلدتنا ، وجعل التواصل بين حيينا بواسطة جسر خشبي يحاول الأعرج الاستفادة من هذه التناقضات . كانت أمها تتردد إلى بيتنا وتزور أمي ، وكنا بدورنا نقضي أمسيات جميلة عندهم.. في هذه الأوقات تخلق حب فريد بيني وبين (حنان) سيكون له شأن ، وشجون ، يا لمعجزة الحب التي توجد ولا تفرق إنَّها الروح الإيجابية، المحبة هي المطلق بذاته

... كان مطر رخي ناعم قد هطل مع بزوغ خيوط الفجر الأولى فرحت به الطيور وغردت ثُمَّ تدفات بأشعة الشمس المتجلية . من بعيد كانت اسراب من طيور الكركي تطرز المروج الخضراء . لعلها عادت مبكرة هذا العام . أما البحيرة فقد لاحت لي من بعيد متجلية في بهاء منقطع النظير تتلألأ فيها أمواج من الماس المطعمة بنور الشمس؛ وفوقها قوس قزح تشكل غب المطر

حان وقت الإفطار وخرج الزملاء إلى المطعم ، وذهبت معهم وعندما عدت استلقيت قليلاً على السرير أقرأ في كتاب أعمدة الحكمة السبعة)

القراءة متعتي ، لا ينقطع خيطها إلا عندما تعبر (حنان) بطيفها الرائع الخجول

على هذا المنوال مرت الأيام مسرعة .. إلى أن جاء عيد الأضحى.. فنزلتُ في إجازة العيد إلى البيت قال والدي :

- رفيقك حسن الزعتري زارني مرتين ، وسأل عنك وأوصاني : بأن تبادر إلى زيارته حينما تجيء إلى البلدة .

وأنا من جهتي مشتاق إليه وإلى أخته حنان.. سأمنحها بعض الدروس.. والملخصات

جلست قليلاً مع أمي وأبي ثُمَّ استأذنتهما بالمغادرة خرجت متجها إلى بيت حسن الزعتري.. كان يسكن في الحارة الشرقية عبرت الجسر وأصابني شيء من الغم لأن الوادي مازال الأعرج يُعرضه ويعمقه ضغطت على الجرس فتحت (حنان) ، فصدمني بهاء أنوثتها وحلاوة طلتها . لقد ازدادت جمالاً وأنوثة ونضجاً .. لم أرها منذ زمن . . عندما

قالت :

فارس .. غير معقول أهذا أنت ؟ فيك تغير جميل.. لقد اشتقت إليك

صافحتني بحرارة وحميمية ثُمَّ ارتمت على صدري تقتلني، قبلتني فطمأنت قلبي وأضرمت حبي. أحسست بتكور النهدين وصلابتهما قلت:

هل حسن موجود ؟

- إذا لم يكن موجوداً ألا تدخل ؟ ادخل . هذا بيتك ، وأنت أخي ، وأهلي لا يعترضون ولو كنا معاً وحدنا .

كان حسن خارج المنزل ومن المؤكد أن والدها الذي قتله رجال الأعرج منذ فترة وجيزة لم يكن موجوداً . لكنني تخيلت أن روحه ماتزال تحوم في سماء الدار

أمها استقبلتني بحرارة وحماس ، وعندما جلسنا ذهبت الأم لإعداد القهوة

سألت (حنان) عن دراستها ، وقلت لها أنني على استعداد لأن ألقنها أي درس تريد ؟ ...

على الفور ضحكت وقالت مازحة :

أريد درساً في العشق، هل تقدر عليه ؟

هذا ما لا أتقنه حتى الآن.

أنا أتقنه من الآن... فهل تريد الدرس على التو ؟ .

ضحكنا من القلب فقد كانت تعرف أنني أحبها وأنها هي أيضا تبادلني الحب كأعمق ما يكون

عادت الأم بالقهوة ، وانقلب الحديث إلى جديّة حازمة .

قالت الأم :

هل تعلم يا فارس أن جانتي والاعرج

يبيعان أسلحة للحارة الشرقية ويقولان

لسكانها : اقتلوا كل من سكن الحارة

الغربية . ويبيعون بالمقابل اسلحة للحارة

الغربية ويقولون لهم؛ اقتلوا ابناء الحارة

الشرقية .. تغدوا بهم قبل أن يتعشوا بكم . إنهم يغرون العداوة بين الحيين حتى يتسلحكل حي وتروج تجارتهما وقد بدأت صدامات .... حسناً فعلت أنك انتسبت إلى مدرسة عاطف رغدان.. إنَّه ابن حينا الشرقي كما تعلم .

قلت لها :

حيكم هو حينا.. وسيأتي اليوم الذي لا يسأل فيه الإنسان إلا عن عمله ، وسيردم الوادي ويزول الجسر إذ تنتفي الحاجة إليه قالت معززة موقفي :

إن ما تقوله صحيح ، وهذا ما بشر به والدك ومازال .. لن تدمر يد غريبة البلدة ، ولن يحصل شيء ، وستزول كل الحواجز

أظن أن اللعبة أخطر مما نظن ، وأن وراء الأكمة ما وراءها . شربت القهوة .. وقبل أن أغادر قلت لحنان :

رجاء قولي لحسن أن يمر علي غداً في الساعة العاشرة صباحاً .

عدت إلى البيت كانت أمي قد أعدت طعاماً طيباً

تناولت الغداء مع أمي وأبي .. ثُمَّ جيء بالقهوة وسألت أبي :

ما أحوال بلدتنا وما أحوال الحيين الشرقي والغربي ، فقد سمعت من أم حنان كلاماً خطيراً

قال :

كل يوم تتأزم الأمور أكثر .. أيد. من خارج البلدة تؤلب الناس بعضهم على بعض

لم كل ذلك ومن المستفيد ؟

ثمة مصالح الساسة وتجار وأجانب والمختار هو في أضعف حالاته بعد أن اتحدت و .. قد يتسلل الأعرج إلى مركز القرار مستغلا العصابات وكبرت وكلها تتغذى من الخارج، اخطاء بعض (زلم) المختار لأنه انتشر بين بعضهم الفساد والطمع .

نمت في غرفتي مهموماً ...

استيقظت في الصباح متأخراً .. لعل الهواء لم يكن نقياً كما فى التلال والغابات في تلك المدرسة .. كان أبي وأمي قد استيقظا قبلي . وأحضرت أمي فطوراً جاء حسن الزعتري في العاشرة .. فاستقبلته في غرفتي بحرارة وقابلني بعاطفة صادقة وقال :

اشتقنا إليك يا حبيب .. لم أكن لأظنَّ أنَّ لك في قلبي هذا المكان الأثير

وأنت أيضاً أخ عزيز ومعها حنان؟ لماذا لم تأت أمك ومعها حنان؟٦٢

قال :

تعدان (صدقة) عن روح والدي الشهيد في ذكراه الأربعين

ساد المكان حزن .. وتألمت للمأساة.. ولاحظ حسن ذلك ، فأراد تبديد ذلك الحزن فقال :

اعلم أن (حنان) قد أغرمت كثيراً بالموسيقا ، وقد أحضرت لها آلة صغيرة فتعلمت السلم الموسيقي وصار بإمكانها العزف على (النوتة)

هذا خبر جيد ، والهواية رائعة .

أخاف أن يكون ذلك على حساب دراستها وتفوقها .

إذا نظمت وقتها فستتفوق في الدراسة والهواية

قلت له :

ما أخبار الحيين الشرقي والغربي ؟

خيم الوجوم من جديد

الأمور متأزمة متكهربة .. شرارة صغيرة ، ويحدث الانفجار الكبير وقد بدأت إرهاصاته.

هناك من يصب الزيت على النار ، ولولا الشيخ محمود العلي وحكمته وتأثيره على الجميع لكان انتهى الأمر منذ زمن .

وماهي أخبار الشيخ محمود ؟

- هو رجل دين غير موظف عند الحكومة لكنه يتمتع بثقة البلدة كلها لصدقه واخلاصه إنه مثال رجل الدين الحق الذي يفهم أن الدين لخدمة الناس وإصلاحهم .. لجمع الناس لا لتفريقهم . إنه بخلاف الشيخ عجلان الذي وظف خطيباً وحيداً للجامع في البلدة . أحياناً وبوحي وأفكار مبثوثة من الأعرج تكون خطبة الجمعة كمن يصب الزيت على النار .

قلت له :

هل هناك آخرون يصبون الزيت على النار ؟

- نعم ، وبصراحة أتباع الأعرج ومرتزقته وخلفهم أيد خارجية لأنهم يوردون السلاح للطرفين .. ومن مصلحتهم تأجيج النزاع

هل هما ضمن شبكة أم يعملان وحدهما ؟

المؤكد أنهما ضمن شبكة تأتي تعليماتها من الخارج ومن رئيس المحفل الأخبار نفسها تتواتر ، يرددها الجميع وهم مكتوفو الأيدي كان يجب العمل بسرعة وذكاء أكثر.

قلت:

بت أخاف على أبي

أعتقد يا فارس أنهم يدبرون أموراً لاغتيال خصومهم . . لقد اغتيل عدد لابأس به من المتنورين والعلماء والأكاديميين ، ومنهم

والدي كما تعلم .

هالني كلامه ، فقلت بلهفة :

- ماهي المعلومات والإثباتات التي عندك ؟

قال :

لا إثباتات عندي، ولكن همسات من هنا وهناك تقول بذلك، وأظن أن الخبر يتسرب من ضمن مكتبهم .

قلت:

ولكن من الذي يسرب الخبر ؟

صبي المكتب عدنان ، لكن لا شيء مؤكد قلت :

ولكن من الدماغ المدبر وما مصلحته ؟

الدماغ المدبّر من خارج البلدة .. أهدافه بعيدة جداً وما الأعرج وجانتي إلا أحجار شطرنج

بيديه يلقي لهما بالفتات وغناء الطعام، ويحتفظ هو بكامل الصفقة .

هل من معلومات أكبر وأكثر ؟

- إلى الآن يصعب الإثبات ولكن سيأتي اليوم الذي تكشف فيه الحقيقة كاملة وعلينا أنا وأنت وأبوك والشيخ محمود وكل المخلصين من الحيين أن نسعى لاظهار الحقيقة .

ودعني وانصرف .

بعد خروجه ساورني شك غريب ، كل شيء محتمل فقد تخرب البلدة بخطأ غير محسوب... نحتاج إلى الحكمة قبل السلاح؛ والسرعة في اتخاذ القرار الصحيح .

كان والدي قد اشترى ، منذ يومين خروفاً سمينا ، وكنت أقدم ليذبحه في العيد ويوزع لحمه للخروف بعض الأعشاب وأسقيه الماء فوجدت أن ألفة من نوع ما قد نشأت بيني وبينه ، فعندما أغادر البيت يلتفت نحوي ويثغو وكأنه يقول:

) إلى أين أنت مغادر ابق معنا هنا...

كان يُخيل إليَّ ذلك

قلت لأمي:

لا تذبحي الخروف .

قالت:

- سيكون أضحية العيد .

- قدميه لعائلة فقيرة ولا اريد أن أراه، وهو يذبح

- أمرك غريب. إنَّ الله حلل الأضحية للتكافل بين الناس . ثُمَّ إنَّه في كل الأحوال سيذبح كسائر الخراف ، إن لم يكن بيدنا فبيد غيرنا .

ولكن هذا الخروف بالذات قد أصبح يُحبني فكيف أذبحه ؟

سيذبحه الجزار صاحب الملحمة لا تشاهد لحظة الذبح ؟

كيف سأكل من لحمه إذن ؟

ضحكت والدتي وقالت :

-- أيها الناس.. تعالوا وانظروا أبو العلاء المعري قد عاد الى الحياة و ظهر في بيتنا .

-ربت على ظهر الخروف وقلت :

- ما أودعك .... وما أقسى الانسان كيف يقتل مواطن جارة المواطن بدم بارد و بدافع التعصب والتحريض وأنا أشفق على خروف؟ السائق أبو محمود كاد يُسبب حادث سير عندما تفادى دهس قطة كيف يقتل الجار جاره ويحقد عليه ، بتحريض من غريب؟

الأمور تكاد لا تصدق لكنها الواقع

خرجت صباح العيد من البيت برفقة والدي باتجاه جامع البلدة من أجل الصلاة وسماع خطبة العيد .

كان شيخ الجامع ومقرنه وإمام المصلين هو الشيخ

عجلان

كان موظفاً عند الحكومة، يمالئ المختار وعقيل الأعرج وفي الوقت ذاته يلعب على الحبلين ، إنَّه يريد ضمان مصالحه على المدى الأبعد . ربما فهم السياسة بشكل جيد فسخر دينه لها .

مرة قال له أحدهم :

) إن كل ركعة تدر عليك خمسمئة ليرة ، ولولا الوظيفة لما دخلت المسجد).

قال :

- نعم وماذا يضير في الأمر ؟؟ دين ودنيا .. اللهم أجرنا من الحسد .

كان يلقي خطب الجمعة والأعياد ويصلي بالناس.. وأحيانا يقرأ القرآن وكله بأجر من وزارة الأوقاف...

عند وصولي سمعته يقرأ بعض الآيات ويجودها حتى وصل إلى قوله تعالى :

... وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ...

عند ذلك صادفنا الشيخ محمود العلي قادماً من الحارة الشرقية ، عند الباب سلم علينا وسألني :
كيف الحال في المدرسة الجديدة ؟

قلت :

في أحسن حال

دخلنا معاً متجهين إلى المحراب ، جلست بين والدي والشيخ محمود استعداداً لإقامة صلاة العيد .

أقيمت صلاة العيد ، فأم المصلين الشيخ عجلان ، ثُمَّ صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثُمَّ قال :

-كل عام وأنتم بخير .. ها قد حل عيد الأضحى .. ونحن على أحسن ما يرام .. وما ذلك إلا بفضل مسؤولي بلدتنا وحسن إدارتهم لشؤونها وعلى رأسهم المختار.

قال أبي هامساً للشيخ محمود:

(منذ قليل كان يقرأ في الكتاب أن المساجد الله ... وها هو يدعو لغيره)

وتابع الشيخ عجلان كلامه فقال :

إن أعمال المختار كبيرة وعظيمة لقد دهن

لكم رصيف المحطة.

سمعت الشيخ محمود يقول لي هامساً :

(يوم جاء السفير الأمريكي زائراً .. ذهن الرصيف من أجله لا من أجل البلد

وتابع عجلان :

ثم إن المختار قد سمح لكم بقطع أغصان الأشجار الحراجية من أجل أن تقيموا أقواس النصر لحجاجكم عند عودتهم من الديار المقدسة وقد كانت ممنوعة فيسر لكم .

قال الشيخ محمود هامساً لأبي:

) بدعة مكروهة .. وكان الحاج قد حرر فلسطين لقد أدى فريضةً فلماذا ترفع له أقواس النصر ؟ إنها تقام للفاتحين الفاتحين من ألف عام ، وليس للحجاج.. ونحن لم نر لكننا نرى الأقواس كل

حين والثروة الحراجية تهدر

وأردف الشيخ عجلان قائلاً :

وأهم إنجازات الحكومة إلغاء الضريبة عن الحمير، وكنتم تدفعون عن رأس كل حمار ضريبة ليست قليلة ...

قلت في نفسي لو تركها لكان ذلك أفضل فلعل الحمير كانت تنقص وتتقلص من بلدتنا)

نظرت إلى الشيخ محمود فرأيته يبتسم .

ثم إن الشيخ (عجلان) رأى أنه أسرف في المديح فقال :

يا أهل بلدتنا .. أحبوا بعضكم بعضا .. لكن على كل واحد أن يسعى إلى مصالحه ويعرف حدوده.. ولا تسعوا للدنيا الفانية ، فما عند الله خير وأبقى فقال الشيخ محمود

(أتأمرون الناس بالبر .. وتنسون أنفسكم، وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ؟)

وهكذا انتهت الخطبة عند هذا الحد . بعد ذلك جاء رجل يمثل المختار ومعه عباءة فاخرة فألبس الشيخ عجلان بعد أن كان قد وضع في جيب العباءة منة ألف ليرة مكافأة له .

نزل ، ووقفنا ثم خرج المصلون ، فودعنا الشيخ محمود على أمل أن نلتقيه وأزوره قبل مغادرتي إلى المدرسة .

في الطريق عندما عدت كان الناس يكبرون ويهللون ، ويصافح بعضهم بعضاً. الكثير منهم عايدني بلهفة واحترام . وعندما وصلت إلى البيت وجدت الخروف مذبوحاً ومقطعاً فحزنت

كان الجزار قد جاء وذبح الخروف وقطعه ووضعه قطعاً في أكياس وحدد حصة الفقراء منه وحصة الأقرباء . اتصل والدي بالشيخ محمود ليرسل له شاباً يقوم بتوزيع لحم الأضحية ؛ فجاء فتى يدعى عدنان يعمل في مكتب الأعرج العقاري مضيفا يوزع أقداح الشاي من سماور على الزبائن

وعندما حضر الصبي .. قلت في نفسي

(أهذا هو عدنان الذي ألمح حسن إلى أن أخبار الأعرج تأتي عن طريقه (؟)

أعطته أمي عناوين الأسر ليوصل لحم الخروف حسب حصة كل منهم لأن والدتي كانت قد سجلت على الأكياس اسم كل عائلة .

ولما لقيت الشيخ (محمود) فيما بعد قلت :

- إن عدنان يعمل عند الأعرج فكيف تأمنه ؟

قال :

إنه شاب طيب وعن طريقه سنعرف كل الخطط والنيات)

قلت في سري :

(ما أروعك يا شيخ محمود ! إنَّك تحسب لكل شيء حسابه .. وعلى المؤمن أن يكون كيساً فطناً)

(عدت إلى غرفتي .. واستلقيت على سريري ، وأنا أفكر بالشيخ عجلان الذي باع دينه بدنياه وتذكرت المحاضرة التي ألقاها علينا في المدرسة ذلك المحاضر الجليل والذي قال فيها :

(إذا دخلت السياسة في الدين أفسدته .. واذا دخل الدين في السياسة فسد، وتحول عن غايته .. تذكرت قول المسيح عليه السلام ... إذا فسد الملح .. فبماذا نملح (؟؟)

كان على الشيخ عجلان أن يقول كلمة حق إزاء أخطاء وخطايا ترتكب إن كان يُحب بلده او يُحب المختار ، وأن يشير إلى مكامن الفساد التي أساءت إلى السلطة ونخرت خشبها، فصديقك من صدقك ، وإن الاشارة إلى نقاط الضعف أفضل وسيلة لتعزيزها والانتباه لخطرها ، عند ذلك يجب قلبها إلى نقاط قوة . .. كان عليه أن يبحث عن الأسباب لكي لا تحصل النتائج الكارثية. كان عليه أن يسعى لردم الوادي بين الحيين ولا حاجة إلى جسر خشبي ، لأن الأفضل أن يردم الوادي ويتعانق الحيان كحبيتين. لكنه، وبالآسف ، كان مطية

لمصالحه، ويداهن الأعرج.. وحسبه العباءة ومنة الألف ليرة في جيبها .

تذكرت (ناصر) و (حمدان) وتذكرت (طوني) و (جورج) تذكرت المدرسة وحننث إلى أيامها .. إلى المسيرات في الغابات وتسلق التلال والهضاب ، تذكرت البحيرة وإشعال الحطب على الشاطئ لشي السمك وحفلات السمر .

فقلت في نفسي إنني أعيش حياة حقيقية مع زملائي ما كانت لتتوفر لي لو بقيت في البلدة بمدرستي القديمة ، وتذكرت ذلك اليتيم الذي دفعه يتمه لإنشاء تلك المدرسة.

وسألت نفسي :

هل كان عاطف رغدان الذي تخرج من مدرسة الألم والمعاناة عبقرياً بالفطرة ؟ أم أن الألم والمعاناة هما منشآن لتلك الانجازات ؟ إنه لم يدخل مدرسة العباقرة لكنه انشأها. وهل العبقرية موهبة بالدرجة الأولى . وكيف تنبثق ، أم أنها مكتسبة .. وما تحتاجه لكي تظهر ؟ هل تحتاج إلى من يخرجها

من كمونها مثل اللؤلؤة إذا لم تستخرج تبقى لا قيمة لها ومدفونة في قاع البحر . هناك طاقات مضمرة لا تخرج إلى النور إلا إذا توفرت لها الأسباب. وقد قد تحدث معجزة كل يوم إن عرفنا مكامن القوة فينا وأعددنا لكل شيء عُدته . إن المعجزات الحقيقية يحدثها الرجال بأفعالهم وعزيمتهم ، لا المشعوذون ببخورهم)

سبحت طويلا في التفكير وفي احلام اليقظة ، وتمنيت كما أراد أبي أن أكون رئيسا لمركز أبحاث ذري من أجل خدمة بلدي وأهلي ، فصممت على ذلك

في اليوم الثالث للعيد ذهبت مع والدي لزيارة الشيخ محمود في بيته بالحي الشرقي لنعايده .. استقبلنا بحفاوة وأجلسنا على بساط من لباد .. كان البيت متواضعاً جداً في الغرفة كانت حصيرة وجرة ماء ، كان الشيخ يعيش بفقره راضياً ولو أراد لسعى الغنى إليه قبل أن يسعى هو إلى الغنى .

وكان يقول :

(أحيانا يكون الفقر نعمة لأنه الباعث على العمل والكفاح والتطوير وإظهار المواهب)

قال لي مرحباً :

لبلدتنا سند ومرجع وموئل.. أهلاً بخير خلف اهلا بابن معلم الأجيال المستنير الذي هو

لخير سلف

قال أبي :

البركة فيك يا شيخ محمود انت الأساس وعليك ، بعد الله، المعتمد .

ثم قلت :

- يا شيخ محمود إنَّك تكرمني بما لا أستحق أنا إلا تلميذ مبتدئ في رحاب علمك الواسع ما

قال لي :

انت يا بني وأمثالك من أبناء جيلك خير مني ومن أبيك... أنا وأبوك بذرنا الكلام وتحول هذا الكلام إلى أفكار .. وسيتحول فيما بعد إلى عمل.. لكنكم أنتم من ستبدؤون الأعمال لتنفذوا الأفكار وتحدثوا المعجزات ... بلدنا بحاجة إلى معجزات ينفذها الرجال العقلاء . ولسنا بحاجة

الى الوهم والخرافة والخيال المريض العاجز ... العامل خير من المتكلم .. ويجب أن تباشروا العمل وتقدّسوه وترفعوا عماد العلم وتنشروه .. إنّ أباك يا بني كل يوم بيننا ولو كان غائباً نستشهد بأقواله وأفكاره بمجالسنا ولو لم يكن موجوداً .. إنّه حامل التاريخ الذي هو روح الأمة ، ومصدر إلهامها ...

عندما ودعناه وخرجنا .. كنا في قمة الصفاء الروحي العالي ، ومقياس عظمة إنسان تدركها عقب انتهاء المقابلة فتترك فيك التأثير العظيم أو الاشمئزاز والتفاهة حسب عظمة أو تفاهة من تقابل

في آخر ايام العيد ، دعا المختار أبي مع وجهاء البلدة ، إلى حفلة زفاف ابنه ، الطبل والزمر لم يهدئا .. واطلاق الرصاص ابتهاجا دوى صداه في الآفاق

قالت أمي :

قلبي مقبوض لا تذهب.

بل سأذهب. أنا لا أخاف الرصاص

المشكلة في المندسين الذين يصطادون في

الماء العكر

الأعمار بيد الله

قبيل الوصول إلى مضافة المختار . داهم والدي سيل من رصاص مجهول المصدر ، وقع أبي على الأرض ، شعر بتيار كهربائي يهزه ثُمَّ غاب الضوء

وتلاشى الصخب وعم هدوء شامل أسود .. لقد اغتالوا أبي في تلك الليلة .

الفصل السادس

حضر الجنازة عاطف رغدان ، والشيخ محمود وأبناء البلدة كافة .. وأقيمت جنازة مهيبة له ، وأشاع الأعرج أن الرشقات أتت من الحي الشرقي ، وهاج الناس ، وجرت بعض الاشتباكات، وعند المساء جرى اقتتال حقيقي في البلدة ، وسرى الدم في الشوارع . وظهر سلاح أغزر من التبن ، لم يكن أحد يتوقع وجوده ...

جاء عاطف رغدان بسيارته وقال لي ولأمي :

عليكما المغادرة فوراً.. وإلا ستقتلون .

قالت أمي :

-يقتلوننا ويُمثلون بنا كما فعلوا بأختي بشرى؟

قال عاطف رغدان :

قد يفعلون أكثر من ذلك لنغادر توا

الوقت له قيمة .

وذهب بنا إلى المدرسة ، وكانت فيها دار مستقلة من اربع غرف ، فنزلنا فيها .

قال : ستبقيان هنا حتى انتهاء الحرب ، أما أنت يا فارس فتداوم على دروسك وتنام مع أمك في هذه الشقة ، تاركاً رفيقيك مؤقتاً ودعنا وغادر بعد أن أعطى تعليماته إلى مدير المدرسة ، وقد علم المدير بما جرى .

مضت شهور من الاقتتال الدامي بين أبناء البلد الواحد .. وجرت دماء كثيرة في وتناثرت أشلاء.. واغتصبت الشوارع حرائر ، وهدمت بيوت ومساجد وبيع وكنائس .

وقال الشيخ محمود :

(اتَّقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)

البلدة خربت ، وانهار الاقتصاد ولكن لكل شيء نهاية ...

انتهى الاقتتال بعد زمن طويل طويل .. لفظاعته ظنناه دام عقوداً، دمرت البلدة بمعظمها تقريباً وهجرها كثير من سكانها ... وقالت أمي بعد أن هدأت الحرب :

سأغادر إلى كفر الزمان لأعرف مدى الدمار الذي لحق ببيتنا .

كان بيتنا سليماً كأنه لم يُصب وهذا ما عرفته فيما بعد من أمي . التي سلمت الشقة إلى إدارة المدرسة ، وعادت إلى بيتها ، والتحقت أنا بناصر وحمدان في غرفتي في المدرسة...

مرت أسابيع حزينة لم أنزل إلى البلدة ولكن كانت تصل إلي نتف من الأخبار.. وواظبت على دروسي إلى أن علمنا أن عاطف رغدان سيحضر ومعه بروفسور كبير من سويسرا ليلقي محاضرة وصفت بالأهم . قلت :

من هو هذا المحاضر الكبير ؟

قال ناصر :

هو سوري يدعى علام السردار . مختص بعلم الحضارات ورقي الأمم وتدهور الحكومات .. ويقال : بأنه صديق قديم لعاطف رغدان ، وأنه يستوحي منه الأفكار ويمده بتطلعاته المدروسة لتطوير البلد وحرق المراحل .

في صباح اليوم التالي كانت المدرسة وموظفوها في حركة دائمة لا تهدأ .. بدقائق أصبح كل شيء أكثر لمعاناً ونظافة . قيل لنا إن المحاضرة ستبدأ في الحادية عشرة بقاعة الاجتماعات الكبرى ولاحظنا منذ العاشرة والنصف امتلاء ساحة الوقوف بالسيارات الجديدة المطهمة .. ترجل أناس مترعون ثقة وأناقة .. وعزفت موسيقا تشبه اللحن العسكري أو سنفونيات الانتصار فامتلأت غرفة المدير . وكنا نحن في القاعة الكبرى ننتظر . في تمام الحادية عشرة دخل مدير المدرسة برفقة رجل طويل مهيب يضع على عينيه نظارتين قائمتين .

عرف الجميع أنه عاطف رغدان ، وكان إلى جانبه رجل متألق ممتلئ يضع نظارات بيضاء على عينيه ، فضمنا بأنه المحاضر علام السردار . عندما

اعتلوا المنصة كان الجميع يصفقون وهم وقوف بالورود وكانت المنصة قد ازدانت و (الميكروفونات). جلس عاطف رغدان وإلى يمينه المحاضر ، وعلى يساره كان المدير العام للمدرسة أما باقي المديرين والموظفين فقد جلسوا في الصف الأمامي من القاعة.

أمسك مدير المدرسة بالميكرفون وقال :

أرحب باسمي واسمكم ، بالدكتور عاطف رغدان وبالمحاضر البروفيسور، علام السردار، وبالضيوف الأعزاء . لتستمع إلى المحاضرة القيمة التي سيلقيها علينا البروفيسور علام .

وضع الميكرفون أمام المحاضر الذي بدأ محاضرته قائلاً :

محاضرتي مختلفة ، لكنها ستؤدي المطلوب ، سأسوغها بطريقة الأسئلة والأجوبة :

سأسألكم سؤالاً أريد الجواب عنه : (كيف

تنهار الأمم ؟)

رفع طلاب أيديهم ، أشار المحاضر إلى طالب

فقال:

تنهار الأمم بانقسامها إلى مجموعات متنافرة متقاتلة مثلما جرى ببلدة (كفر الزمان) .

قال المحاضر :

أريد أفكاراً أخرى .

واشار إلى طالب آخر فقال :

تنهار الأمم عندما ينهار اقتصادها ..

لم يكتف المحاضر بذلك فأشار إلى طالب ثالث :

قال :

تنهار الأمم عندما ينعدم فيها الاستقرار والأمن وتنحدر الصناعة والزراعة

هنا قال المحاضر :

إن ما ذكرتم يا ابنائي هي النتائج ، وليست الأسباب .. وكثيراً ما نقع في الخلط بين

الأسباب والنتائج فيعسر إيجاد الحلول والعلاج.

إن السبب الرئيسي لانهيار الأمم هو فساد القضاء وتفشي الرشاوي والمحسوبيات وانتشار الظلم لعدم تكافؤ الفرص بين الناس..

يُهمش المبدعون وتغدق الخيرات على الموالين الجهلة. كل ذلك يقوض أركان الدولة والمجتمع ويؤدي الى تدهور واقتتال بين أبناء الوطن الواحد يصبح المحروم عدة حارمه ويبدأ الصراع والصراع أنواع وليس صراعاً طبقياً فحسب .. إنه صراع المحروم بكافة أشكال الحرمان والثورة على ظالمه؛

.. في هذه الحالة لا سيادة للقانون

بكلمة مختصرة انعدام سيادة القانون سبب من أسباب تدهور الأمم ونشوء الصراع .. المثل القريب هو ما جرى في كفر الزمان كما قال زميلكم وهو محق...

وتابع المحاضر :

لقد مرت بلادنا بحقب طويلة ساد فيها هذا النوع من الحكم فتفشى الظلم وفسد القضاء وانعدمت الفرص ، فقال شاعر تلك الفترة :

يا أيها الناس تعالوا وانظروا صفات قاضينا يلوط . يزني التي تطرب ... يرتشي ينتشي . يقضي بالهوى . يكذب)

إذا كانت هذه صفات القاضي ، فكيف يمكن للعدل أن ينتشر ، وكيف يمكن للقانون أن يطبق ويسود؟

سأسألكم سؤالاً آخر :

(لماذا يستعبد الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟)

رفع بعض الطلاب أيديهم ، فأشار إلى واحد منهم ليجيب فقال :

عندما يكون الحكم ديكتاتورياً ثم أشار إلى طالب آخر فقال :

عندما تنتفي الحرية ، ويُعلق تطبيق القانون وتكم الأفواه بموجب قوانين الطوارئ

ثم أشار الطالب ثالث فقال :

عندما يعتقد الحاكم أن البلد مزرعة له ولأبنائه...

قال المحاضر :

هذه أيضاً نتائج ، وليست أسباباً . ارأيتم كيف يتم الخلط بين النتائج والأسباب؟ .. إذا لم تعرف الأسباب لا تعالج النتائج ...

وتابع المحاضر فقال :

يستعبد الناس عندما لا تُحد السلطة بسلطة أخرى أقوى فتطغى على ما عداها وتتغول فتجتمع السلطات كلها بيد لا تجد من يحدها أو يعارضها ، فتستوحش وتطغى ، وتمعن في طغيانها بمزاجية قرقوشية لا عقلانية فيها. عند ذلك يفقد القانون سقفه ، بل يتلاشى وينعدم ، ويصبح مثل خيط العنكبوت .. فينجو منه القوي، ويشنق به الضعيف.. وتكون

النتيجة انتقاء الحرية وعبودية الفرد وتدهور

الأمة .

في البلدان المتحضرة سلطات ثلاث مستقلة تحتكل واحدة منها جور بقية السلطات، وفى عصرنا السلطات الثلاث يحد بعضها بعضاً والجميع تحت سقف القانون ، وكل مخطئ

يسأل ويدان مهما علت رتبته .

ثم قال المحاضر :

سأسأل سؤالاً آخر من زاوية أخرى :

ما هي الدولة القوية ؟

رفع بعض الطلاب أيديهم فأشار إلى واحد

فأجاب:

هي التي تملك جيوشاً جرارة

ثم أشار إلى طالب ثان فقال :

الدولة القوية هي التي يكون عدد سكانها كبيراً

ثم أشار إلى طالب ثالث فقال :

٩٠

هي من تملك مساحات كبيرة من الأرض

وفيها الكثير من المعادن

قال المحاضر :

ليست هذه الاجابات دقيقة . فثمة دول ذات مساحات صغيرة ولا تملك جيوشاً جرارة ولكنها قوية لأنها امتلكت ناصية التكنولوجيا الفاعلة التي تحرك بالأزرار ، وتستطيع هذه الدول أن تدمر دولاً أكبر مساحة و أكثر

سكاناً ...

لكن السؤال هو :

(هل كل دولة قوية مادياً هي دولة حضارية

أخلاقية ؟)

مع الأسف معظم الدول القوية في عصرنا دول لا أخلاقية ، وليست حضارية .. إن الدولة الحضارية القوية في نظري ، يا أبنائي هي التي تملك أكبر قدر ممكن من العقول المفكرة ومراكز الأبحاث المتطورة والاختراعات التي تخدم الانسان. وكل ذلك قائم على خلفية أخلاقية وايديولوجية إنسانية راقية وطاقات روحية خلاقة . ولا نجد في عالم اليوم مع الأسف دولة تمتلك القوة والأخلاق معاً .. علينا نحن أن نكون الدولة القوية الأخلاقية التي هدفها رفعة الإنسان وإحقاق العدالة الأممية ونشر المحبة بين الأمم والحضارات.

ولكن كيف نرتقي ونتطوّر ؟

نجعل ساعات عملنا اليومي ساعات عمل حقيقي لا وهمي . علينا أن نلغي من قاموسنا البطالة والأمية وأن يكون مجتمعنا مجتمع الوفرة والرفاه ، وعلينا أن تحلل الواقع ونستفيد من الدروس . لقد احتل الصهاينة أكثر من نصف مساحة فلسطين التاريخية والتي تقدر مساحتها بسبع وعشرين ألف كيلو متر مربع وأقاموا فيها المستوطنات ، وهو أخبث استعمار وجد على الأرض أشبه بالسرطان وقد عملوا بعلم ومنهجية ومساعدة من الغرب ، فوصل الدخل العام للكيان إلى مئة مليار دولار سنوياً في وقت كان فيه دخل الوطن العربي بكامله مئة مليار وقد أدخلوا إلى الكيان مفاعلات نووية وأنتجوا قنابل ذرية

، في الوقت الذي كنا ومازلنا فيه بعيدين عن التكنولوجيا النووية ومازالت أفكارنا وطموحاتنا حبراً على ورق ، ولم تدخل حيز التنفيذ . مازال بعضنا إلى الآن يعالج أمراضه بالرقي والحجب والسحر والخزعبلات

مازلنا نبحث في داحس والغبراء ، أي منهما كانت ناقته أجدر بالفوز ؟ ماتت الناقة ومات القوم وأصبحوا تراباً .. ومازال الموتى يحركوننا بخيوط الوهم من قبورهم الدارسة علينا إعادة هيكلة العقل العربي فنحذف وإلى الأبد الخرافات والخزعبلات التي لحقتنا أو التي اخترعها مشعوذونا .. ديننا علماني نقي ، يحض على المحبة والمساواة ، وعلى العدالة والإنسانية ، وعلى أنَّ الله خلق كل شئ بمقدار يعني بمعادلات علمية ثابتة)

علينا أن ننقي ديننا من الشوائب التي ألحقها البعض بقصد أو عن غير قصد.. على جيلكم كل هذا العبء .. إنه عبء ثقيل ، كالذي حمله صاحب الرسالة الأولى.. إنا سنلقي عليك عبنا ثقيلاً) ، وهذه الرسالة خالدة .

كان البروفسور يدير محاضرته مشركا الجميع فيها مركزاً على نقاط القوة والضعف على هذا المجتمع تاركاً ظلالاً مشبعة بالإقناع على عقول السامعين ثُمَّ قال :

-أتدرون أن أول أبجدية كانت من سورية منذ عشرة آلاف عام ، وأن دولة سورية أنشأت مملكة قرطاجة في تونس ، وخرجت قادة عسكريين مثل هاني بعل الذي التف عبر جبال البيرينيه والألب، وهاجم الامبراطورية الرومانية من الخلف، وابتدع نظريات عسكرية تدرس إلى الآن في أرقى الأكاديميات في العالم ؟ إنه سوري بامتياز وهل تعلمون أن حقول القمح في حوران وزيت الزيتون المنتشرة أشجاره من الساحل حتى بغداد كانت تزود مراكز التخزين في روما وأوروبا ، وعليها يعتمدون في خبزهم وغذائهم . العظمة مضمرة فينا فلتنبثق مجددا إلى الوجود لتقتدي بقية أقطارنا بنا .

إن الكلمات تتحول إلى أفكار ، والأفكار تتحول إلى معتقدات والمعتقدات تتحول إلى عمل ممنهج قادر على النهوض والتغيير

وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فليكن التغيير حضارياً وعلمياً أخلاقياً على خلفية روحية إنسانية تتمسك بالمحبة التي بشر بها المسيح على هذه الأرض فعلى هذه الأرض ما يستحق الحياة)

أنهى البروفسور علام محاضرته فاستلم الميكرفون عاطف رغدان فقال:

أشكر أخي البروفسور علام على محاضرته القيمة وأرجو أن نستفيد من أفكاره ونعمل مستقبلاً على تطويرها لرفعة بلدنا

انتهى الاجتماع وتوجهوا إلى غرفة المدير ، وخرجنا نحن الطلاب إلى الحدائق والغرف

تمشيت في الحديقة كان الجو دافئاً بعد برودة وكانت الأشجار مثقلة صباحية منعشة بعصافيرها الوافرة بعد فصل التفريخ ، وكان

بعضها يسقط مرفرفاً بجناحيه من فوق أشجار الكينا إلى المروج التي طرزت بأزهار المارغريت كان يوماً رائعاً مثل أفكار علام وعاطف رغدان .

في يوم الجمعة سمعت الميكرفون يناديني للزيارة وقلت : لعل والدتي قد حضرت عندما وصلت إلى مكان الزيارات فوجئت بحنان وأخيها حسن .. لم أتوقع مجيئهما حملا معهما باقة ورد أنيقة وعلبة شوكولاتة .. أفرحتني المفاجأة كثيراً فاندفعت معانقاً (حسن).. ومصافحاً (حنان) بحرارة . وكدت أحضنها، لكنني تريثت في اللحظة الاخيرة . قالت حنان :

أردنا أن نفاجئك بهذه الزيارة .

قلت :

هذه أحلى اللحظات في حياتي ، كانت عيناها تلمعان وتنظران إليَّ وتدعواني إلى الحب

كانت تدعوني أن استحوذ على كيانها أو هكذا خيل إلي ، وتأكدت أن الحب هو أقوى من كل الانقسامات التي خلقها إنسان لتعرقل حياته ، وأنه بالحب وحدة يمكن أن نغير حياتنا نحو الأفضل ، أن الانقسامات الفئوية والطائفية والعرقية والمذهبية في أي مجتمع هي قوى سلبية يغذيها إبليس

قال حسن :

لقد قتل الأعرج وجانتي ، وحاق المكر السيء بأهله . أما المختار ، فقد غادر إلى العاصمة لأنهم طلبوه لاستجلاء الأمر والوقوف على ملابسات الفتنة لمحاسبة من أيقظها . ويدير البلدة الآن مجلس مؤلف من الشيخ محمود وعاطف رغدان و علام السردار ..... الذين قاموا بردم الوادي وخلع الجسر لتصبح البلدة حياً واحداً ويقام على أرضه أبنية يسكنها شباب وصبايا من كلا الحيين. انتهت المأساة وتحدث الآن معجزة ، فلقد انصهر الحيان بحي واحد وفكر واحد وعقد اجتماعي مدني واحد غايته العيش بمحبة وتساو وإخاء ، لأنهم

أدركوا أن هذا هو طريق الخلاص ولا شيء سواه

ودعاني وانصرفا .

الفصل السابع

قال لي مدرب الرياضة ورئيس فريق الملاكمة :

انت يا فارس عضو مهم في فريق الملاكمة وقد أجدت اللعبة وبرعت فيها. سنجري تصفيات ومباريات استعد لتكون بطل البلدة.

سررت من الخبر لأنني كنت فعلاً أحب هذه الرياضة التي تعطي ثقة كبيرة بالنفس. أحببتها وبرعت فيها لأنني أتمتَّع بسرعة المناورة ومعرفة نقاط ضعف الخصم . وكنت أدرك أن الأسرع يربح والأبطأ يخسر. لذلك من الضروري المثابرة على التمرين لأتفوق في التصفيات .

جرت التصفيات ، فكنت أفضل ملاكم في الفريق ، وبدأ المدرب أمين بإعدادي لخوض مباراة الحسم على مستوى المدينة ، وحدّد يوم الاثنين المباراة الحسم وقد أخبرت (حسن) و(حنان) ليحضرا المباراة ...

كان خصمي قوياً ومتمرساً وذا خبرة ، فقد ربح فيما مضى جولات كثيرة ، ولقب ببطل المدينة في الملاكمة. إنه نزار المنياوي صاحب الصيت الذائع.. عندما تبدأ المباراة يحاول السيطرة على خصمه بغزو كلامي يشوبه تهديد لكسر معنوياته..

اجتمع حشد كبير في ملعب البلدة ؛

وقبل الجولة الأولى بدأ نزار المنياوي يرغي ويزيد، ويهدد قلت له : (إن كلامك أجوف ، وسيرتد عليك ، وسترى قريباً قوة قبضتي .)

اكتشفت نقطة ضعفه في القسم الأيسر من وجهه .

إنه لا يحميه بشكل كاف بذراعه أو قبضته ، ربما لأنه كان معتدا كثيراً بنفسه أو لأنه لا يحمل لي كبير اهتمام باعتباري ملاكماً مبتدئاً ، فانتهزت الفرصة وهاجمته بقبضة يدي اليمنى على فيه الأيسر .. فترنح، لكنه لم يسقط ، فقد اتزانه ولكن مازال به بقية من قوة ، ومازال يترنح ويتمايل

مفتخراً ، ما أتفه فخر المشرف على الانهزام عندما يهدد فاستثمرت ترنحه بتوجيه ضربة قوية من ذراعي الأيمن إلى جبهته أتبعتها بضربة إلى فكه الأيمن أيضاً من قبضتي اليسرى ، فوقع أرضا بالضربة القاضية لأنه لم ينهض بعدها. فأعلن الحكم فوزي وأصبحت بطل المدينة بالملاكمة وصفق لي الجميع وصافحني حسن بحرارة بينما عانقتني حنان بفرحة غامرة شممت من خلالها رائحة جسدها الحار ، وتنفست من خلال شعرها أطيب عبير في حياتي.

قلت لها :

- سنلتقي مساء الخميس

مساء الخميس نزلت إلى البلدة ، أخبرت أمي بما حصل فكانت فرحتها لا توصف وضمتني إلى صدرها وقالت :

- أنت الآن رجل البيت القوي والسند الذي يدعمني بثقة لا يشوبها شك، وعادت بسمتها

عذبة وتهلل وجهها كالقمر المنير ، وكانت عيونها البحرية تشع بثقة لا حدود لها .

قلت:

ألا يحزنك وجودك وحيدة في البيت ؟ قالت: إنَّ (حنان) تزورني كل يوم وتمضي عندي ساعات . أحياناً تساعدني في بعض الأعمال إنها انسانة صالحة ، حفظت الوفاء كأنها ابنتي وعاملتني باحترام وعاطفة كأنني صديقتها ومن سنها .

* *

كنت ألتقي الشيخ (محمود) والدكتور (عاطف) والبروفسور (علام) في ليلة كل خميس فيطلعونني بسرور ، على أعمال أنجزوها للبلدة وقد بنيت معامل وركبت آلات وهيئت كوادر ذات خبرات الإدارة عجلة الإنتاج . كان عاطف رغدان رجل أعمال وصاحب نظرة شمولية ركز على الصناعة والتصدير ، ولكنه لم ينس الزراعة . فقد حفر

الآبار وبنى خزانات المياه وجعل الحقول المزروعة تروى بالتنقيط حفظاً للثروة المانية ...

وقد قال يوماً :

- إن الصراع القادم بين الأمم هو صراع على الماء والثروة المانية .. بدأت البلدة تتعافى ويزدهر اقتصادها ، وينعم أهلها بالوئام والأمان ، فلم يعد يسمع فيها سؤال يقول :

من أين أنت ؟ من الحارة الشرقية أم الغربية ؟ مادينك وما مذهبك ؟ بل صار السؤال ما عملك ؟ وما الشهادات والخبرات التي تحملها وما إنجازاتك حتى الآن ؟ .. لقد تغير كل شيء للأفضل رغم الفترة الزمنية القصيرة لم يعد هناك عاطل واحد عن العمل فانعدم التهريب والفساد والرشوة والسرقات لأن كل إنسان أصبح في كفاية وغنى ... ولم تنس الإدارة الجديدة النساء؛ لقد أنشأت لهن معامل النسيج والخياطة فامتصت اليد العاملة النسائية وصارت بلدتنا تنتج الأقمشة

القطنية والصوفية وتصنع الملابس بأنواعها وتصدرها .. بعد أن كنا نستوردها .

كان عاطف رغدان بالإضافة إلى كونه أكاديمياً رجل أعمال مخضرماً يعرف مصادر الربح للدول وتنمية الإنتاج الوطني بأيسر الطرق وأسرعها وأقلها كلفة .. كان فناناً في العمل أدخل زراعة الورود والزنابق والقرنفل إلى بلدتنا وربي إلى جانبها مزارع للنحل واسعة فصارت بلدتنا تصدر الزنبق والقرنفل والورد الجوري إلى الخارج كما تصدر العسل أيضاً. والمردود بالعملة الصعبة .. كان يقول للمزارعين :

ليست هولندا بأفضل من بلدتنا نحن أكبر

مساحة وأشد نشاطاً إن دخل هولندا من

الورود أعلى من دخل أقطار الوطن العربي

جميعاً بأضعاف ولكننا فيما مضى أهملنا

الأرض وانكفأنا إلى الخدمات والوظائف

التافهة

عودوا إلى الأرض.. أعطوها تعطكم .

استوردت الهيئة الجديدة الأبقار الهولندية الحلوب ، وبنت لها الحظائر الفنية الحديثة وأقامت مصانع اللبن والجبن والحليب (المبستر) إلى جانبها وصار يصدر بأغلفة أنيقة تضاهي الأوربي.

وكان للشيخ محمود دور كبير في ترسيخ الأخلاق وتعميق الاندفاع الروحي للعمل وإعطاء المثل في التضحية من خلال السلوك أولاً ثُمَّ التوجيه ثانياً ، ومن خلال خطب الجمعة التي تغيرت كليا ، فصارت تنصب على ضرورة تقديس العمل واحترام العاملين باعتبار ذلك أعلى درجات العبادة وكذلك الحض على العلم ، ورعاية المواهب منذ الصغر وعلى النظافة البيتية والنظافة العامة للمحافظة على البيئة واحترام الملكية العامة .

أما علام السردار فكان وراء التخطيط والتنسيق لمستقبل الأيام ، والسعي بدأب لبناء ماتخرب ، من حجر ومن بشر

ومضت مدة لا بأس بها قامت بها اللجنة خير

قيام إلى أن أعلنت عن انتخابات حقيقية وانتهى عهد صراع الديكة، ليفتح باب الديموقراطية الحقيقية ففتح باب الترشح وقد جرت انتخابات المنصب المختار نزيهة وترشح عدد من الأجلاء ففاز المهندس مؤيد الناصر بمنصب المختار ومعه أعضاء الهيئة الاختيارية ومنهم الشيخ محمود وعندما عدت إلى المدرسة من عطلتي الاسبوعية لاحظت كتابة جديدة حلت محل اللوحة الرخامية البيضاء ، فقد اختفت

كلمات نيتشة ، وكتب بدلاً عنها

اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً .. واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) وكتب تحت هذه الكلمات : قائلها أعظم رجل في العالم . هو

اليتيم محمد بن عبد الله .

تأملت اللوحة وقلت في سري :

ما أروع إقناعك يا شيخ محمود اختلط بك عاطف رغدان والبروفسور علام ورغم كل قراءاتهما وثقافتهما وتجاربهما في الخارج

... أثرت عليهما بإقناعك الفذ وإيمانك الصادق برسالتك .

غيرتهم ولم يغيروك .. فما أقوى إيمانك الصادق !

* * *

بعد أن استقرت البلدة وتقدمت في دراستي وتدريبي بالمدرسة ازداد شوقي إلى حنان فكنت أزورها كل أسبوع ولم انقطع عن زيارة الشيخ محمود والمختار الجديد وقد أضافوا مجلساً سموه مجلس الحكماء إضافة إلى المجلس الاختياري وهو يتألف من رجال اشتهروا بالحكمة و التجربة والعلم والتخطيط فكانت القرارات تأتي مدروسة ناضجة .

كان عاطف رغدان قد خصص في العيد منحة لكل طالب في المدرسة وهي مبلغ لابأس به من المال وعندما قبضته فكرت أن أشتري به هدية لحنان وارتأيت أن أفضل هدية لها هي غيتار فخم ، وثمنه يعادل قيمة المنحة التي أعطوني إياها ، فاشتريت

لها الغيتار وقدَّمته لها في زيارتي المسائية يوم الخميس .. قابلتني بمحبة لا توصف وارتمت على فشعرت بعاطفة غريبة سرت صدري وقبلتني ، في جسدي ثُمَّ قالت :

لماذا أتعبت نفسك وتكلّفت بجلب هذه الهدية؟

... ربما لا أستحقها ؟

قلت :

بل تستحقين أكبر منها فلقد قدمت لي من السعادة ما لا يقدر بثمن .

فقالت :

شكراً يا فارس سأبقى لك وفية إلى الأبد ولن فأنت الرجل الحقيقي أنساك طول عمري ، في حياتي.. قبلتني قبلة طاهرة تقابل فيها وجهان ممتزجان بوجه القدوس والإنسان.

إنَّ القبلة الصادرة عن حب عميق صادق هي أسمى ما يعبر به الفم ناطقا بلسان القلب...

حب حنان أطيب من الخمر وقبلتها معطرة كالزهر

قالت مرددة ما حفظته من العهد القديم :

- قبلني بقبلات فمك في فمي فأطهر من إنمي .. أقبلك في فمك المملوء حباً .. فيمتلئ فمي لك شكراً .. حبك مخط الرحال ومعقد

الآمال .. إن قبلتك هي نشيد الإنشاد .

- ما زلت تحفظين من العهد القديم احلاه.

- حبك هو العهد القديم والجديد في أبهى صوره

عدت إلى البيت منتشيا بحبها لأني ما زلت مخموراً بقبلاتها. كانت أمي تزور صديقتها فلم أجدها جلست وحيداً أحلم بحنان .. أصبح خيالها لا يفارقني ثم تناولت كتاب الأساطير الهندية وصرت أقرأ فيه كانت الأسطورة تقول :

في البدء خلق الله العالم .. ثم خلق الرجل بعد ذلك شاء أن يخلق كائناً بشرياً ، غير الرجل . فأخذ من القمر مسامرته ، ومن البحر عمقه ومن الأمواج مدها وجزرها، ومن النجوم لمعانها ، ومن الشمس حرارتها ، ومن الندى ، ومن قطراته ، ومن الريح تقلباتها وثباتها النبات ارتجافه وارتعاشه ومن الورد لونه وعطره ، ومن الأزهار تجملها ، ومن الأوراق خفتها ، ومن الأغصان تمايلها ، ومن الأشجار حنينها وأنينها ، ومن النسيم لطفه ورقته ، ومن العسل شهده ، ومن العلقم مرارته ، ومن الذهب بريقه ، ومن الماس قساوته ، ومن الحية حكمتها ، ومن الحرباء تلوّنها ، ومن الغزال شروده ، ومن المها عيونها ، ومن الأرنب خجلها وحياءها ، ومن النمر شراسته ، ومن الطاووس خيلاءه وزهوه ، ومن الثعلب مكره وروغانه ، ومن العقرب لسعته ، ومن الببغاء غنيائها وكثرة كلامها ، ومن الزمان خيانته وغدره ، وبعد ذلك جمع كل هذه الخواص وسكبها في بوتقة ، وخلق منها كائناً بشرياً مختلفاً عن الرجل ومنحه اسم (المرأة) ومن ثم قدمه للرجل . وتقول الأسطورة : إنه بعد أسبوع من العلاقة بينهما جاء الرجل إلى الرب شاكياً :

إن المرأة التي أعطيتني قد سئمت حياتي ووجودي. إنها تتكلم بلا انقطاع تبكي بلا سبب. إنها مستضعة ونحيفة ، مطالبها لا حد لها. إنها تستاء من أقل شيء، خذها وأرحني منها يا رب .

اخذ الله المرأة ، لكن بعد أسبوع عاد الرجل إلى ربه ليقول :

يا رب إن حياتي بدون المرأة موحشة ، العالم من حولي بدونها منفى وتعاسة؛ كانت تحبب لي الحياة ، تبتسم فأشعر بالقوة والنشاط ، تضحك فتتبدد همومي ، تداعبني وترتمي بحضني فيختفي الألم وتغمرني لذة الأحلام أرجعها إلي يا رب أعاد إليه ربه المرأة وبعد ثلاثة أيام رجع الرجل إلى ربه

شاكياً :

يا رب إنني لا أفهم نفسي ، لكنني متأكد أنَّ المرأة تزعجني أكثر مما تريحني وتسترني -

فغضب الرب وقال :

خذ المرأة واذهب أيها الرجل ولا تعد إلي عندما وصلت إلى هذا الحد توقفت وتساءلت . الهذا الحد تكون المرأة لغزاً ؟ ثم ما لبثت أن قلت لنفسي :

(عند حنان صفات أجمل من كل تلك الصفات ، وهي البسمة الملائكية والروح القدسية التى لا تظهر إلا في السنين المضيئة. ربما هي أرقى من النساء جميعاً)

في هذه اللحظة فتح الباب ودخلت أمي قائلة :

مساء الخير .. أكنت تقرأ أم تفكر ؟

الاثنين معاً

يم كنت تفكر ؟

كنت أفكر بحبيبتي حنان ، هي لا تغيب عني أبداً

نعم الاختيار. إنه حب لم يتأثر بكوارث الزمن، ولم تضعفه الأهوال والمحن .

الفصل الثامن

اجتاح كياني عصف عاطفي قاهر لا عهد لي به ... لا تغيب صورة حنان في كل لحظة عن ساحة تفكيري . ابتعد مرة عن ذاك الحلم الجميل لكنه يعود أقوى مما كان .. تلوح لي عيناها البنيتان الواسعتان في وجهها النضر، وشعرها الكستنائي المتموج على وجنتيها الموردتين فيدخل الخدر والسحر إلى دمي وشراييني .

كانت ضحكتها كحقول أشجار الدراق لحظة انبثاق الزهر . سحر مقطر يشل الكيان ويتركه على أرض الذهول .. و كانت لحاظها أقوى من العواصف الشمسية المغناطيسية التي تهز الكون وتؤثر فيه .. هو حبّ من نوع خاص كبركان ثار دون توقع وغمر السهول والوديان بحمم دافقة

حبٌّ ترعرع باسقاً كشجرة الأكاسيا حين تحمل عناقيدها البيضاء المشربة بالزهر والمحملة بالشذى.

كنت طيلة ليلي يقظاً قلقاً أسبح في أحلام اليقظة . قد أنعم بالوسن قليلاً قبيل الفجر، فأفرح لقدومه . وكنت دوماً أبحث عن مخرج لأنفذ من شباك فولائية يمثلها ألم البعاد ، ومن صراع مرير أوقعني فيه القدر من خلال الأحداث الدراماتيكية المتلاحقة . فلم التقط أي ضوء في ذاك النفق المظلم . . لوعة الاشتياق مرة لاذعة وقلت :

سأظل أحبها لكنني لن ألمسها .. ستظل في وجداني نقية كماء السماء ، ثمينة كماسة رائعة . أو كندي ينهض من سفر التكوين .. تكفيني النجوى ولقاء العيون العطشى وتلاحم القلوب المؤلفة وتمازج أشعة العيون الجائعة التي ليس لها أن تُروى ...

بوق العاشرة يؤذن بالنوم وبعده تطفأ الأنوار وعلى الجميع أن يناموا ليستريحوا وتتجدد طاقتهم من أجل اليوم التالي ، ولكن النوم اختفى .. فأين أجده !

ومرة وجدته لكنه هرب مني فقط بعيد الفجر يأتي الوسن قليلاً ليجتاحني فأنعم بالراحة والسكينة

انتبهت فجأة إلى سرير حمدان لم يكن هو في كيف خرج وأنا في حالة السرحان سريره ... والغيبوبة تلك.. و متى غادر .. ؟ وإلى أين يغادر هذا الفتى في ذاك الليل البهيم الأليل ومع من يسهر ؟ وقد أطفئت الأنوار وعم الظلام .

في تلك الليلة لم أنم كانت (حنان) تدخل غرفتي ضاحكة ، وتخاطبني بنعومة لهجتها المحببة وتقول:

فارس ... سأعزف لك المقطوعة التي تريد.. فمتى تأتي لقد اشتقت إليك .؟ . ... لقد أتقنت اللعب على الجيتار

كيف دخلت (حنان) في هذه الساعة من الليل مدرستي المحصنة كقلعة؟ ومن أرشدها إلى غرفتي لقد اقتحمت أحلامي مثلما هزت كياني

صحوت على حركة فتح الباب. أعادتني حركته إلى الواقع .. فتحه حمدان برفق وحذر .. خلع خفافته

واندم في سريره ونام كان شيئاً لم يكن أين كان حمدان يا ترى ؟

في الليلة التالية جاءتني الهواجس نفسها وحنان كعادتها تدخل الغرفة خلسة كما دخلت في الشرايين والدم خفية دون استئذان . لم أستطع النوم ، لكني بقيت جامداً لا أتحرك في سريري ، مغمض كانت الساعة تعلن بدء العينين منتظم الأنفاس اليوم الجديد . ثمة حركة خفيفة من سرير حمدان . رأيته ينزلق من سريره بخفة وحذر. ارتدى لباس الرياضة والخفافة إياها ، وأخرج (شماخه) من تحت مخدته ، ولف به رأسه .

فتح الباب دون إحداث صوت البتة، وخرج بتؤدة وحذر شديدين، ثُمَّ أغلق الباب بالطريقة نفسها . هممت بأن ألحقه .. ولكن ماذا لوكان قد ذهب إلى ابن بلدته حسون الأنصاري في غرفته التي تقع في الجناح الأبعد ؟

سيقول لي لماذا التجسس والمراقبة ؟ هل عينك أحدهم لمراقبتي؟.. ولكن الجميع الآن نيام.. وماذا يمكن له إن وجد حسونا مستيقظاً أن يعمل او بماذا يمكن له أن يتسامر ..؟

صرفت النظر عن الفكرة .. ورجعت إلى أحلامي ومناجاتي ...

في حوالي الرابعة صباحاً عاد حمدان ، ودخل بالطريقة نفسها التي خرج بها.. أعاد شماخه إلى تحت الوسادة .. خلع خفافته واندس في فراشه

لم يبق لبوق الاستيقاظ سوى سويعات، فهل يكفيه ذاك الوقت القصير لاسترداد قوته ونشاطه ؟ وهل بإمكانه أن ينهض نشطاً جامعاً قدراته كما لو أنه نام الليل بطوله ؟ ثُمَّ استدركت وأنا أقول لنفسي :

- لست بأفضل منه حالاً ، فأنا لم أنم حتى تلك اللحظة مشغولاً بطيف حنان ، مناجاة وسهراً وتحرقاً. وربما لا أنام الساعتين الباقيتين ، بينما هو سينامهما . فأنا لست أفضل منه ، ولكن علي أن أعرف أين يذهب في الليل وبمن يلتقي ؟

لا أدرى متى سهوت ساعة أو بعض أجزاء أخرى من الساعة . وجاء البوق الصباحي في السابعة ، ليوقظنا فنهضنا جميعاً لكن حمدان كان بطيئاً .

ومتقاعساً ، فسبقته أنا وناصر إلى المطعم .

وقلت لناصر أثناء الذهاب :

- أتدري أن حمدان يخرج ليلاً في حوالي الواحدة ، ولا يعود إلا عند انبلاج الفجر في الرابعة ؟

أين يذهب يا ترى ومع من يسهر ؟

- لا أدري ولكني اكتشفت ذلك منذ ليلتين.

قال ناصر :

هذا أمر عجيب لم ألحظ غيابه ولا عودته لأني أغرق في نوم عميق بعيد العاشرة بقليل .. الرياضة والدراسة والتفكير ، يستهلك كل طاقتي ، لابد أن أمراً هاماً يمنعه من النوم . فيمن يلتقي يا ترى ؟

قلت :

متى نسأله برأيك ؟

قال :

عندما جلسنا إلى طاولة الطعام بعد استراحة الغداء ، كان حمدان مصفر الوجه خامداً نعساً ، ولكنه لم يستنفذ كامل حيويته وطاقته ، فلم يكن منكسراً أو منهاراً . تناول قطعاً كثيرة من الفاكهة ، وشرب كوبين من الحليب المحلى بالعسل ، واسترد شيئاً من النضارة . كان مرهقاً قليلاً ولكنه تمتع بطاقة روحية يمازجها مرح وكان ذلك من العلائم التي غزت وجهه وملامحه ، فبدا يشع بالحب والرضا الممزوج بالقلق .. خيّل إلي أنه كان يمضي الليل ساهراً تماماً مثلي . ولكني أسهر مع من يحب ، الخيال والنجوى والهواجس في سريري مستلقيا وكأنني نائم.. مع من كان حمدان يسهر إذا ؟

من المؤكد أنه لم يكن يسهر الليل كما أمضيه أنا فحنان بعيدة . ولكنها مع حنان في سريري حاضرة .. عصية على الإمساك .. عصية على اللمس عصية على الامتلاك .. ربما لأنها طيف ملاك مصنوع من نور .. لا يلمس ولا يمتلك . هو

روح بجناحين . يغيب ويحضر . يبتسم ويتكلم ، ثم يختفي . يعطى زاداً من عينيه اللتين تشعان كما تشع النجوم بريقاً وألقاً .. لكن ذلك الطيف عند اختفائه يشعرك بجوع عاطفي فوري داهم، وكأنك لم تحصل على ذاك الزاد والبريق المرسل . هذا حب رائع متفجر.. أين يا ترى كان يقبع ؟ طاقة كيف يا ترى تفجرت كزلزال مدقر أو (تسونامي) قدم من البحر أن ثُمَّ اهتز ثُمَّ مضمرة كامنة غمر ودمر . ثُمَّ توارى مخلفاً الحطام والسكينة والحزن الممزوج بفرح غامض ...

يبقى أمل اللقاء في زمن ما في أرض ما في انبثاق جديد للحياة مع حنان نفسها ، فيا ليت ذلك يحدث !

عند استراحة الظهيرة بعد الغداء مباشرة استوى كل على سريره مثلما يتمدد المريض النفسي على الأريكة بانتظار تداعي الأفكار أمام طبيب سيكولوجي . أخذت. دور الطبيب وقلت :

كأنك البارحة خرجت ليلاً منسلاً يا حمدان. فاين ذهبت ؟

امتقع وجه حمدان وقال باستفهام إنكاري :

قلت : أنا .. ؟ لم أخرج مطلقاً .. ربما كنت تحلم

لم أكن أحلم .. وقد عدت في الرابعة صباحاً وكان على رأسك شماخ أحمر فارتبك حمدان وقال :

كانت عندي طاقة زائدة .. فصحوت مبكراً وتجولت في الحديقة

تجولت ليلاً ؟

لا .. ليس في الليل كانت خيوط الفجر الأولى تضيء أجزاء كبيرة من الحديقة حتى إن الطيور .. كانت مستيقظة .. وكانت تغرد ضحكت أنا وناصر قليلاً . وقلت ساخراً :

إذا كانت الطيور تغرد فمعنى ذلك أن الصبح قد بسط ذراعيه وحل الضياء. سكتنا جميعاً برهة .

قال حمدان :

دعكما من الهذر ولننعم بقيلولة.

تركناه وسكتنا .. ثُمَّ غلبنا النوم فنمنا ساعة في المساء التقيت بناصر وكان حمدان غائباً .

قلت له :

علينا أن نراقبه هذه الليلة وعلينا أن نتظاهر بأننا نيام .

غرقنا في النوم الخلبي بتمثيل متقن وراقبناه بعين مغمضة حذرة لكنها حادة .. .

في العاشرة حل وقت النوم وأطفئت الأنوار . كنا في أسرتنا جميعاً نتصنع النوم . من جهتي أنا وناصر كنا نحاول إيهام حمدان بأننا قد نمنا . وكان أيضاً حمدان يمثل علينا ليوهمنا بأنه قد نام ليقوم بعد أن يتأكد من نومنا بجولته الغامضة تلك. لم نتحرك أنا وناصر . وبدونا كمستغرقين في نوم عميق الكل يمثل ، وستكشف الاسرار عما قريب.

بهدوء من سريره .. قام حمدان في الحادية عشرة والنصف منزلتا يمشي على أطراف أصابعه باتجاهنا ليتأكد من نومنا ، فلم يلحظ شيئاً ، وظن أننا كنا نرقبه بطرف خفي أننا في سابع نومة) مع

.. لبس لباس الرياضة وانتعل خفافته ، ولف شماخه على رأسه، وفتح الباب بتؤدة ، كنت أنا وناصر ، بلباس الرياضة . نمثل النوم العميق ، وفي الحقيقة كنا بأتم اليقظة . . بعد برهة من خروجه رعة قفزنا من السرير ، وجهزنا نفسينا لمغامرة بسر لا نعرف نتيجتها ولا إلى أين ستؤدي ؟

لقد وبسرعة فتحنا الباب بهدوء نرقب مسيره ذهب أخذا الطريق المعبدة في منتصف المدرسة ... فخرجنا على الفور في أثره .

كان الليل معتماً فلم يكن للقمر أي ظهور .. بعض النجوم ترسل أشعة خافتة ، أرشدتنا بضوء كليل إلى شبح حمدان وهو يتحرك في الظلام ، فتابعنا المراقبة والسير وراءه دون أن نشعره بذلك.. كان يتجه باتجاه السور الشمالي الخلفي للمدرسة ، ونحن في أثره تختفي خلف جذوع الأشجار الضخمة، ثم نقترب منه بحذر على وثبات سريعة حذرة وغير مرئية كان ثمة باب حديدي للسور مشبك بحديد مبروم له فتحات فلاحظنا أنَّ حمدان قد أمسك بالحديد ، ووضع رجليه في الفتحات ، فتسوّر الباب ونزل إلى خارج السور

كنا نقبع خلف شجرة ضخمة تخفينا عن النظر، فلم يشعر حمدان بتتبعنا له . وعندما ابتعد قليلاً تسورنا الباب مثله تماماً وبلحظة كنا خارج السور .. نتبعه بدقة فلا يغيب عن نظرنا .

تابعنا المسير فقادنا إلى (مدق) ترابي في قلب الغابة وزادت كثافة أشجار الغابة من العتمة والرهبة.

فجأة سمعت صوتاً غريباً وحركة من فوق الشجرة التي مر من تحتها حمدان .. فجفل .. وأقعى على الأرض واثاقل إليها .. كانت بومة تقفز فزعة من مقر مبيتها . وكان حمدان يمشي بقلة احتراس يريد أن يصل إلى موعد ما قد ضربه لشخص ما أو ربما كان سبب عدم احتراسه هو تعوده على السير في هذا الطريق نحو هدفه الغامض ، الذي سنكتشفه مهما طال الأمر.

وكنت أنا وناصر نمشي باحتراس دقيق ، حتى لا يكتشفنا حمدان فوصل إلى جسر على نهر جاف ...

عندما يحلُّ القحط تجف الأنهار . لكن النهر في بلدتنا كفر الزمان كان مختلفا ، فهو جسر بين هوة صنعها سيل قديم . مازلنا في أثره نسير . ومن بعيد لاح نور من بيت ريفي أشبه بكوخ . ومع اقترابنا أكثر بدا لنا شبح امرأة ترتدي جلباباً طويلاً .. فتاة تقف بعيدة عن الكوخ في مكان بدا أخفض . وكنت أنا وناصر نختبئ خلف جذع شجرة كبيرة قرب النهر الجاف .. عانقها وضمها إلى صدره وقبلها ثُمَّ دعاها إلى الجلوس على المرج قريباً من النهر بعد مسير قليل. أشرت إلى ناصر بأن ننزل إلى سرير النهر الجاف ونلتف باتجاههما فلا يريانا ونكون قريبين جداً منهما بهذه الحال ، بحيث نسمع الحديث ... وكانت فكرة ذكية وناجحة لمعت في ذهني بفعل الشغف الزائد لمعرفة اللغز المحير.

فنزلنا إلى سرير النهر الجاف، ووصلنا إلى مكان يبعد عن جلستهما أمتاراً ، كانت كافية لنسمع همساتهما وتنهداتهما .

خفت ألا تأتي يا حمدان

كيف لا أتى يا سعدى وأنا قلق عليك منشغل البال ؟

أنا أعانى من أعراض الحمل ، قد يكون في أحشائى طفل وضعته في بلحظة ، غاب عنها

الوعي والعقل .

هل تشعرين بأعراض الحمل .؟

سكت حمدان قليلاً وقال:

لقد تمت الأمور بسرعة وكان علينا التروّي ،

سنضع خطة حكيمة للهرب

اذا تركتني سيذبحني أهلي .

لن أتركك ولو ضحيت بحياتي ولكن الوقت قصير وعلينا ايجاد الحل بسرعة .

أهرب معك إلى بلدك ، وليكن ما يكون . أخي (عياض) يخدم الآن في الجيش إنه شرس شرير إذا اكتشف الأمر سيذبحنا معاً .

لنهرب قبل أن يعود .

لا عليك فأنت عندي غالية بل أغلى من الحياة نفسها .

ضمها إلى صدره وسمعنا بعض التأوهات .

أشرت إلى ناصر أن نرجع .. لقد فهمنا القصة كلها بدقائق وعدنا أدراجنا بحذر. وعند سور

المدرسة ، تسورنا بابها الحديدي وعدنا من الطريق المعبد فوصلنا إلى غرفتنا . وعند انزلاقنا في سريرينا تسامرنا قليلاً قبل أن ننام

قلت :

لقد تورط حمدان وأغوى طفلة بدوية . فيا لتلك الخطيئة المميتة التي اقترفت قال ناصر

كيف وجدها ؟ .. ومتى تعرف بها ؟ تلك الغاز علينا أن نأخذ مفاتيحها وأجوبتها منه .

قال ناصر مضيفاً :

سنفاتحه في الأمر، فإن أنكر فسنجابهه بالحقيقة قلت :

لا وقت لدينا إلا في قيلولة الظهيرة .

كان الليل قد أوشك أن ينسحب .. ومن فرط التعب والإرهاق نمنا تواً فلم نعرف لا أنا ولا ناصر متى عاد حمدان من رحلته الليلية

في السابعة استيقظنا .. كان حمدان هذه المرة حزيناً مضطرباً مصفر الوجه منخفض المعنويات حائراً قلقاً .

قلت له بمكر :

كيف كان نومك هذه الليلة ؟

نظر إلي بشك مريب وقال :

- مثل أي ليلة

عندما ذهبنا إلى المطعم كان حمدان هذه المرة غير فقد شرب نصف كوب من راغب في طعام الحليب . لكنه تناول موزة كاملة

كنت أراقبه في درس الرياضة.. كانت حركاته حركات عاجز. وعندما كان يرفع ظهره كان يحدث ذلك بتثاقل . أما في قاعة الدرس فقد كانت عيناه تنوسان بكلالة واضحة . ثُمَّ تنطبقان ، ليهبط رأسه إلى صدره بحركة فجائية . ثُمَّ يُصححه ، فيعيد رأسه مشرئباً . لكنّه بعد ذلك يعود إلى الهبوط ... كان في حالة مزرية يُرثى لها .

بعد طعام الغداء عدنا إلى غرفتنا للقيلولة كنا جميعاً متعبين من ليلة الأمس ، استولى علينا النعاس لكن الفضول كان أقوى عندي وعند ناصر من النعاس؛

فقلت لحمدان :

هل خرجت البارحة من الغرفة في منتصف الليل ؟

امتعض حمدان وقال :

-لقد عدت سيرتك الأولى فلماذا هذه الأسئلة؟

إنني أعيد جواب الأمس : لم أخرج من الغرفة هل هذه الإجابة تشفي غليلك ؟

قلت :

كان قصدي أن نساعدك في حل قصتك مع سعدى انتفض كمن لسعه عقرب .. وتغيرت تعابير وجهه . وبدلاً من الاندهاش والفضول اعتراه غضب شديد فقال:

- أي سعدى وأي سعدون .. في كل يوم تخرجون علي بمسرحية تريدون تمثيلها ،

بغية استجرار الضحك . هل أصبحت مضحكة لكما .

قلت:

وعياض متى يعود من الجيش ؟ يجب حل المسألة قبل عودته. إنه شرس

قال ناصر :

- يا حمدان نحن أصدقاء. بل نحن أكثر من أخوة. وليس من أسرار بيننا، إنَّ فارس يحكي لنا قصة بلدته كاملة، عندما يعود، نساعده ويساعدنا .. احك يا حمدان قصتك فقد نستطيع المساعدة .

قال حمدان وقد انفردت أساريره، وخف غضبه، وارتاح قليلاً ثُمَّ قال :

ولكن بشرط أن تقولا لي من أخبركما بذلك ؟ أو كيف حصلتما على ذلك ؟

قلت :

الأمور بسيطة جداً يا حمدان ، وكان عليك استنتاجها .. لقد اقتفينا أثرك وسترنا سرير النهر بالتقرب منكما ، وأوصلنا إلى مقربة من مجلسكما فسمعنا كل الحديث وشاهدناكما وقد سردتما ولخصتما بدقيقتين ما جرى .

قال حمدان :

وهل شاهدتما ما جرى بعد الحديث . إن كان ذلك قد حدث فيا للعار !

قال ناصر بجدية :

لقد غادرنا فور انتهاء الحديث ، ولم نر ما جرى على المرج في ذلك الليل.. النجوم فقط هي من رأت فحزنت على تغريرك بطفلة .

قلت:

نحن فهمنا القضية بدقيقتين وكان الأولى بك أن تصارحنا من البدء لأننا كنا منعنا وقوع مأساة وقعت وتغريراً قد حصل . وكنا وفرنا عناء مغامرة ليلية مرعبة . قال حمدان :

أين الرعب فيها ؟

قلت :

على الأقل البوم الذي يطير فجأة من على أما لو كان (عياض) الشجر مصوتاً موجوداً فإن مأساة قد تقع وتغوص السكين في لحمك وعظمك

قال حمدان :

فعلاً إنها ورطة بل هي لسعدي صادق وعميق ماساة ، مع أن حتي إنَّه الحب الأول في حياتي ثم لأنها فتاة استثنائية بالفطرة . بالرغم من أنها قد انقطعت عن المدرسة من الصف الثامن ، إلا أن الحياة قد صهرتها فقوي معدنها وتصلب وعلمتها الحياة كأفضل مدرسة وخير معلم ، ثُمَّ لأنها رائعة الجمال فاتنة ولأنها أحبتني أيضاً فسلمتني نفسها لثقتها بي

قلت :

كيف تعرفت بها ؟ قُص علينا القصص بالتفصيل .

قال حمدان :

ألا تذكرون أننا في هذا الصيف خيمنا في الغابة ونفذنا المسيرات الطويلة.. وذات مرة تخلفت عن رتل المسير .. كانت قدمي تؤلمني لأنها زلت فسقطت بحفرة وكادت قدمي

تنكسر قعدت في تلك الحفرة ألمس قدمي وأتحرى الألم .. .. كان الرتل يبتعد ويبتعد ثم غاب عني ولم أعد أراه .. خرجت من الحفرة أتجول وأفحص رجلي وقدمي فمشيت على غير هدى مدة ساعة فرأيت بحيرة واسعة في وسط الغابة لعلها تشكلت من انكسار أو جرف وشكلت وادياً تجمعت فيه مياه نبع يصب من علق التل في تلك البحيرة . كانت البحيرة تتلألأ بفعل أشعة الشمس المنسابة من بين الأشجار والأغصان وتتلون مياهها بالخضرة المزرقة وعلى حوافها انتشر نبات القصب وبعض شجيرات مائية. أخذت بالمنظر البديع وتجولت عيناي في أفق واسع مليء بالأمواه والأشجار والرطوبة ، ولمحت قطيعاً صغيراً من الأغنام يرعى .

قلت في نفسي فلأبحث عن الراعي فأتسلى معه حتى يعود الرتل من المسير فأنضم إليه ... كانت سعدى هي الراعي وكانت قد تعرت تماماً ووضعت ثيابها تحت حجر ونزلت إلى البحيرة تسبح وتستحم. رحت أرقبها من بين القصب وأقبع في حفرة قريبة من الماء بحيث أراها .. ولا تراني.

سحرت بمنظر صبية رائعة الجمال عارية الصدر وقد غمر الماء وسطها السفلي فلم يظهر لى منه شيء.. هي بيضاء كالثلج تعجبت من جسد بدوية أبيض كالثلج.. مشدودة القوام فاتنة عيون حوراء كبيرة تشع بريقاً يظهر من بعد ، وشعر اسود ينساب كشلال إلى أسفل الظهر غاطساً في الماء لم يكن بيني وبينها سوى امتار لأنها كانت قد اقتربت من الضفة.. لم تكن لتبتعد كثيراً في عمق البحيرة مع أنها تسبح بمهارة كسمكة وتلعب بالماء كحورية .. راودتني فكرة شيطانية فتسللت وحملت ثيابها إلى الحفرة التي أقبع فيها وكان العشب الطويل والقصب يخفيني .

بعد ساعة خرجت من الماء لترتدي ثيابها ... بحثت كثيراً وتلوت ثُمَّ جفلت كمهرة قفز من أمامها ثعلب ماكر .. حارت وكادت تبكي ثم صاحت بعصبية بأعلى صوتها :

أنت يا من أخذت ثيابي.. استر علي.. ستر الله على حريمك

في داخلي سررت.. هي لعبة ماكرة و تستحق الاستمرار .. ناديت أنا بصوت عال :

سأعيد الثياب إلى مكانها بشرط أن نتحادث فترة من الزمن . صاحت لماذا الحديث ؟

القصد منه شريف .. وأحب أن أدخل البيوت من أبوابها

وأين الباب الذي دخلت منه ؟ هل تظن إخفاءك ثيابي قصداً شريفاً ؟

هو باب هيأته الأقدار للتعارف ، وأرسلتك إلى الماء ليكون ذلك سبباً لحياة نعيشها معاً. قالت :

أعدك بشرف والدتي أني سأحادثك على أن تكون مؤدباً معي والآن ضع ثيابي في مكانها وأدر لي ظهرك حتى لا تشاهدني وأستحلفك بالله أن تفعل ذلك

وفعلاً وعدتها ووفيت بوعدي .. وأدرت لها ظهري فلم از تقاطيع جسدها إلا وهي في الماء.. وبعد دقائق كانت قد لبست ثيابها .

وقالت :

(اظهر وبان .. عليك الأمان)

فخرجت من الحفرة واتجهت نحوها عرفتها بنفسي وعن سبب وجودي في هذا المكان وانقطاعي عن رتل المسير . وقلت :

قد تكون الأقدار جمعتنا لنعيش العمر كله ، ويكون لنا أولاد وأحفاد فأنا مثلك بدوي أرعى الغنم .

فاطمأنت لحديثي وقعدنا لأقص عليها وفاة أبي وتسليم ميراثي الذي بلغ مئة نعجة إلى أخي الكبير غتوان ليحفظها وينميها ويستثمرها لصالحي ويسلمني إياها عند بلوغي الأهلية كما شرحت لها عن حياتي في المدرسة ، وبكلمة مختصرة عن كل أوضاعي بصدق .

ثُمَّ قصت علي سيرة حياتها ، وإجبار أهلها لها على ترك المدرسة ، وقد نجحت إلى الصف الثامن ، لأنهم ارتحلوا عن المكان طلبا للكلأ والمرعى ، ولأن أخاها عياضاً أستدعي إلى الجيش ، ولا بد لها

من أن ترعى الغنم بدلاً عنه وأبوها شيخ كبير ، ولها اختان متزوجتان في مضارب بعيدة.

ارتاحت لحديثي . وفي المراهقة يشتعل الحب كالخشب المشبع بالزيت ، وكنت التقي بها منذ شهور وأغيب ليلاً ، ولا أشعركما بغيابي . صرنا نلتقي ليلاً ، على ضوء القمر ، أتملى بالجمال البكر، الخالي من المساحيق ، وبالجسد البكر الذي لم تلامسه يد أخلع عنها رداءها، فيضيء جسدها واستغني عن النجوم .. وفي الليالي المظلمة ، كانت إشعاعات عيونها الحوراء تضيء لي الجسد الظامئ ، فأرويه ، نتطارح الغرام على العشب الأخضر الندي . الأجمل كان في الليالي المقمرة عندما يرسل القمر نوره على الجسد الأبيض الصلب الساخن كحمم، الحاد كطعم البهار، فأعيش الليالي الكريستالية الساحرة، فيهجرني العقل والمنطق، وتصول الرغبة الجامحة لكلينا ، فتنطلق الخيول في السهول والوديان والروابي، وتصهل بكل حرية ، ولا نحسب للغد حساباً

وكان مالم يكن في الحسبان . لم أتمالك نفسي ، لأننا كنا في أعلى درجات الجنون ، أذبت معدنها الماسي بجحيم الرغبة فحملت منى ، فأوجدوا لي الحلّ.

قلت :

- الحب العظيم ، لا تحركه النزوات ، تتلاقى فيه البصيرة والعاطفة ، وبه يرتفعان؛ والحب القائم على الشهوة والاستدراج، أو المساومة، أو ابتغاء اللذة العابرة ، عمره قصير ، ويؤدي إلى الانحدار ... لقد غررت بطفلة ، فأخفيت ثيابها ، وساومتها ، ثم غررت بها بمعسول القول فأشعلت نيرانها ، وهي الوحيدة التي تساعد أباها العاجز حالياً . كنتما في جوع، فظننتما أن الجنس هو الحب ، وشتان بين الاثنين، عند الشبع تزول الغشاوة ، فتقول : ابحثوا لي عن الحل .

قال حمدان :

لا تنظرا إلى شزراً . كل إنسان معرض للخطأ ولست بنبي.

قلت له :

كان عليك الا تقطف التفاح في غير موسمه ... وأن تكون محباً عذريا

قال حمدان :

من يسمعك يظن أنك افلاطون ، لا أريد سماع المواعظ ، أريد إصلاح الوقائع .

قال ناصر :

لقد كانت بدايتك خطأ .. وانتهيت إلى الخطأ لا تفيد كلمة (لو (الآن .. وإن ما قاله لك فارس هو صحيح تماماً .. أرى أن تأتي بأهلك مع نفر من الوجهاء لتطلب يد سعدى من أهلها بشكل شرعي .

قال حمدان :

ولكن بين عشيرتي وعشيرتها عداوة مستحكمة، وهم لن يسمحوا لها بالزواج مني.

قلت :

هذه مشكلة جديدة .. كان عليك قبل طرح الفتاة على المرج ، والتمتع بها في ضوء القمر أن تفكر في كل ذلك

قال حمدان :

سأهرب وإياها إلى قريتي .. وليكن ما يكون.

قلت :

إنك تكون بهذا كمن يصلح الخطأ بخطأ أكبر.

قال حمدان :

بل العكس تماماً إذا تزوجتها استر عارها .

قال ناصر :

الا يمكن إيجاد من يصلح العداوة بين عشيرتيكما

قال حمدان :

هذا مستحيل ولقد قررت أن أهرب معها بعد يومين .. وتعرف هي طريقاً يؤدي إلى بلدة فيها سيارات تنقل ركاباً بالأجرة .

قلت :

اذا أردت نقوداً فهي متوفرة ولا نستطيع مساعدتك إلا من هذه الناحية وستتحمل مسؤولية قرارك.

ثم قلت له :

اتصل بي على هذا الرقم يوم الجمعة مساءً لأطمئن على نجاح هربك وسلامتك قال حمدان :

- سأفعل وسأبدأ بالدراسة الفردية من حيث انتهيت في هذه المدرسة ، وسارعى غنمي بنفسي ، وأجلب الكتب لسعدى لتدرس أيضاً.

قلت :

ستبقى طيلة حياتك مترقباً خنجر (عياض) أو طلقات مسدسه ، سواء كنت في المرعى أو كنت نائماً في الفراش . ونحن من جهتنا ندعو لك بالسلامة والسعادة .

بعد يومين خرج حمدان من غرفتنا إلى الأبد بعد أن ودعنا وبكى . وقد أوصلناه إلى الباب الحديدي عند سور المدرسة الشمالي

وقلت له :

- لا تنس الاتصال بي مساء الجمعة .

ثم عدت أنا وناصر إلى غرفتنا ..

ذكرتني تلك الوقائع والأحداث بجلسة ضمت أبي مع أحد السياسيين في بيتنا .

قال السياسي :

برامج السياسيين وأنظمة أحزابهم الداخلية منذ الاستقلال وحتى يومنا هذا كانت جميع تنص على وجوب تحضير البدو وتوطينهم ، والمقصود بتحضيرهم بناء البيوت لهم على شكل قرى وبلدات وأن يكون في تلك التجمعات مدارس ثابتة ومستوصفات وان تلغى الخيمة من حياتهم إلا للضرورة أو المعسكرات . وأردف صاحب أبي قائلاً :

ليس معنى هذا أن تلغي مهنتهم في تربية الأغنام والإبل والخيول ، بل نطوّر ذلك .. تبنى لماشيتهم حظائر تربى فيها الأغنام والإبل ويقدّم لها العلف فى حظائرها .. كانت الحكومات تترك أكثر من نصف أراضي سوريا بوراً بحجة جعلها أماكن للرعي ، وكان الأولى أن تزرع زيتوناً ليعصر أو نخلا ولوزا ليقطف.. ويكون كل ذلك كأنه الذهب الأخضر بعد أن ينفذ الذهب الأسود .

قال ناصر :

بماذا أجاب أبوك ؟

أذكر أن أبي قال له يومذاك : مشكلة حكوماتنا الها تبرع في الشعارات والأقوال والخطب وتنسى العمل وتفتقر إليه بقيت الخيمة وازدهرت فازدادت بالآلاف، وفرخت العشائر أفخاذاً متنافرة، زادت النعاج لكنها هربت عبر الحدود لتأكلها الكروش المنتفخة وتغمسها مع البترول

أذكر أن أبي قال لضيفه آنذاك أيضاً :

-هذه الأراضي الواسعة المتروكة والمسماة بادية .. ليست رملية ولا منعدمة الحياة يوجد تحتها بحار من الماء يمكن استخراجه وريها لتزرع بالفواكه الصالحة للتصدير أو بالفستق الغالي الثمن . إنَّ اسرائيل قد جعلت من أرض فلسطين مزارع للبرتقال والليمون ، وسرقت تلك المهنة من سكانها الأصليين كما سرقت أرضهم وديارهم وآثارهم كم نحن بحاجة إلى العمل لنعبر الجسر المؤدي إلى التقدم؛ وليس عبوره بالأمر الشاق .

قال ناصر :

- إنَّ هذا اليوم آت ، وعلينا نحن الجيل الجديد العمل للتعجيل بمجيئه

في يوم الجمعة عندما كنت في البلدة اتصل حمدان

وقال :

لقد وصلت بأمان مع سعدي ، ورحب أخي قريباً تثبيته فادعوا لنا بالتوفيق . وأمى بها وأحضرنا شيخاً فعقد قراننا وننوي

فقلت له :

يسر الله أمركما وحماكما من كل مكروه ... كونوا جميعاً على حذر .

الفصل التاسع

عندما دخلت بيتنا كانت أمي في الشرفة في الطابق العلوي تلك الشرفة المطلة على طبيعة خلابة كانت النوافذ جميعها مفتوحة بكافة منفتحة الاتجاهات .. فهبت الرياح الرخية تحمل رائحة السهوب وشذى المروج المزهرة . كان الأفق يمتد وينفتح على أرض خصبة معطاء تصل إلى حد البحر البعيد .

كانت أمي تجلس على كرسي وأمامها طاولة من خشب الزان المزخرف بالأرابيسك كانت تمسك كتاباً ، بينما تعلّق نظرها في الأفق المفتوح بأمل واثق ...

عندما لمحتني وقفت ضاحكة بحبور امتزج بألق العيون .. تمنحني إياه لحظة أول إطلالة بعد غياب.. وقفت بقامتها السمهرية ووجهها الوضاء كالقمر ، وكانت عيونها أصفى من زرقة السماء فى صيف ضاحك .

ضمتني إليها قائلة :

كم أحبك يا فارس .. أنت المستقبل

.. لا يمكن شعرت بحنان دافق كالفرح العظيم وصفه إنها وحدها هي التي تمنحنى إيَّاه غب العطش .

أنت يا أمي الوطن الدافئ .. والحب الدافق ... وكل حب بعدك إلى زوال .

تركت حضنها والتفت إلى السهوب الخضراء المموجة .. كان الأفق ممتداً بدون عوائق .. في آخره كانت الأرض تلتقي بالسماء .. وكان أريج الغابات المترعة بأشجار الكينا والبلوط والكستناء والسنديان يهب داخلاً النوافذ إلى تلك الغرف المضيئة عبير يشبه الروح ، يهب من حقول القمح المتماوجة مع السنابل .. ومن حديقة المنزل شممت رائحة الياسمين .. في السماء كانت اسراب من الطيور تحلق وتحوم

ثم تنخفض لتحط في الحقول المزهرة ، تكرج على الأرض راقصة متراقصة .

شممت رائحة الحرية وقد ذكرتني بها طيور اليمام.

قلت لنفسي :

في هذه البلدة فاحت رائحة الحرية التي سقيت بدم. الثمن غال ، ولكن أصبح للحياة طعم ، فازدهرت العزة ووضح الهدف .. انتفى العجز وتلاشت كل الكابات مثل ضباب الصباح الذي بددته الشمس لقد زال الغبش .

في غمرة تأملاتي هذه .. لم أنتبه إلى أمي التي ذهبت لإعداد القهوة لمحتها تحمل فنجانين في صينية ذهبية ..

جلسنا نحتسي القهوة وأمامنا السهول الواسعة الخضراء والغابات التي تزنر البحيرة . على مرمى النظر .. كانت الآمال مفعمة بقلوبنا بدون حدود ما

أروع الأجداد الذين أسسوا ممالك على ضفاف المتوسط ! في الجينات والمورثات عبقريات مضمرة فمتى تقوم ؟ .. لابد من انبثاقها في يوم ما مثلما ينبجس النبع من سفح الجبل عندما يفيض خزان ليشكل النهر فيما بعد .

قلت لأمي :

أريد أن أتجول في البلدة فلقد اشتقت إلى أزقتها وحاراتها وزواريبها، وبعد ذلك أصل إلى بيت صديقي حسن الزعتري

قالت :

سأكون بانتظارك على الغداء .

خرجت ممتلئاً نعمة وحيوية وحبوراً . تمشيت في شوارع البلدة حتى وصلت إلى أرض بور غير مبنية ، عمل منها أطفال صغار ملعباً لكرة القدم . وقفت أتفرج .. في فترة الاستراحة رحبوا بي بحرارة وقدموا لي كرسياً لأشاهد مباراتهم وأحكم على لعبتهم جلست أراقب اللعب ، وقلت لنفسي يجب أن لا يحرم هؤلاء الأطفال من ملاعب خضراء ومدرجات عامرة ...

إن الرياضة جزء من التربية والحياة.. وكان عاطف رغدان محقاً عندما بنى مدرسته تلك وجعل من الرياضة جزءاً هاماً من منهاجها .. على كل فرد ممارسة الرياضة لكن في الملاعب عندنا فريقان يتباريان ويمارسان الرياضة بشكل فعلي ...

يقعد النظارة يتفرجون لا يمكن أن نصف هؤلاء

المتفرجين بالرياضيين.. الرياضة لا يمكن تنفيذها

بالنظر فقط. إنّها ممارسة .. وإلا كانت ديكوراً

وشغلاً لأوقات كان يجب أن تُملأ بالعمل والحركة

ليست الرياضة هي كرة القدم فقط .

سمعت حركة دراجة هوائية تقف خلفي تلفت فوجدت المختار نفسه ، وقد ترجل عنها وأوقفها

أدهشني المختار الجديد الذي أتى على دراجة هوائية مثله مثل سائر الناس البسطاء مع أن

المختار القديم كان يأتي بسيارة فخمة مطهمة ذات دفع رباعي ترافقه حراسة مدججة .

سلم علي المختار بحرارة وقال :

-أهلاً بفارس ابن أخي الجزيل الاحترام أراك هنا مع هؤلاء الأطفال .. سلَّمت عليه بحرارة لأنني ملئت بالإعجاب من تواضعه

وقلت :

على هذه البلدة ومختارها ومجلس حكمائها أن يؤمنوا في كل حي ملعباً ومدرجاً وقاعات تحوي كافة لوازم الرياضة مدربين مع لينشأ هذا الجيل على حبها ويمارسها ... هذا ما نسعى إليه

جاء أحدهم بكرسي آخر وأجلست المختار وجلست بالقرب منه .

فقال :

هناك خطة لإقامة الكثير من الملاعب ولكن الأجدر الآن أن نتدرج بالأفضليات ..

الأفضلية الآن هي للتصنيع الذي يجلب

العملة الصعبة ، وتفعيل الزراعة وتحديثها من أجل تصدير منتجاتها .. إننا نحاول امتصاص اليد العاملة لتنعدم البطالة ، ويعم العمل كافة شرائح المجتمع .

قلت :

أراك تتجول على دراجة هوائية ولم تأت بسيارة ؟

قال :

علينا تعميم هذه الواسطة من أجل نقاء البيئة ومنع تلويثها .. المحاضرات لا تكفي والتوجيه في المدارس والمساجد والكنائس لا يكفي . الموعظة النظرية لم تكن في يوم ما أداة توجيه مثالية . كثرت المساجد والكنائس والوعاظ وبالمقابل لم ينحسر ظل الشر .. إن أحسن توجيه للنشء الجديد أن نضرب له المثل نحن المسؤولين بأنفسنا ، فالناس على دين ملوكها ، وهذه القاعدة يجب تعميمها في كل المجالات .. الأب في البيت يجلس مع أبنائه .. يأتي من يطرق بابه ، فيقول لأحد أبنائه :

قل له : إنني غير موجود

يذهب الولد ويقول للضيف : إن أبي غير موجود في البيت .

مثل هذه الحادثة توجه الأبناء نحو الكذب والمراوغة والاحتيال .. وسيلجؤون إلى هذه الوسيلة في التعامل مع الناس مستقبلاً .. الكذب هو أن الشر

قلت :

وما المفروض أن يقول الأب في مثل هذه الحالة ، وهو لا يريد استقبال الضيف ؟

- يقول الصراحة ولو كانت جارحة (إن أبي متعب ، ولا يريد مقابلتك الآن .. اتصل به غداً لتحديد موعد اللقاء) وقس على ذلك أتدري أن رؤساء حكومات في السويد والنرويج والعديد من الدول الأوروبية يذهبون صباحاً إلى مكاتبهم بالدراجات الهوائية ليكونوا قدوة للجمهور وليعلموا الناس التواضع ولينظفوا مدنهم من التلوث .

قلت :

هذا عمل جيد وعلينا أن نمارسه ونستورد من بقية الأمم كل عادة حميدة .. مع أن بعض مجتمعاتنا تمارس التقليد الأعمى فتستورد قشور حضارة الغرب ونفاياتها تاركة الجوهر؛ فتبني مثلاً أوكار الدعارة والقمار والرقص الهابط المبتذل وكازينوهات شرب الخمر

قال :

صدقت يا فارس .. إنَّ الانسان العظيم هو الذي يفرز النفايات عن الذهب ، فيحتفظ بالثمين ويلقي بالغثاء .. وكذلك الحكومات عليها أن تفعل ذلك اذ يتداخل في الحياة الخير والشر وعلينا اتباع طريق العقل

قلت :

لاحظت إنجازات كثيرة تحققت في البلدة .

قال :

البلدة كلها تحولت إلى ورشة عمل . و النهر الجاف ردم ، وأقيمت مكانه بيوت حديثة

جميلة سقوفها من القرميد تحيط بها حدائق ...لم يعد في البلدة حي شرقي وحي غربي يفصل بينهما واد . لقد ردم الوادي ومحيث مفاهيمه التقسيمية ، التحمت البيوت بالحب والحدائق ذات الظلال الوارفة . ولقد يسرت المصارف قروضاً سكنية بدون فوائد للإعمار.. وبدأت المصانع بالإنتاج والتصدير إلى دول أوروبا الشرقية ..

وعلى مستوى الزراعة فلقد عملنا على تنشيطها مستخدمين الطرق الحديثة ، وزرعنا التفاح في الجبال بعد أن سوينا مرتفعاتها مدرجات.. وأنشأنا البيوت الزراعية الدفيئة ومارسنا الري بالتنقيط وصدرنا منها الزنابق والقرنفل والورد الجوري كما زرعنا الأشجار في الجبال الجرداء .. وعلى مستوى السياحة أقمنا قطاراً هوائياً (تلفريك) بين الجبلين القائمين شمال بلدتنا وجنوبها ... وسيكون هناك ترويج سياحي لمطاعم وفنادق ومسابح تقام بالقرب من الغابات ...

لكن الأهم من كل ذلك هو ورشات الخياطة والتفصيل والحياكة والتي توزعت على ورشات كانت متناثرة يعمل بها ويديرها نساء من بلدتنا .. وقد رأى مجلس الحكماء أن تندمج كل هذه الورش في شركة واحدة ليتمركز رأسمالها فيتضاعف إنتاجها وسنستورد الآلات الضخمة للتصنيع بدل آلات الحرف الصغيرة وقد هاتفني عاطف رغدان وقال : إنَّه سيرسل وفداً من الخبراء بعد أسبوع لبرمجة الآلات وعلينا تعيين مديرين لهذه الشركة وقد اقترحت أن تكون أمك السيدة رابية الدمشقي هي المديرة العامة لهذه الشركة الكبرى لأنها تحوز كما قيل لي اجازة في الاقتصاد وإدارة الأعمال وينقصها دورة بسيطة على تكنولوجيا الآلات، وهذه من مهام الخبراء فما رأيك يا فارس؟

قلت :

سأخبرها بالنبأ.. محاولاً إقناعها بالقبول فالمرأة كالرجل عليها أن تنخرط في العمل

لتحقيق ذاتها. وكما قلت انت يا مختار قبل قليل ، إن علينا أن نضرب المثل بأنفسنا وبالعمل دون الكلام كثيرون لا يريدون للمرأة أن تعمل ، بل يعدّون العمل إهانة لها يقولون : إن المرأة مكانها البيت ومن الأجدر أن لا تعمل . وهذا توارثناه من عهود الانحطاط ومن تأويلات المحبطين ممن نسبوا اجتهاداتهم إلى ديننا الحنيف زوراً وبهتاناً .. المرأة في ديننا محترمة مقدرة .. والمرأة في

ديننا عاملة ومجاهدة . ويوم (أحد) طعنت أم سليم سبعين طعنة في جسدها لأنها وقفت تدافع عن النبي في الوقت الذي انفض الرجال عنه.. والمرأة في خلافة عمر وقبله كانت ترتاد المساجد تصلي وتناقش في أمور الحياة وتصوّب لأولي الأمر؛ ولولا أنها كانت تملك الثقة الكافية بالنفس لما جادلت وصححت رايا مثل المرأة التي جادلت عمر بشأن المهور كان حكيماً فقبل برأيها واعترف بكل شجاعة بصواب رأيها وخطأ رأيه.

وهل كانت خولة بنت الازور التي كانت تركب الخيل وتحمل السيف والرمحوتخوض المعارك إلا نموذجاً للمرأة العربية في ذلك العصر ؟ لم تكن متسربلة بالأسود من رأسها إلى أخمص قدميها ، ولو فعلت هل كانت تستطيع ركوب الخيل والمناورة في الحرب .. على المرأة أن تكون محتشمة وأنيقة في ذات الوقت ، هذا ضروري لاحترامها ... ولكن علينا بالمقابل أن لا نشرنقها بخيوط سوداء حتى لا تختنق وتشل فعاليتها . علينا نحن الرجال أن لا نخسر نصف مجتمعنا بعادة لم نطورها مع تغير الأزمان هي ليست من أركان الدين .

قلت :

هذا عين الصواب ، فالعالم كله من حولنا جعل منهن محاربات ، ودخلن في ملاكات الجيوش باحثات ومهندسات بل ورؤساء دول وحكومات واذا لم نفعل مثلما يفعلون نكون قد خالفنا نصاً قرآنياً حكيماً :

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ولأننا بهذه الحال نكون قد حذفنا نصف قوة المجتمع

أحسنت يا بني وهذه آراء أبيك التي كان يبشر بها ويلقيها على مسامعنا في المجالس وفصول الدرس؛ وها هي قد وجدت طريقها للتنفيذ؛ فاذهب إلى أمك وخذ رأيها في المقترح و أخبرني بجوابها .

نهضت مصافحاً مختار بلدتنا المتواضع بسلوكه الشامخ بفكره الرائع بمنطلقاته والذي بقي يشجع فريق الاطفال .. يجالسهم ويسمع منهم ثُمَّ يتكلم ليوجههم

يممت وجهي باتجاه بيت حنان مشيت في الزواريب العتيقة، ففوجئت بفتاة تهرب من شاب يلاحقها محاولاً إمساكها فتولول وتنادي :

- أنقذوني من هذا الشرير الذي يريد اغتصابي) فهرولت باتجاهه حتَّى صرت قريباً منه. قلت له :

اتركها يا هذا ، لماذا تريد اغتصابها ؟

وأنت ما علاقتك بهذا الأمر ؟ .. اتركني أنا حر

أنت لست حراً في انتهاك الأعراض ، وإن لم تتركها فستنال جزاءك مني

تركها وهجم علي باندفاع ثور هائج محاولاً ضربي بقبضة يده .. تفاديت الضربة مراوغاً .

ثُمَّ وجهت له بقبضتي اليمنى ضربة على خده الأيسر خرّ بعدها وسقط أرضاً .. حاول الوقوف مترنحاً ومستنداً إلى حائط فعاجلته بضربة أخرى سريعة أدمته فاناقل إلى الأرض منهاراً.

قلت له :

أنا لا أحب أن أذلَّ إنسانية الإنسان، ولكنك تقمصت الشيطان ، فانقلبت إلى شرير فحق تأديبك .. اذهب وقل لأمثالك : إن (فارس) لن يدع شريراً ينتهك أعراض بنات بلده ومن يفعل فسينال الجزاء العادل

هرب متعثراً متمتماً بكلام غير مفهوم ..

تذكرت حينذاك الحلم الذي أتاني بعد موت أبي. جاءني في المنام وسلمني كتاباً فيه حكمة ورسالة وكان على صهوة جواد .

يومذاك قال لي :

لا تستخدم السيف الا لقطع راس التنين لا تقتل به إنساناً ، وإذا أردت الإصلاح والتغيير فبالحب وترسيخ القناعات الإيجابية . حارب الشر بالعقل وجادلهم بالتي هي أحسن ، هذه رسالتك الخالدة في الحياة)

كانت الفتاة واقفة بقربي، وقد نسيت وجودها في غمرة العنف والذكرى .

قالت :

أنت يا فارس رجل شهم . أنقذتني من براثن

ذنب لولاك لاغتصبني وانتهك عرضي . هل كنت متهتكة اللباس فيما مضى متبرجة بابتذال أو ضاحكة له مرات أو مثلت له إغراء ما فسولت له نفسه أمراً ؟

قالت :

لا فأنا أحب الاحتشام والجدية .. استوقفني لأول مرة يريد أن يكلمني في أمر فأسرعت بالابتعاد فأمسك بيدي حتى لا أهرب ، فصرخت خوف الاغتصاب فحضرت أنت وأنقذتني

تعجبت للأمر ، حاولت الاستفسار، لكنها ودعتني وانصرفت

في الطريق قلت لنفسي : (لو لم أكن أتقن الدفاع عن النفس ولم أتدرب على الملاكمة لكان هذا الشرير صرعني وفي ذلك الوقت لو كنت أحمل سكيناً أو مسدساً فمصيري السجن أو القبر ..) .

تابعت المسير فوصلت إلى بيت حنان .. على الباب تحول قلبي في صدري إلى قلب طائر ... له وجيب خافق سريع؛ ضرباته كضربات الطبل .. اللهفة اللذيذة التي اعترتني سبقتها أحلام ورؤى

وخيالات . أنه الحب الذي نما بغفلة عنا نحن الاثنين فأخذنا على حين غرة وأغرق قلبي وشعوري وخيالاتي بفرح عظيم كما أفرح قلبها

قرعت الباب ففتحته حنان والضياء فانطفأت الشمس . .. سطع النور

كان لها وجه نضير ، وثغر نمير .. وكانت اللهفة في عينيها تتدفق كشلالات ... صافحها الضياء .. ارتمت على صدري متنهدة فمستنى كهرباء فازددت طاقة وشحنت روحي بالنور...

لم تترك يدي ، بل سحبتني إلى الداخل وأغلقت الباب وبشكل تلقائي غير مخطط له القت برأسها على كتفي مرة أخرى وضمتني إليها .

كان فمي وأنفي يتمرغان في شذا الشعر الكستنائي.. يا لشذا الغابات ! والسهوب المنفتحة .. بل يا لنسمات البنفسج المسكر والأقحوان الرائع ! كانت لحظات مضيئة ليتها استمرت دهوراً ، فمثل هذا الحب لا يكنيه زمن. هو بحاجة إلى أزمان وأجيال ، لا ينقضي أواره أو يخف لعله أقوى من الزمن !

تراجعت قليلاً فقالت :

فارس اشتقت إليك برغبة أعجز عن وصفها .. أحلم بك في النهار كما أتخيلك في الليل

وأنا كذلك ففي ساعات يقظتي تكونين معي ، وعندما أهجع لا تغادرينني.

ثم انتبهت إلى ثيابي المدعوكة بفعل العراك

فقالت :

هل خضت مباراة صراع لتوك بهذا اللباس ، أم أنك تشاجرت مع أحدهم لسبب ما ؟

قلت :

لقد لقنتُ أحدهم درساً قاسياً ، لأنه كان يشرع في اغتصاب فتاة بعمرك في أحد الزواريب. سمعتها تطلب النجدة فأقبلت وخلصتها من ذلك المغتصب وهذا كل ما في الأمر .

قالت :

إن بلدتنا قد تغيرت مادياً للأفضل ، ولكن علينا تغيير النفوس وإعادة هيكلة العقول ومعالجة بعض النفوس المريضة أيضا وهذا يتطلب وقتاً ليس بالقليل ، فأنت عندما

تبني إنسانا تستغرق وقتا طويلا وتعبا وجهدا؛ وهذا أصعب من أن تبني برجا او بناية على الأهل دور، وعلى المدرسة دور؛ وللبيت دور كبير، وعلى الأمهات فيه الدور الأكبر ، ويااليت أن يكون من شروط عقد الزواج إقامة دورة للخطيبين في إعداد الطفل وتربيته ، وفي فن أصول التعامل في ممارسة الحياة الزوجية من أجل نسل قوي .

ثم اردفت :

- تفضل هنا أمي وسيأتي (حسن) بعد قليل

قلت :

في أحلام يقظتي أتخيلك تعزفين على الغيتار بأنامل سحرية بارعة.

قالت :

إذن تفضل فوراً إلى غرفتي لأسمعك أعذب الألحان

دخلنا الغرفة ، وتناولت الغيتار وبدأت تلعب بأصابعها النحيلة الأنيقة الطويلة على أوتاره، فانساب لحن أخاذ ساحر ظننت أنه أجمل من سنفونيات بيتهوفن وموزارت .

فقلت مندهشاً :

أبهذه الفترة الوجيزة حصلت على كل هذه البراعة ، وأجدت كل هذا العزف ؟

الرغبة الحقيقية والهواية الملحة والعبقرية الكامنة تدفع العزم على الإجادة والبراعة

لا أزعم أن في داخلي العبقريات ..لكن في داخل الانسان ملكات وإمكانات ومواهب تصنع الأعاجيب لكنها تحتاج إلى مفتاح أو قل تحتاج إلى من يضيء القناديل . أحببت الغيتار لأنك أنت من أهديتني إياه .. ومن خلال الألحان أتلمس روحك تغمرني ، وتنشر العزم في حناياي. إن هذا الحب الذي نما فينا محكوم عليه بالخلود ويحتاج إلى حيوات عديدة وقد نلتقي في أجيال قادمة .. هو إلى الآن عذري وعلينا أن ننزله من السماء إلى الأرض .

كونه سماوياً وعذرياً أجمل وتبقى الامنية التي لا تتحقق مرغوبة أكثر لأننا نسعى دوماً إلى امتلاكها ولو لم نحققها.. والأماني عندما تتحقق تفقد ألقها وبريقها وتخلع

هالاتها الكريستالية وقد يكون الحب كذلك عندما ينزل إلى الأرض ويدخل المطبخ يصبح روتينيا وواجبا وظيفيا ضحكت من كلامها وقلت :

كثيرون ممن تزوجوا ظلوا في ألق الحب حتى شيخوختهم.. الحب الصادق كالذهب الأصيل لا يفنى ولا يدركه الصدأ

كانت تلك أحلى مناجاة في حياتي مع ملاك. وقد قطعت المناجاة بدخول أمها الغرفة. رحبت بي وضمتني إلى صدرها قائلة :

فارس .. غيابك عنا يوحشنا أنت بمقام ابني حسن .. ليتك تزورنا كل يوم .

أنت أيضاً أمي وأنا أسعد إنسان .. لقد فقدت أبي فعوضني الله بحنان أمين اثنتين

تسامرنا بأحاديث شتّى فحدثتهم عن المختار وعن قصة الشاب الشرير الذي صادفته وردعته عن الفتاة . وما زلنا كذلك حتى جاء حسن، فجلس معنا نتسامر ونشرب المئة .

قلت له :

رأيت المختار يركب دراجة قال إنه سيعممها كوسيلة نقل للحفاظ على البيئة ضارباً المثل بنفسه .

قال حسن :

لقد أثبت المختار الجديد إدارة ناجعة وناجحة بتواضعه ودابه ومثابرته أضف إلى ذلك حكمة نادرة وخدمة للناس عميمة .

قلت :

هكذا يجب أن تكون الامور .

ودعت الجميع وخرجت .

في الطريق هبت نسمات باردة منعشة فانتابني ارتياح ورضاً مشيت في الطرقات بين البيوت ... كانت آمنة وادعة ، وقد نهضت بيوت جديدة محل التي دمرت في الحرب.. موزعة في أرجاء البلدة بعضها لم يكتمل إنشاؤه بعد وبعض البيوت القديمة كانت قيد التجديد ..

وتساءلت :

ابتلك الفترة الوجيزة قفزت بلدتنا تلك القفزة التقدمية النوعية الرائعة فما هو السبب يا ترى ؟ وتوصلت إلى أن الصدق في العمل وانعدام الفساد والمحنة التي كانت صدمة أيقظت من كان غائباً عن وعيه غير مدرك أن على الوطن من علو أفراده وعزته من عزتهم.. واذا أخلص أولو الأمر انسحب الاخلاص إلى سائر وعندما يسود القانون يهرب الأشرار فيتلاشى الباطل ويزهق . لقد نجحت عملية إعادة هيكلة العقل ، بالقدوة الحسنة ، وبترك لغة الوعظ الخشبية . المواطنين

عندما دخلت بيتنا سطعت في أنفي رائحة طعام لذيذ كانت والدتي تعد المائدة

وجلسنا حول طاولة الغداء نتسامر فعرضت عليها ما قاله المختار فوافقت بعد تردد خفيف ، وشددت من عزيمتها لأن ذلك يخدم بلدها؛ ثُمَّ حدثتها عن زيارتي لحنان وأهلها فقالت :

حنان ابنة رائعة حديثها عذب ولسانها عسل.

بل هي أكثر من ذلك

تناولنا الغداء ، ثُمَّ انسحبت إلى غرفتي كي أنعم بقيلولة . كنت من الفرح في أوجه ، فلقد فتحت لي كلمات أمي ولقائي بالمختار ، نافذة بحرية جعلت أوقاتي كلها أحلاما وردية .

في المساء سهرنا ثُمَّ نمنا على برودة لذيذة غزت الأرجاء .

استيقظت في الصباح على أصوات العصافير ، كان الجو جميلاً يخالطه هواء ناعم ، وكانت أمي قد استيقظت قبلي ، فجلسنا في الشرفة ذات الإطلالة نحتسي القهوة الصباحية .

قلت : سأذهب بعد الفطور لأخبر المختار بموافقتك على العمل ثُمَّ أذهب إلى بيت حسن لأرافقه إلى المسجد ونصلي معاً صلاة الجمعة ، ونستمع إلى خطبة الشيخ محمود .

وهكذا كان فلقد توجهت بعد الفطور إلى بيت المختار فوجدته مستيقظاً يجهز دراجته ليمر

على بعض البيوت فيدفع الإعانات لمن لم يستلم عملاً بعد؛ فالضمان الإجتماعي ضروري للسلام الاجتماعي . أخبرته بأن والدتي قد وافقت على استلام إدارة الشركة ، وستأتي لتوقيع العقد في الوقت المناسب .

فقال لي : سنلتقي في المسجد لنصلي الجمعة .

ودعته وذهبت إلى بيت حسن الزعتري ، فتحلي الباب هو هذه المرة وأدخلني إلى غرفة الضيوف جاءت حنان فرحبت بي وجلست إلى جانبي .

ثُمَّ قالت :

كانت ليلتي مضيئة رائعة الحلم .

كيف ذلك ؟

رأيت فيما يرى النائم أننا معاً نطير على ظهر غيمة وردية لفت بنا المحيطات واستوت في مدينة أسطورية قلت -

ماذا بعد ؟

قالت :

جاءت أمي فأيقظتني يا ليت الحلم يكمل !

ضحكت ثم دخلت أمها وبادرتني

بالسؤال :

هل وافقت والدتك على العمل في الشركة ؟

في البداية ترددت ثُمَّ اقتنعت من أجل ملء وقتها بعمل مفيد ، ولتكون قدوة لنساء البلدة الممارسة العمل

قال حسن :

لنشرب القهوة ونتجه باتجاه المسجد ، فقد أن وقت الصلاة .

دخلنا المسجد ، وجلسنا بانتظار صعود الشيخ محمود المنبر .. اعتلى الشيخ محمود منبره ، فحمد الله وأثنى عليه، وبدأ خطبة الجمعة وكان

مما قاله :

تأتون المساجد وقلوبكم في خارجها .. تحلمون ببضاعة وتجارة ...

بعضكم يراني ويدخل المسجد لترويج تجارته وتحسين سمعته .

أحببتم المال حباً جماً.. فأصبح جمعه هوى ففقدتم الروح؛ تسجدون .. فتتوارد عليكم الأفكار والحيل لجمع المال.. وتركعون بدون خشوع .

إذا اختليتم بأنفسكم لم تتأملوا قدرة الله ولم تعتبروا بمصائر العباد.. لم تفض لكم يوماً عين لذكر الله .. لأن قلوبكم كالحجارة أو أشد قسوة

لم تتصدقوا ونسيتم الفقير واليتيم والأسير.. أين أنتم من الذين يطعمون الطعام على حبه يتيماً وفقيراً وأسيراً .. سيروا على منهجهم وآمنوا بنهجهم ، واتركوا النفاق والمراءاة .. اتركوا الغل وحب المال.. أنتم من قال فيكم (ويل للمصلين .. الذين هم عن صلاتهم ساهون).

واذا أنفقتم فابتغاء الأبهة والفخر.. ولم تكونوا كالذي ينفق أمواله ابتغاء مرضاة الله .. لا تعلم شماله ما تنفق يمينه اجترحتم الكبائر والموبقات .. وشهدتم بالزور .. ومارستم الغش

... وأسأتم الأمانة وكذبتم وأكلتم حقوق العباد وأنكرتم ذلك .

ثم ذهبتم إلى الحج وظننتم أنكم سترجعون أطهاراً كما ولدتكم أمهاتكم . خاب ظنكم والله

إن أكل مال الناس بالباطل لن تمحوه سبعون حجة ، فالله لا يضيع حقوق الناس . من أولادكم من يمزق فرش الحافلات التي أعدت لخدمة الجميع ، أليس هؤلاء نتاج تربيتكم السيئة؛ لقد ربيتموهم على الكره والبغض والحسد فأرادوا تدمير كل شيء حسن .

أولادكم يرمون النفايات على مروج الحدائق ويتلفون أزهارها ويشطبون بالسكاكين هياكل السيارات الجديدة وهي واقفة ومتروكة مدفوعين بحقد وحسد أسود. أنتم من ربيتموهم على الحقد والكره بسلوككم فاتبعوكم. (من ثمارهم تعرفونهم .

اقتصاد بلدنا ينهض .. ولكن علينا أن ننهض بتربية النفوس والأجيال ولا يكون ذلك

بالمواعظ بل بضرب المثل للآخرين من خلال السلوك العملي، فاضربوا المثل الصادق لأولادكم بعملكم...

فيما مضى كان في كل بلدة بضعة جوامع وبضع كنائس .. وكانت الأخلاق بمستوى أرفع وكان التكافل الاجتماعي أحسن وأوسع اليوم الجوامع والكنائس بالمئات ، وتضاعف عدد الوعاظ أضعافاً مضاعفة ومع ذلك كثر الغش والخداع والتزوير والإفتراء وأكل أموال الناس بالباطل بالفساد والرشوة لماذا حدث هذا مع أن الوعاظ كثر ؟ ...

.. السلوك الجيد من وحده الوعظ لا يجدي الآباء والأمهات والمعلمين والمديرين والرؤساء والمسؤولين ورجال الدين هو الأساس.. علينا ضرب المثل في السلوك الأخلاقي اليومي ، بدلاً من المحاضرة والموعظة والخطبة

١٧٤في إحدى المرات حضر مدير الأوقاف، وألقى من على هذا المنبر خطبة الجمعة ومن جملة ما قال :

إن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان متواضعاً ينام على الحصير .. ومات ودرعه مرهون عند ذمي أي إنَّه لم يخلف مالاً) ؛

ولما انتهت موعظته ركب المرسيدس التي كانت تقف على باب الجامع وشاهده المصلون في المقعد الخلفي يجلس متباهياً ثُمَّ انطلق به السائق كالريح . هذا الواعظ جمع من منصبه مالاً كثيراً وعدده .. عندما مات لم يخرج معه أحد

ومرة وعظ كاهن في كنيسة :

- (كونوا متواضعين كالمسيح .. لقد صعد الجبل على أتان ليهدي الناس إلى دين الحق) ؛ وعندما خرج من القداس كانت سيارة فارهة مطهمة تقدر قيمتها بالملايين تنتظره مع سائقها

فركب في المقعد الخلفي كرؤساء الدول وقال للسائق (انطلق يا هذا ماذا تنتظر ؟)

مثل هذا وذاك لن تغير مواعظهم نفوس الناس؛

لكنهم لو ضربوا المثل بأنفسهم فعاشوا الحياة البسيطة كسائر البشر لاقتنع الناس بهم وقلدوهم لأن الناس يقلدون الأقوياء في كل ما عنهم من خير أوشر ..... يصدر

تذكرون الشيخ (سليم) وقد كان فقيراً يتمتع بقناعة وأنفة، وكان صادق الإيمان ضرب المثل بسلوكه فوثق به الناس . وأتوه ليصلح ما شجر بينهم.. عاش فقيراً ومات فقيراً

ويوم مات خرجت البلدة كلها معه وأغلقت الحوانيت وتوقفت الأعمال وبالمقابل عندما مات مدير الأوقاف مخلفاً أموالاً لا تأكلها النيران ، لم يخرج معه إلا أولاده وبعض أصهرته وكانت جنازته هزيلة بائسة.

أقول لكم هذا لتربوا الجيل الجديد على اقتران القول بالعمل؛ بل الأفضل أن يسبق الفعل والعمل القول .. وأن تضربوا المثل بالسلوك قبل الكلام والموعظة

علموا أولادكم النظافة ومارسوها أنتم قبلهم في وعلموهم أن البيت والشارع والحديقة يحافظوا على بيئتهم وعلى المال العام مثلما نحافظ جميعاً على ملكنا الخاص.

ركزوا على العلم والعمل والألفة والمحبة، وأن يعمل الموظفون والعاملون خلال دوامهم بشكل جاد وأن يتقنوا عملهم ، ولا يضيعوا وقت الدوام بشرب الشاي والقهوة أو لقاء الأصدقاء أو تعسير أمور الناس بغية الحصول على الرشي .. عند ذلك تكون أموالهم سحتا وحراما .. وكل لحم نبت من السحت ، فالنار أولى به.. واذكركم بقول نبينا الكريم.. إنما أهلك القوم الذين قبلكم أنَّهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه. وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد.. والذي نفسي

بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ..)

علينا أن لا نتملّق أو نجامل أو نخاف ، فالخوف يشل الإرادة والفكر .. فلقد حرَّرتنا العبودية لله من أية عبودية أخرى ومعنى عبودية الله محبته، وأعلى درجات الحب هي العبودية... لا تخلطوا التجارة بالعبادة .. فالحب والمال .. نقيضان ... هي

علينا أن نقول الحق ولو على أنفسنا .. الدين النصيحة .. وعلينا أن ننصح حكامنا ومسؤولينا بكلمة الحق.. وأن لا نقول كلمة حق يُراد بها باطل .

وعلى أولي الأمر منا تقبل نصحنا ونقدنا الهادف إلى الخير لا للهدم . فلا خير فينا إن لم نفعل ولا خير فيهم إن لم يتقبلوا)

نزل الشيخ من على المنبر وكان وجهه وضاء كالقمر المنير يفيض نوراً وتصميماً ، وكان

الناس مرتاحين لقوله رغم تأنيبه وقسوته على المقصرين؛ فالحق سيد وسلطان

ثم أقيمت الصلاة فصلينا وبعدها ذهبت إلى البيت وحدثت أمي بما قاله الشيخ محمود .

وذكرتها بما كان يفعل الشيخ عجلان قبله من تدليس ونفاق؛ فقالت أمي :

الأمور تغيرت ، وهي الآن تسير في الطريق الصحيح على الأصعدة كافة . وعلى كل فرد فينا أن يصلح نفسه أولاً وكما قال أفلاطون : (ابدأ بنفسك فأصلحها) وبشكل تلقاني يصلح المجتمع

هل كان أفلاطون وفيثاغورس نبيين ؟

كل إنسان نقي القلب هو مع الانبياء والصديقين.

في الصباح غادرت باتجاه المدرسة، وقد اشتقت إلى رفاقي وإلى حياتي فيها .

الفصل العاشر

أقبل الصيف وحان وقت التخييم والمسيرات إنها برمجة مدروسة.

قال لي ناصر :

-بعد غد ستتهيأ المدرسة بكامل (كوادرها) وطلابها للتخييم في الجبل . المكان بعيد وعلينا أن نستعد لمزيد من موحش وعر ...

التعب والخطورة والاثارة .

أين المكان ولم الخطورة ؟

في جبل التجلي . يبعد أربعين كيلو متراً إلى الشمال . إنَّه جبل شاهق واسع كبير تكتنفه الغابات والوديان والانكسارات وفيه ضباع وذئاب وثعالب؛ وأشهر وديانه وادي الموت

لماذا سمي الوادي كذلك ؟

. ومن يقال بأنه في زمن ما حدث انكسار حاد في الجبل إلى عمق كبير، وتشكل على أثره الوادي .. إن السقوط من أعلى الجبل إلى الوادي يؤدي إلى الموت المحتم وادي الموت إلى قمة جبل التجلي لا توجد طرق معبدة عريضة وإنما توجد بعض الطرق الزراعية وعلى الصاعد إلى القمة أن يلتف إلى الغرب فيلتمس طريقاً بزاوية حادة ، فهو كمن يمشي على حائط مائل السير في تلك الطرقات الجبلية الخطرة المرهقة تمدنا بمزيد من اللياقة والتحمل والثقة

هل نحن في دورات عسكرية ؟

إنَّ الإعداد في مدرسة عاطف رغدان أهم من كل ذلك . فهو يطمح إلى خلق إنسان متفوق على الصعد كافة والنماء الجسدي في رأيه متلازم مع النماء العقلي.

متى يبدأ تنفيذ المسير ؟ -

كما قلت لك بعد غد ... وسيكون الوصول إلى قمة جبل التجلى سيراً على الاقدام مسافة طويلة ، ولكنها ستكون على تتخللها بعض الاستراحات أما هي مراحل ، الخيام فستنقل إلى مكان التخييم في الجبل وسيكون ذلك بوسائل مختلفة وبمساعدة الموظفين وعمال المطبخ وبعض الطلاب ، حيث نصل نحن فنجد كل شيء جاهزاً ، من الخيام إلى المطبخ الذي سيعده ويشرف عليه الطباخون ، الطعام أحيانا وربما تساعدهم في إعداد

هل عندك معلومات أكثر عن الجبل ومكان التخييم ؟

يقال بأنه جبل واسع كبير .. شاهق ومند.

تتوزع على سفوحه قرى وبلدات وبعض

البحيرات الصغيرة التي تشكلها الينابيع الوافرة .. وإن في غابات الجبل حيوانات مفترسة .. وإنهم سيزودوننا بالعصي المدينة عند الحراسة الليلية.

إنه شهر متعب لكنه مدهش ومثير .. يكسر الروتين الذي تعودنا عليه ويمدنا بالخشونة والمفاجآت .

اتصلت بأمي وأخبرتها بأننا سنخيم خارج المدرسة مدة شهر ونيف وعليها أن لا تزورني في هذه المدة ، وأن تخبر (حسن) و(حنان) بالأمر

ثم سألتها :

- هل استلمت عملك الجديد .. وكيف تجري الأمور ؟

هاتفني المختار فذهبت إليه ، ووقعت عقد العمل . والآن أداوم يومياً دواماً طويلاً وقد خصص لي مكتب فخم وأعمل الآن على دمج (الورش) بجسم الشركة .. وغداً سيبدأ التدريب من قبل الأخصائيين الفنيين المرسلين إلى الإدارة لتشغيل الآلات الجديدة المبرمجة بالحواسيب .

اعددنا أنفسنا ولوازمنا من أجل تلك الرحلة المثيرة . في صباح اليوم المحدد كان كل شيء معداً وجاهزا . وبدأت الأرتال تصطف من أجل إجراء المسير الطويل .. كنا قد ملأنا (مطراتنا) بالماء النظيف ، وانتعلنا الأحذية المخصصة للمسير الجبلي ، وخرجنا من الباب الشمالي ، ذلك الباب الذي كان يتسوره حمدان في كل ليلة للقاء سعدى ، والذي تسؤرناه - أنا وناصر - ليلة اكتشفنا حقيقة أمره . لكن في هذه المرة ، وقد فتح على مصراعيه، عبرناه باتجاه الجسر القائم على النهر الجاف ...

كان العبور باتجاه الشمال مبهجاً وممتعاً ومثيراً للتأمل . مررنا بالمروج التي كان حمدان قد عرفها بدقة والتي كان كثيراً ما يستلقي عليها مع سعدى تحت ضوء القمر أو في الليالي المظلمة تحت ظلال النجوم الخافتة . ومررنا بالقرب من المكان الذي كمنت فيه، أنا وناصر عند سرير النهر الجاف وسمعنا يومذاك قصتهما وتنهداتهما . اقتربنا أكثر من بيت ريفي

متواضع بجواره حظيرة أغنام مسيجة بأخشاب متصالبة. إنَّه البيت الذي لمحنا نوره الضعيف في تلك الليلة التي اقتفينا فيها آثار حمدان ...

كان الرتل يغذ المسير فمررنا من أمام الكوخ والحظيرة ، كانت الأغنام في الحظيرة تتحرك متبرمة وتثغو جائعة قلقة ، مأسورة مكبلة لأنها ممنوعة من الانطلاق نحو المروج بحظيرة صنعت من خشب مشبك . وأمام الكوخ كان رجل عجوز وبالقرب منه امرأة مسنة مقرورة وقد أشعلا حطباً ووضعا قدراً على الموقد .

قلت لناصر :

لاشك في أن هذا هو أبو سعدى وهذه أمها

كان العجوز يضع بين ابهامه وسبابته اليسرى ورقة رقيقة بيضاء ، وقد ثناها ، ثم أخرج من كيس صغير قليلاً من التبغ ووضعه على الورقة ولفه فأصبح (سيجارة) بللها بريقه بعد أن اقتطع من أطرافها أجزاء بأسنانه ، فالتصقت الورقة مشكلة (سيجارة) .. لم يلبث أن أشعلها من الموقد أمامه بعود.

لما رأى الرجل العجوز الرتل كانت نظرات الحقد والاحتقار واضحة على تعابير وجهه المغضن .

تخيلته يقول :

واحد منكم كان قد ذهب بابنتي سعدى ، فخطفها وتركنا وحيدين منكسرين نجتر ذل العار ، نحتاج إلى معين ليساعدنا على قساوة الحياة بعد أن فتك بنا العجز فجعنا وجاعت الأغنام .

قدرت في ذهني أن خطيئة حدثت وخلفت وراءها مأساة طالت حتى الأغنام ، وأنَّ الدخان الذي ينفثه هذا العجوز من سيجارته كان يحمل القلق والكآبة والعجز والحب المدمر .

تجاوزنا البيت المتواضع والعجوز والأغنام (المنرفزة)

فقلت لناصر :

يا لحجم المأساة التي حلت بالكوخ وأهله ويا للجراح التي خلفها حمدان وسعدى .

قال ناصر

لقد مررنا يا فارس بالمروج التي شهدت حبهما ، وشاهدنا بأم أعيننا مأساة واقعية خلفها حب قائم على الجنون

تابعنا المسير مع الرتل ، وقد اعترتني سحابة من حزن ، ما لبثت الغابات الزمردية الرائعة أن بددتها فغمرني فرح وحبور .

كانت الطيور النادرة التي شاهدناها على الأشجار واقفة تغرد.. بعضها كان يطير ويقفز من غصن إلى غصن ، وكانت رائحة الزعتر البري وزهور الجبل الفريدة برائحتها الأخاذة تملأ الغابة بأنقى أنواع البخور .. فنسينا تعب المسير ولاح لنا الجبل مهيباً كبيراً ، ومررنا على ينابيع في السفوح وشاهدنا بحيرات صغيرة وقرى وبلدات متناثرة ومقاصف تتوزع

على اطراف البلدات .. كما شاهدنا سيارات انيقة فخمة فى مداخل تلك المقاصف .. ثم لاح لنا من بعيد وإلى اليمين مضارب الغجر المتناثرة ، وشاهدنا أيضاً في طريقنا غجرياً يحمل طبلاً وآخر يحضن (بزقاً يلعب بأصابعه على اوتاره ، ورأينا امرأة غجرية متبرجة (بمكياج) متسخ وبشعر أملح متقصف يتجولون باحثين عن عرس او (فرح) ما أو حتّى عن ختان ، ليزيدوا الفرح عطاء و بهجة .. إنهم ما أقسى الحياة وأنت تعساء يبيعون الفرح تبيع فرحاً وفي داخلك يعشش الحزن

كان المسير شاقاً وأضحى الآن صعباً ، لأن الطريق الجبلية الصاعدة كانت من القساوة بحيث جعلتنا نتصبب عرقاً ، كما لو كنا في سباق .. وكانت المطرات التي نملؤها من الينابيع لا تلبث أن تفرغ .

كان جورج قريباً مني ثُمَّ أسرع إلي وصار يمشي ما بيني وما بين ناصر.

قال جورج :

نحن نسمي هذه المسيرات ، بالمسيرات الروحية الاخوية.. لأنها تشحن الروح بطاقة تزدهر بها وتزداد نشاطاً .

فكرت في قوله، فرأيت فيه الحكمة لأني شعرت أنا بطاقة روحية على الرغم من التعب . وشحنت نفسي بقوة ومعنويات عالية كنت افتقدها قبل بدء المسير. كانت الذاكرة كالبرق وكان الجسد يشتعل طاقة كمرجل هادر . كم في الطبيعة من طاقات يمكن أن نخزنها في الذات وما أكثر ما تمدنا به الطبيعة، هذه الأم المعطاءة ، بالطاقات ! في أكثر الأحيان لا نقدر قيمتها . هناك طاقات لا نستطيع امتلاكها إلا باقترانها بالخشونة والقساوة والتعب المضني حتى الإرهاق . وكم عانى عاطف رغدان من ذلك الألم المبدع الذي شحنه بشغف كبير إلى العطاء.. فانبعثت عنده الأفكار وبني ذاك الصرح رغم أنه خرج خالي الوفاض

من بلدتنا يتيماً مقهوراً .. وعاد إليها ممتنا مخزناً بطاقات لا حدود لها أهمها الإرادة والعزيمة والفكر الخلاق اجتناها من العذاب والألم والجهد المنظم المتواصل وراكم كل ذلك بدأب لا يعرف الكلل والملل ، ولا يعرف الهزيمة . لقد عاد إلى البلدة ليعمرها بعد أن مزقها الاقتتال والانقسام والسياسات الخرقاء والجشع والأنانية والطمع و الفساد

* * *

مضى أسبوعان. كنا نقوم بالحراسات الليلية ونسمع أصوات الذئاب والضباع والثعالب .. خفنا قليلاً في البدء ثُمَّ تلاشى الخوف من ساحة شعورنا فتذكرت قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

(إذا خفت من شيء .. فقع فيه) .

.. وهذه وهكذا عندما أقمنا في قلب الغابة المليئة بالضباع والثعالب والذئاب زال الخوف وتلاشى حالياً إحدى طرق معالجة الخوف في علم النفس الحديث في عصرنا . كان أبناء القرى يقولون : إن الذنب يخاف النار ولذلك كنا نشعل النيران على اطراف المخيم كنا نتناول طعام الغداء في الساعة الثانية بعد الظهر تعقبه استراحة حرة وتعايش مع الطبيعة حتى العاشرة ليلاً حيث تنظم الحراسة بجداول .. وكان لكل خيمة حارس يتناوب مع زملائه كل ساعتين .. ما عدا ذلك كنا أحراراً ... بعضنا يصعد الشجر ، الآخرون يركضون وراء الفراش الملون، فئة ثالثة تقطف الورود الجبلية النادرة يجففونها بوضعها في بطون الكتب على أمل أن يهدوها ملصقة على رسائلهم الغرامية إلى أحبائهم .. أما الطيور على كثرتها فنادراً ما ركز البعض على اصطيادها ، وكنا اذا رأينا أحدهم وقد اصطاد طيراً ينتفه وينظفه ليشعل من بعد ذلك النار ليشويه .. كنا نؤنبه فمكان تلك الطيور والعصافير الغابة والحقول.. تتكاثر لتحفظ البيئة وتوازن الطبيعة . ونحن الآن لا نعيش في عصر الصيد

وجمع الثمار.. فطعامنا يأتينا رغداً ودسما ومتوازناً.. وفي وقته ساخناً .. وأما قتل الطير من أجل شيه وتناوله فأرى أنا أنه نوع من الجريمة أو تدمير الطبيعة .. أنه خلق ليغرد ويمارس الحرية محافظاً على البيئة من الحشرات المهلكة وجود فائض من الوقت .. اقترح علي جورج أن نذهب في مسير استطلاعي .. نطلع على البلدات والقرى القريبة على أن نعود قبيل الغروب حتَّى لا نضيع في الغابة ، وقد وافق ناصر وطوني على الفكرة فقلت :

لتنقسم فريقين أنا وجورج فريق وناصر وطوني فريق .. يذهب كل فريق باتجاه يعاكس الآخر ويطلع على أحوال القرى والبلدات . ثُمَّ نجتمع مساء ليدلي كل فريق بقصصه ومشاهداته ، وبهذه الحالة نجمع اوسع المعلومات عن المنطقة بوقت وجيز فوافقوا .

وهكذا ذهبت أنا وجورج باتجاه السفح الغربي للجبل .. بينما ذهب ناصر وطوني باتجاه السفح

الشرقي . وقد حذرتهما من وادي الموت وضرورة الانتباه إلى كل خطوة في المسير لأن وادي الموت يقع إلى الشرق من مكان تخييمنا .

كنت أنا وجورج نمشي نزولاً بتلك الطريق الجبلية باتجاه السفح وكانت الأعشاب البرية المزهرة على ضفتي الطريق ترسل شذاها ... وهناك أحجار جلمودية صلدة تتشابك وينبت فيما بينها شجر التين الجبلي .. ما زلنا نسير حتَّى وصلنا إلى بلدة كُتِبَ على مدخلها لافتة

زرقاء :

بلدة أم الزنانير ترحب بكم)

كانت البلدة تتميز بكثرة ينابيعها وبوجود طريق معبد يصلها مع المدينة المركز وقد تناثرت فيها بيوت طينية وبعض البيوت التي كانت سقوفها من الباطون المسلح وكان قسم آخر من البيوت سقوفها من الصفيح و كانت حقولها مزروعة ببعض الخضار

كانت البيوت القديمة قد بنيت من أحجار بازلتية سوداء وقد رصفت حيطانها بطريقة عشوائية ولكنها جميلة إذ تتعانق الحجارة برصف عشوائي ذي تقنية فنية عالية مع أنه بدائي .. أما السقوف فكانت من الخشب والقصب والحلفا والتراب المخلوط بالبحص الذي يدلف في الشتاء . رأينا بيتاً في أول القرية فيه بعض النسوة مجتمعات كأنهن في حفل . وكان هناك رجل عجوز يجلس على كرسي قريباً منهن فسلمنا عليه فرد السلام قائلاً :

تفضلوا من أين الشباب ؟

فاقتربنا منه ونادى صبياً فجاء بكرسيين من القش فجلسنا قرب العجوز الذي قال :

من أين أتيتم يا أولادي؟ قلت:

هناك معسكر مدني للتخييم تقوم به مدرسة تعنى بذلك

قال العجوز:

فرقة كشافة يعني ؟ قلت:

من هذا القبيل

ثم أردفت قائلاً للعجوز :

أراكم يا عم كأنكم تستعدون لفرح .

قال العجوز :

نعم اليوم هو يوم زواج حفيدتي من ثري أتى من بلاد غنية بالنفط .. قدم ليقضي إجازة الصيف في بلدتنا ويتزوج ...

قلت :

يتزوج زواج مسيار أو متعة، ثُمَّ يطلق في نهاية الإجازة ؟

نعم هو كذلك سيطلقها في الخريف.

قلت :

كم عمرها ؟

سبعة عشر عاماً .

أين وصلت في تعليمها ؟ -

نالت الشهادة الاعدادية وتوقفت عند هذا الحد .

لماذا لم تتابع دراستها فتدخل الجامعة ؟

لا توجد في بلدتنا مدرسة ثانوية ، وعلى من يريد متابعة تعليمه الذهاب إلى مركز المدينة وهذا يتطلب مصاريف ونحن لا نكاد.

نستطيع إطعام أولادنا وفي هذه اللحظة أطلت فتاة كالقمر البهي .. ملامحها جميلة ، وإن كان قد غلب عليها طابع البرية ، لكنها كانت نقية صافية ومجردة من أي مكياج كانت عيناها رماديتين ، وكان شعرها المسترسل الطويل حتى أسفل ظهرها شلالا من ذهب نقي كالسنابل الناضجة.. كانت ناعمة ببراءة .

سلمت علينا فقال جدها العجوز :

- هذه حفيدتي (خضرا). هذه هي العروس لم تتهيأ (المكياجها) بعد .

ابتسمت بخجل .. وقد زادها الخفر جمالاً فبدت كصفصافة تحضن ضفاف بحيرة صافية .. ما أجمل الخضرة في الربيع غب اشتعال الزهر في مفاتن الكون

وسألت العجوز كم عمر ذلك الثري ؟

في حيطان السبعين .

قلت مازحاً

ولماذا لا ينتظر للثمانين حتى ينضج أكثر ؟

قال العجوز :

لا تتهكم يا بني .. لكل ظروفه .. والحاجة مذلة . إن حقولنا صغيرة ، وزراعاتنا بدائية، وليس معنا المال الكافي لتطويرها، وابني الوحيد لا يتقن مهنة أخرى ولا مهارات عنده ولا شهادات .

عمل مرة سائق ميكرو) ولكن صاحب السيارة طرده .

قال جورج :

إن لذة الحياة يا عم في قهر صعوباتها والتغلب عليها .. والحياة لا تعطيك إلا اذا تحديتها وروضتها كما تروض المهرة الشرسة .. عندما تجدك خائفاً رعديداً تذلك فتجوع .. مثل هذا الزواج حرام .

قال العجوز :

عندنا شيخ في البلدة أجاز مثل هذا الزواج .

قلت :

أي شيخ هذا ؟ وما هو مستنده ؟ لعل مستنده متران من القماش الأبيض لفهما على رأسه الجاهل .. وخدع الناس .

الشيخ الحقيقي لا يحلل حراماً ولا يحرم حلالاً؛ مستنده العقل ومصلحة الناس والزواج لا يجوز توقيته بمدة .. لأن الأصل أن يكون أبديا إلا إذا حدث مكروه يوجب ذلك .. أما توقيت العقد مسبقاً بسبب السفر أو التمتع أو ما إلى ذلك فهو ستر للزنا.. ولا تؤاخذني على صراحتي .

قال العجوز :

ها قد جاء أبوها صالح لحضور زفافها ...

كان صالح في الأربعين من عمره طويل أسمر مترهل القوام له شاربان عريضان مرفوعان إلى الأعلى كذيل عقرب

قال صالح موجها لنا الحديث :

- جئتم في فرحة ابنتي الوحيدة. كانت إرادة الله أن تتزوج من غريب هبط بلدتنا وقد يكون ذلك لخير أسرتنا

قال جورج :

هذه ليست ارادة الله ، وعلينا أن لا نعلق نوازعنا الطامعة على الذات الآلهية

قال أبوها صالح :

نحن بصراحة في ضائقة مالية لا توصف . الكلام سهل والجوع صعب الاولاد يحتاجون إلى المال وليس في جيبك ليرة لإشباع متطلباتهم فماذا تفعل؟ بصراحة ساشتري بمهر ابنتي (ميكرو) يعني حافلة صغيرة لنقل الركاب من بلدتنا إلى المدينة المركز فيزداد الدخل وتبسم الحياة .

قطع الحديث بوصول العريس الثري .. كان يلبس ثوباً أبيض فضفاضاً يفضح كرشه الناتئ ويضع على رأسه حطة حمراء وبيضاء مزركشة تشبه الأسلاك الشائكة على الحدود وقد ثبت الحطة بعقال أسود وصبغ شعره وشاربيه بحنة حمراء مغشوشة .. كما ترك قليلاً من الشعر على ذقنه . سلم علينا باستعلاء وأتى له صبي بكرسي من البلاستيك ، فجلس وقد انفلش ريشه كطاووس .. في قرارة نفسه ظن أنه ولي نعمة.

تنحنح ، وقال بصوت أجش مع (خنة) خرجت من أنفه فقال :

عندنا تدوم الأفراح سبعة أيام . كلفتها على أهل العروس . أنا هنا لا أريد أن أرهق أهل عروسي بالمصاريف.. ساعة من الفرح العائلي تكفي .. ثُمَّ أتفرغ للصبية بكامل كياني ووقتي .. فوقتي محدود.

قلت :

كيف يكون الوقت محدوداً ؟

مضطر للعودة في أيلول ، فأم العيال والأولاد بانتظاري.

قال جورج :

وزوجتك هذه هل ستتركها هنا ؟

قال :

ينتهي عقدها بحلول أيلول .

لمحت الغضب والأسى وذل الانكسار في وجه أبيها ، فتعجبت من اجتماع المتناقضات

وقلت لجورج هيا لنذهب الآن.. ودعناهم وانصرفنا .

في الطريق ساد وجوم وحزن، قطعه جورج :

أعرف أن الزواج عقد أبدي لا يجوز توقيته ولا يجوز فسخه إلا اذا حدثت مبررات ونحن مشتركون كلنا في هذا المفهوم فمن اين ظهرت هذه المبررات ؟

قلت :

هي تبريرات اللذة والمصالح.

وصلنا إلى الخيمة، كان طوني وناصر قد سبقانا إليها

فقلت لهما :

قصا علينا وسنروي لكما قصة حدثت توا... إن الضحية الآن يفترسها ذنب .

قال ناصر :

مشينا أنا وطوني ، في أرض وعرة .. كانت تمر من أمامنا أرانب برية هاربة حتى وصلنا إلى مضارب الغجر. هناك بيت مبني من الخفان ومسقوف بالتوتياء، اتجهنا إليه ووجدنا على الباب شابة في الثلاثينيات من عمرها شعرها بلون التراب الأحمر

وجسدها ممتلئ قليلاً وقد تبرجت بطريقة صارخة واغدقت من الأبيض والأحمر الكثير على وجهها. كانت تبدو كأنها قد (طرشت) بالكلس . كان فمها مصبوغاً بالأحمر القاني متجاوزاً شفتيها من الأعلى والأسفل فبدت وكأنها كانت تفترس دجاجة بريشها..

قلت لها :

مرحبا يا خالة .

قالت :

ماذا تريدان ؟ أعندكما فرح أو ختان فنذهب معكما لإحيائه ؟

لا هذا ولا ذاك نحن طلاب مختمون بالقرب منكم ، وهذا زميلي طوني جئنا لنتعرف على الجيران الطيبين

قالت ضاحكة :

يا لطفولة الأولاد .. أزلتما بعض الهم عني... تستحقون المجالسة بدون مقابل. لم نفهم فيما بعد تبين لنا أنها مطربة قصدها غجرية تدعى (نظيرة) تعمل في أحد

المراقص الليلية بعد الوصلة الغنائية تجالس الزبائن لقاء أجر فيفتح لها الزبون زجاجات الشامبانيا ، وتتقاسم بعض الربح مع صاحب الملهى .

عندئذ فهمنا لماذا قالت لنا إنها ستجالسنا بدون مقابل . كانت نظيرة الغجرية متزوجة من عباس ، وكان عباس هذا يوصلها إلى الملهى في العاشرة ويعود بها عند أول ضوء بعيد الفجر ، وكان هذا الملهى مشهوراً بارتياده من قبل المهربين والمرتشين واللصوص الكبار وكل من تأتيه الأموال بدون تعب .

قالت نظيرة :

أكسب في الليلة ثلاثين ألف ليرة على الأقل.

سألها طوني :

من يعطيك هذا المبلغ ؟ صاحب الملهى ؟

قالت :

لا؛ ولكنني حين أغني يأتي (الأكابر) وينثرون النقود على رأسي وجسدي وقدمي ، فأقطع الوصلة الغنائية وأقول (تحية لأبو مرزوق العلاوي) وهو الشخص الذي نثر النقود فيدق الطبل وتضج الموسيقا فيعود أبو مرزوق ويصعد المسرح مخرجاً من عبه رزمتين أو ثلاثاً من فئة الألف ويقوم بإلقائها على رأسي وصدري ووسطي وظهري وأقدامي حتى ينتهي توزيع المبلغ فينزل مع تحية ثانية له .

ويضرب الطبل وأعود إلى الغناء . ويأتي صبي من خلف الكواليس يجمع الأوراق النقدية وينتظر الزبون القادم . أتابع الغناء ثُمَّ أقول والآن تحية إلى أبو حسين الحريتاني) فتضج الموسيقا ويجن الطبل ويقوم أبو حسين هذا ليصعد إلى المسرح ويخرج من عبه رزمتين أو ثلاثاً من فئة الألف أو الخمسمئة وينثر النقود بنفس الطريقة السابقة فتتساقط على رأسي وصدري وسائر أنحاء جسدي كالمطر ، وهكذا حتى يأتي دور يونس ومجود وخضور وغيرهم والصبي يمارس دوره بخفة في التقاط النقود من أرض المسرح فيمتلئ الكيس وهو كيس كبير بحجم كيس طحين أبيض أو قنب (قلم أحمر) وعند انتهاء العمل في الفجر نقتسم المبلغ على الشكل التالي :

الثلث لي ؟ والثلث الآخر لصاحب الملهى ، والثلث الأخير للجوقة الموسيقية وبعض القوادين.. يعطون الصبي خمسمئة ليرة فقط.. أحياناً أجالس الزبائن فيفتحون زجاجات الشمبانيا والويسكي ، ويعطيني صاحب الملهى مبلغاً عن كل زجاجة .

ماذا تعملين بالمبلغ ؟ المفروض أنك الآن مليونيرة

المبلغ كله يأخذه عباس يلعب به بالقمار ويخسره وإذا حاولت أن أخفي بعض النقود يضربني ضرباً مبرحاً ويستردها مني .

في هذه اللحظات جاء عباس ، وقال لها بغضب

ماذا يعمل هذان الصبيان عندك ؟

طلاب مخيمون في الجبل يستطلعون المنطقة ويتعرفون على الجوار .

وجه عباس الكلام لنا وقال بخشونة :

اذهبا يا أولاد إلى مخيمكما قبل أن تسرح الضباع فتأكلكما .

عندئذ خرجت أنا وطوني منزعجين .. وكانت رائحة عباس كريهة كأنها رائحة جيفة ، ومازالت الرائحة تلاحقنا حتى ابتعدنا مسافة ، فاستنشقنا الهواء النظيف...

قال لي ناصر :

وأنتما ماذا وجدتما في مشواركما من قصص ؟

حكيت لناصر وطوني ما جرى معنا فقال ناصر:

الانسان في بلدنا مظلوم وظالم في الوقت نفسه والجهل على رأس الأسباب لكن الوعي كفيل بإزالة كل ذلك .

.. بين مضى شهر رائع في حضن الطبيعة .. تبقى ذكراه عالقة مدى العمر .. أذكر شهراً رائعاً في الغابات والجبل .. بين البلدات والقرى أناس مثلنا يعيشون هموم الحياة ويتقبلونها .

شاهدت أنا وجورج ، كما شاهد ناصر وطوني، الفقر المدقع المتغلغل كسرطان مبثوث في البلدات والقرى مع أن الأرض معطاء والبلاد طيبة . أرد كل ذلك إلى الكسل وقلة الحيلة وعدم وضوح الهدف وافتقاد الموجه .. رأيت الرجل يبيع ابنته ظناً منه أنه يريد الاحتفاظ بالحياة ليعيش ناسياً أو متناسياً أن التنازل عن العرض مثل التنازل عن الأرض .. ورأيت أناساً همشوا أنفسهم قبل أن يهمشهم الغير

ورضوا بالغثاء من الحياة دون التطلع إلى هدف عظيم .. وكان بإمكانهم أن يصلوا إلى أهداف

نبيلة كما وصل غيرهم من ذوي الإرادات التي قدت من صخر بتوجيه من الفكر المتبصر والعقل المتنور ولكنهم رضوا بأن يكونوا من سقط المتاع .

في الغابة أذكر (حنان) وطيفها وخيالاتها وتداعيات أفكاري من خلال ذكراها. كنت أراها في أوقات الوحدة وفي الليالي القمرية المضيئة كما كنت أرى وجهها في زهرة برية متفتحة على ضفة جدول. أذكرها أيضاً عند تغريدة طير يشدو .. لم تكن لتغيب عن ساحة ذهني وتفكيري .. إنها الحلم والمستقبل وانتشاء الروح. لم يبق إلا القليل من الساعات وأراها ... انتهى التخييم وسنعود إلى مدرستنا

في آخر ليلة لم أنم منها إلا قليلاً .. صحوت مبكراً ، وخرجت أودع الغابة وأستنشق عبيرها وأتملى حسنها . كان شيء خفيف من ضباب عند السفح يغمر البلدات بالغبش وكانت رائحة العشب الطري والزعتر البري تفوح مع خيوط الصباح الأولى .. سأرى أمي وأحتسي

معها القهوة على الشرفة ذات الأفق المنفتح الواسع حيث تتلاقى الأرض بالسماء ، وسأعود بأشواقي العطشى لأشرب من عيني (حنان) قبل أن أشرب قهوتها ، وأزور قبر أبي واضع عليه الورود وأقول له :

(انظر إلى ابنك شاباً قد اخشوشن عوده وصلب ... قوياً غير هياب كما أردت له أن يكون

وسأقص القصص لحسن الزعتري والشيخ محمود وللمختار فقد اشتقت إلى بلدتي بجميع تفاصيلها .

الفصل الحادي عشر

عدنا إلى المدرسة ... وعاد كل إلى غرفته .

خطر في بالي أن أتصل بأمي فذهبت إلى غرفة المدير الذي سمح لي بالاتصال...

كان صوت أمي فرحاً . وشعرت بأنها سعيدة، لا لسماع صوتي فحسب؛ بل لنجاحها في إدارة العمل..

بعد ذلك قالت أمي قبل أن أنهي اتصالي :

فارس .. لقد اتصل بك حمدان وقال إنه تعرض لمحاولة اغتيال هو وزوجته سعدى وقد فشلت المحاولة ولم يصابا بأذى والفاعل هو أحد أفراد العشيرة .. وأن حمدان سيسافر إلى مكان مجهول فيغيب سنين طويلة حتى ينسى القوم ثأرهم

قلت :

غداً ستحكي لي يا أمي بالتفصيل عن كل المواضيع .. ودعتها وأغلقت الهاتف بعد أن طلبت منها أن ترسل لي السائق أبا محمود في الثالثة من بعد ظهر الغد.

قال ناصر بعد إخباره :

لقد ظلم حمدان نفسه .. وظلم معه سعدى وسيبقى طوال حياته فاراً وخائفاً.

كنت أنا وناصر ، بحالة من الحزن شديدة ، على حمدان وزوجه ، فليس عليه الآن إلا الاختباء والتواري.. نزلت بعد ظهر اليوم التالي إلى الباب الرئيسي للمدرسة .. كان أبو محمود السائق ينتظرني ، فسلمت عليه وركبت في سيارته وانطلقنا . لاحظت أن أبا محمود كان فرحاً

فأردت التحدث معه:

كيف حال بلدتنا يا أبا محمود ؟

: هل تصدق يا فارس أنني قضيت الأسبوع أنا وأسرتي ، فرحين .. بل المنصرم ، ونرقص من الفرح .

زواج؟ ماذا حل ببيتكم ؟ أمناسبة نجاح أم فرحة

لا هذا ولا ذاك ، إنَّما ولادة صندوق التكافل الاجتماعي في البلدة .

هل ولادته تجعلك ترقص ويستخفك

الطرب؟

القضية يا فارس قضية مستقبل أبناء .. فهذا الصندوق خصص للصرف على أبناء الفقراء النابهين المتفوقين.. الذين لا يستطيع آباؤهم إكمال تعليمهم إلى أقصى درجات العلم بسبب ضيق ذات اليد .. كما أن هذا الصندوق يتكفل بنفقات علاج الفقراء أيضاً . ودفع فواتير عملياتهم الجراحية والعناية بأسرهم.

وأنت ماذا تستفيد من ذلك ؟

إن ابني محموداً قد جمع في العام الماضي أعلى الدرجات ، وسجل في كلية الطب لكنه قدم اعتذاراً . لأنه ليس بمقدوري أن أدفع له مصاريف الجامعة.. ومصاريف الإقامة.. ولقد أجلت ذلك بأمل تحسن الأوضاع في هذا العام.. وها قد جاء هذا الصندوق بالفرج

ومن صاحب فكرة هذا الصندوق يا ترى ؟

جميعنا كنا نطالب به ، وقد تبلورت الفكرة لدى المجلس البلدي ، فأقرها مجلس الحكماء ، والقصة يا فارس بدأت بحاسوب

كيف بدأت الفكرة بحاسوب ؟

منح المجلس كل أسرة حاسوباً على أن يكون واحد في الأسرة على الأقل يتقن العمل عليه .

وقد كان للمجلس موقع خاص على الشبكة معروف التواصل معه فكان الناس يكتبون رغباتهم على ذاك الموقع .. ويطالبون بصندوق تكافل.. وشكل المجلس لجنة لتنسيق المطالب وتعدادها .. ووضع قاعدة بيانات لكل منها.. ليعرف رغبات أهل البلدة ويحدد الأولويات

أليس للبلدة ممثلون ينقلون رغباتها ؟

بلى ولكن سكان البلدة بالآلاف والممثلون بالعشرات والطريق صعب إلى معرفة المطالب.. أما عن طريق الحاسوب ، فيتم ذلك مباشرة.. متجاوزاً أحياناً ممثلي الشعب وعن هذه الطريق تمت الموافقة على صندوق التكافل الاجتماعي.

من تحمس لهذه الفكرة أكثر من غيره ؟

المختار.. والشيخ محمود كانا أكثر المتحمسين.

معك كل الحق في هذا الفرح . ففرد متفوّق فى يعني رفعتها وزيادة قيمتها الأسرة .. الاجتماعية وبالتالي وفرة مادية تدفعها إلى

الأمام .

كان الحديث مسلئاً ومفرحاً في ذات الوقت مع السائق أبى محمود فأحياناً يكون الفرح بالعدوى كما يكون التثاؤب بالعدوى إضافة إلى أن صندوق التكافل هذا إنجاز للبلدة كلها يستحق السرور .

وصلت إلى البيت فودعت أبا محمود .. وفتحت الباب فاستقبلتني أمي بشوق وترحاب منقطع النظير.. وكأني كنت قد غبت عنها أعواماً .

ثم قالت :

كيف حالك يا فارس ؟ أراك في صحة جيدة

هي الطبيعة بغاباتها وجبالها وينابيعها إلى جانب المسيرات والرياضة . قصصت عليها كل ما جرى معي خلال فترة التخييم. ثُمَّ قلت :

وأنتم ما أخباركم وأعمالكم وإنجازاتكم التي قمتم بها في البلدة في غيابي ؟

- استلمت العمل في المؤسسة ووصل الخبراء بعد ذلك فأقاموا لنا دورات في الإدارة..

وفي التعرف على الآلات وتشغيلها.. وإدارة الحواسيب وتفعيلها وطرق الإنتاج المتنوع وتسويقه .. إنه عمل شاق .. لكنه لذيذ يشعرك بإمكانيات ضخمة لديك كانت هاجعة وانطلقت من قمقم .. فيالعظمة قدرة الإنسان !

الم تعترضكم مشاكل ؟

والطمع اعترضتنا بعض المشاكل.. وسببها الجهل كل يريد من أصحاب الورش الاستئثار بأكبر حصة .. فلجأنا إلى تحويل المؤسسة إلى شركة مساهمة مغفلة ، وكل صاحب ورشة .. كان له أسهم بمقدار خبرته ورأسماله وعدد عاملاته ومقدرتهم.. كل ذلك قدر بأسهم من قبل خبراء مختصين.. وقد وضعت بعض رؤساء الورش بمرتبة مدير... أو مشرفة على قسم .. أو حتى عاملة عادية كل حسب كفاءته

ألم يكن هناك رؤساء ورش ذكور؟

نعم لكنهم قليلون .

ثم أضافت :

لقد أهدى المجلس كل أسرة حاسوباً .. أقاموا دورات لمن لا يتقن استخدامه وصار الحاسوب وسيلة الاتصال مع المجلس والمختار

شرح لي السائق أبو محمود قليلا عن هذا العمل وأن مشروع صندوق التكافل تمت المطالبة به عن طريق الحاسوب لا عن طريق الممثلين

سيحكي لك المختار والشيخ محمود القصة كاملة حينما تلتقيهما

ما أخبار (حنان) وأهلها ؟

بخير لم يعودوا يزورونني كثيراً لأن كل إنسان شغل بعمله وقد أخذت ادارة الشركة كل وقتي وقد علموا هم بذلك

هل يعني ذلك أن عاداتنا الاجتماعية في التواصل والتراحم قد خفت أو اضمحلت ؟

لا ، لكن علاقات اجتماعية جديدة نشأت من خلال عملية الإنتاج .

قلت لأمي : سأغادرك الآن

خرجت من البيت متجولا في البلدة.. خلال غيابي تغيرت البلدة بشكل ملحوظ. كانت بعض العصافير واليمام تمشي على سطوح القرميد وتقفز .. ثُمَّ تطير

إلى بيت آخر.. الأشجار الصغيرة نمت والكبيرة مثبت وارتوت وطليت جذوعها بالأبيض .. ونمت الزهور في الحدائق وكثرت الملاعب الانيقة الجميلة لمختلف الفئات والأعمار.

وصلت إلى بيت الشيخ محمود على الباب دراجة فعرفت أن المختار عنده .. فقلت في نفسي لقد اصطدت عصفورين بحجر .. وربحت زمناً فائضاً .. سأقضيه مع (حنان) وأخوها حسن .

عندما طرقت الباب ، فتح لي الشيخ محمود مرحباً .. واستقبلني أحسن استقبال قائلاً :

أهلاً بفارس طالت علي غيبتك، فسألت وعلمت أنك تخيم في الجبال .

ثم أطل المختار وصافحني قائلاً :

تعال يا فارس واجلس معنا ، كنا نتداول أمور الناس وهمومهم ومشاكلهم ، تعال وشارك معنا في الأحاديث

شعرت بزهو وبأني قد أصبحت رجلاً، ذا رأي ومشورة .

قال الشيخ محمود :

حدثت لي طرفة غريبة أثناء غيابك

خير إن شاء الله .

جاءني غزوان العرندس .. أتدري ما جرى له؟

ومن هو غزوان العرندس هذا ؟

الشاب الذي ضربته وأنقذت الفتاة منه.

اسمه غزوان العرندس ؟ لم أكن أعلم باسمه

جاءني إلى المسجد تائباً طالباً الصفح . مقدماً الاعتذار . وقال :

هل يقبل الله توبتي واعتذاري ؟)

قلت : إن باب التوبة مفتوح لأنه تعالى يقول ... وإن عدتم .. عدنا)

ولكن الاعتذار يجب أن يقدم إلى الفتاة وأهلها

فقال لي :

- هذا ما جئت إليك من أجله .. أريد منك يا شيخي أن تذهب معي إلى بيت الفتاة ، لأعتذر منها ومن أهلها . وأطلب يدها إذا وافقت ووافقوا ..

فقلت له :

- اترك الأمر لي لأجس النبض وأمهد للقاء... فإن انست قبولاً وخاصة من الفتاة نذهب معاً ... وإلا فلا داعي للذهاب...

وهذا ما حصل وقد وافقت الفتاة بعد أن عرفت منه .. طيبته بندمه واعتذاره.. وأنه كان يحبها .. وكان يريد عندما أمسك بيدها أن يقول لها :

هل توافقين على أن يأتي أهلي إليكم من أجل أن أخطبك ؟) -

فقدرت الفتاة أنه يريد اغتصابها وجرى ما جرى.. عندما تأكدت لي موافقتهم أخذته معي وطلبنا له الفتاة وحضرت هي.. ورأته

وناقشت الأمر مع نفسها بهدوء ، واقتنعت به أخيراً .. فجاء بأهله وتمت الخطبة بشكل رسمي .

لقد أصبح غزوان العرندس عدوك السابق خطيباً للفتاة وزوجاً لها .. وطلب مني أن أجمعك به في المسجد.. لإجراء المصالحة فقد لمس فيك شهامة وغيرة .

بل أنا من سأعتذر منه عن تلك اللكمات...

قال المختار ضاحكاً :

يقولون : الصداقة المتينة.. قد تعقب عداوة قوية سابقة .

قلت :

هذا ما جرى في بلدتنا كفر الزمان، الناس في تلاحم شديد وحب أكيد بعد خلاف دام ..

قال المختار بجدية :

أعتقد أن والدتك قد أخبرتك بقصة الحواسيب .. وصندوق التكافل .. وحركة العمل في الشركة التضامنية

كانت مؤسسة فكيف حولت إلى شركة ؟

المؤسسة يا فارس تكون ملك الدولة غالباً وعمالها يتلقون رواتبهم في أول كل شهر .. لا يشتركون في أرباح ولا يتأثرون بخسائر ولذلك لا تهمهم كثيراً حالة المؤسسة. في الشركات كل مساهم شريك.. يهمه الربح وتحزنه الخسارة، فإن كان مساهماً وعاملاً فيها فإنه يعمل بجهد مضاعف.. وهكذا أشركنا كل الورشات بأسهم .

قلت :

ما قصة الحواسيب التي عن طريقها تتواصلون فتعرفون مطالب الناس أو انتقاداتهم؟

المجلس يا فارس يمثل الآلاف من سكان البلدة والعضو فيه لا يستطيع في كل يوم معرفة رغبات الذين انتخبوه أو انتقاداتهم .. فرأينا أن أسرع وسيلة لإشراك جميع الناس هي في الاتصال بواسطة الحاسوب.. وشكلنا لجنة وقاعدة بيانات لنعرف بسرعة رغبات الناس وانتقاداتهم

هي طريقة مبتكرة على كل حال .. والتجربة مستثبت نجاحتها أو فشلها .

قال المختار :

أداء أمك في دمج الورش بجسم الشركة مبدع ونكي

قلت عندي اقتراح ...

ما هو يا بني ؟

في بعض الدول تعين الحكومات وزارات للذكاء والإبداع .. وكما تعلمون فإن العقول المبدعة هي ثروة الأمة .. فيا ليتنا نحذو حذوهم ولو على مستوى بسيط في بلدتنا !.. فنكون هيئة تعنى بالأذكياء والمبدعين.. وتوظف أدمغتهم لخدمة المجتمع

-فكرة ممتازة ، وستتم دراستها في المجلس ، وترسل إلى مجلس الحكماء ايضاً وأظن أنها ستقر وتعتمد .

الفضل لكم يا أهل بلدتي .. لم تهمشوا هذا الجيل .. كما همش من قبل .. ولم تهملوا قدراته وامكانياته كما أهملت من قبل .. كان المسؤول على كافة المستويات يخاف من

العامل الذكي المبدع ، فينقله إلى عمل آخر، ليفشل فيه واذا نجح ينقله إلى آخر .. لينتهي به المقام أخيراً ، إذا استمر في نجاحه ، بالسجن وذلك بتلفيق تهمة له .

ضحكا وقالا ...

... فعلاً هذا ما كان يحدث .)

قال المختار :

الأفكار وليدة الحاجات والرغبات ، ولا يمكن لفرد مكتب مرتاح أن يبدع ويخرج بالأفكار ... وبالتالي إن لم تفكر بهدف أو غرض أو وسيلة فلن تحصل عليها ، وإذا فكرت بغرض ما ولو كنت لا تستطيع الحصول عليه فستاتي فرص تقدم لك هذا الغرض ، أي أن هدفك سيتحقق إن فكرت به مليا وآمنت بانه سيتحقق.. وهذا ما يطلقون عليه قانون الجذب . يقابله في تراثنا .. تفاءلوا .. بالخير تجدوه).

قلت :

لقد سمعت به ، وشرحه لنا أستاذ البرمجة العصبية عندما كنا نبحث في الثقافة ووسائل الاتصال .

قال الشيخ محمود

أظن أن هذا القانون يكون بالمثال التالي شرحه

تفكر مثلاً يا فارس بدراجة .. وتحلم بحيازتها لكنك لا تجد الوقت الكافي لشرائها.. أو ليس لديك المال .. وبلحظة ما .. لا تتوقعها يأتيك من يهديك تلك الدراجة .

قلت :

فعلاً حلمت بدراجة مثل دراجتك يا مختار لأنك فضلتها على السيارة لأسباب ذكرتها لي ... ومنذ رأيتك تمتطيها تمنيت لو كان عندي مثلها .. ولكن قانون الجذب لم يتحقق عندي... فكيف يعلموننا أشياء غير قابلة للتحقيق ؟

قال الشيخ محمود ضاحكاً :

بل تحقق قانون الجذب عندك يا فارس.. اذهب إلى الغرفة قرب الباب.. هناك دراجة جديدة قدمها المجلس لك لتفوقك في دروسك ولشهامتك بالحفاظ على بنات بلدك .

قلت :

مفاجأة عظيمة أثبتت بشكل عملي قانون الجذب.. لقد تسرعت وانتقدته وعلى الإنسان أن لا يكون متسرعاً ...

سلمني المختار الدراجة وشد على يدي .

وكذلك فعل الشيخ محمود . فودعتهما وذهبت باتجاه بيت حسن الزعتري، أنا و دراجتي الجديدة .

وصلت إلى بيت (حنان) .. قرعت الباب .. ففتحاخوها (حسن) .. واستقبلني بعناق حار وقال :

كنت سأذهب لزيارتك ، فقيل لي إنك تخيم في الجبل فتريثت .

هذا صحيح وقد قلت لأمي أن تخبركم بذلك ادخلني غرفة الضيوف . وركنت الدراجة في زاوية من الممر ؛ وشرحت له قصة الدراجة الجديدة. فبارك لي بالهدية ثُمَّ ذهب لإحضار القهوة .. لم تأت (حنان) .. لم أسمع لها صوتاً أو حركة ...

مع أنها كانت على الدوام تملأ البيت حبوراً وسروراً وضياء.. في هذه اللحظة جاءت أمها حزينة.. فسلمت علي بحرارة ، ولكن بنظرة منكسرة

وقالت :

أين أنت يا فارس ... افتقدناك مدة طويلة ، لكنني علمت من حسن أنك خارج المدرسة

نعم .. وقد أمضينا شهراً في الجبل كيف كانت الحياة الجبلية ؟

حدثتهم عن حياتي هناك باختصار .. ثُمَّ سألت :

أين (حنان) ؟

في السرير مريضة

مريضة ؟ ما هو مرضها ؟

أتينا لها بالطبيب فقال إنه لا يستطيع تشخيص المرض إلا بعد التحليل والأشعة

متى يكون التحليل ؟

غداً الجمعة.. عطلة.. سنذهب إلى مخبر التحليل نهار السبت

هل من المناسب أن أراها

قالت الأم :

سأرى إن كانت مستعدة .

اعتراني حزن ولفتني كآبة .. كيف يتسلل المرض فجأة إلى فتاة في ريعان الصبا .. يأتيها المرض بغتة.. لا يعرف الطبيب سببه.. إن ذلك مروع .. ومحزن . شيء

بعد قليل عادت أمها من غرفتها لتقول :

بإمكانكم الدخول إلى غرفتها

دخلت ومعي حسن .. كانت في السرير .. تسند ظهرها بمخدة .. في وجهها اصفرار ويأس

العيون خافتة خامدة .. في يوم ما .. كانت تلك العيون تضح بالألق والبهاء شفاهها يابسة مصفرة يشوبها سواد .. لم تكن كما في السابق.. ريانة مزدهرة كحب كرز يتلألأ على شجرة .

سلامتك يا حنان .. كيف حدث ذلك ؟

- لا أعرف .. كنت في كامل صحتي .. ثُمَّ اعتراني الذبول

نظرت إليها كانت كوردة قطفت من أيام ووضعت في أصيص فجفت وذبلت .

قلت :

أمر عرضي ويزول

ثم سألتها عن دراستها فقالت :

متوقفة أسبوع . فلقد انقطعت عن المدرسة منذ

كانت تتألم .. ولا تعرف مكان الألم.. متبرمة من جلستها في سريرها ...

ولا تعرف رغم ذلك الراحة...

كنت مشتاقاً إليها وتخيلت أيضاً أنها هي كذلك لكن الألم طغى على كل شيء .. كانت تفرك يداً بيد بحركة عصبية متلمّسة مرفقها وساعدها .. تعاودها بين حين وآخر نوبات من الكآبة ثقيلة وحزينة.

نظرت إلينا .. باعتذار ...

ثُمَّ قالت :

رجاء اتركوني وحدي .

خرجنا جميعاً من الغرفة.. فقدرت في نفسي أن الأمر خطير ، ولن يحسمه إلا التحليل ثم غادرت حزيناً مستأذناً من (حسن) وأمه على أمل اللقاء وقت التحليل .

ركبت دراجتي و عدت إلى البيت .. أخبرت أمي بالأمر ...

فحزنت وقالت :

- ما أشد جزعي عليك يا (حنان) وما أكبر خوفي عليك أيتها الابنة الوفية! كنا نظن أنها مشغولة بالعمل أو الدراسة. ولكنها كانت مريضة ولم يخبروني بذلك.

حاولت النوم فلم استطع، ولفتني غيمة حزينة سوداء وكابة مفاجئة، وقلت لنفسي : لن أذهب إلى مدرستي حتى أطمئن على حنان .. وسأتصل بمدير المدرسة غداً طالباً اجازة يومين ، وقد ظللت نهار الجمعة قابعاً في البيت حزيناً . اتصلت في أول الليل بحسن ، اسأله عن حالها قال:

ليس هناك من تحسن. وفي التاسعة صباحاً سنذهب إلى مركز التحليل في الساحة . قلت

سأكون معكم ، ونلتقي في التاسعة.

حدست بل تيقنت قبل التحليل أن مرضها خطير جداً وإلا ما كان ليتفاقم بهذه السرعة .. فحزنت من مفاجأة القدر. ولكن متى كان القدر يبرر للناس قسوته أو يعتذر منهم ؟ وأردت أن أخفف عن نفسي ، فتذكرت رواية كان يرويها أبي عن جده .. الله كان عنده فرس اصيل ، غالية الثمن ، وبينما كان ابنه الصغير يرعاها في الغابة، هربت منه وضاعت .. وحزن القوم لفقدها ، وقدروا بأن الجد سيحزن كثيراً فيؤنبهم .. لكنهم فوجئوا عندما أخبروه بالنبأ المحزن أنه فاجأهم بالقول :

(لعل ذلك لخير)

ولما كان للجد هيبة ، لم يجادلوه ، وبعد يومين.... عادت الفرس ومعها حصان متوحش.. فجاؤوا إلى الجد العجوز وقالوا ...

(يا لحكمتك .. فعلا كان غيابها لخير .. لند عادت ومعها حصان.. وقد تنبأت أنت بذلك...

فقال الجد العجوز:

(لعل ذلك لشر ..)

فوجئوا أيضا .. ولم يجادلوه .. وبعد يومين خرج الابن ليروض الحصان الوحشي.. فاعتلى ظهره ... لكن الحصان شرس جامح ، وقف على قائمتيه الخلفيتين ، فوقع الابن من على ظهره .. وكسرت ساقه ذهب القوم مجدداً للعجوز قائلين :

(يا لحكمتك .. لقد وقع ابنك من على ظهر الحصان ، فكسرت ساقه..) وكنت اعلم منا بذلك .

قال العجوز :

(لعل ذلك لخير ..)

تعجبوا من قوله ... اذ كيف يكون من الخير أن تكسر ساق رجل ..؟! .

بعد أيام جاءت مجموعة من الجيش التركي ، لتجمع شباب القرية لسوقهم إلى الحرب التي غالباً لن يعودوا منها، ولما وجدوا ابن الشيخ مكسور الساق تركوه .. فليس لهم حاجة به .

هنا سكت القوم. لم يعودوا إلى الجد ليخبروه بما حصل خوفاً من نبوءة جديدة.

كنت أعزي نفسي، بمثل هذه الأقوال والذكريات... فكثيرا ما يتمسك الانسان بماضيه وجذوره عندما تقع الكوارث . ولكن لا يمكن بأي حال من الأحوال ، أن يكون مرض (حنان) لخير ما .. لم أكد أنام الليل ، حتى انبلج الصبح ، فانتظرت حتى التاسعة ، وبحلولها تماما كنت على باب بيت عندها خرج حسن وأمه وبينهما (حنان) (حنان) .. كانت متهالكة ، تتمسك بكليهما حتى لا تسقط.

في المخبر .. أخذ منها دم للتحليل .. وقيل لنا عند الظهيرة تظهر النتائج كانت حنان قد تلاشت تماما ، واستنزفت كل طاقتها .. نظرت في عينيها المنطفئة.. كان لسان حالها يقول:

(يا فارس.. لقد أزف أوان رحيلي .. فتابع أنت المشوار وحيداً ...

مثلما حزنت .. عندما غادرني أبي .. عاودني ذاك الحزن . بدأت اتلمس أغوار لجة سوداء فوقها لجج ، وغيوم كالحة هوجاء ، تنذر بطغيانها حياتي ، التي كنت أظن أنها ، ستبقى مزدهرة ألقة ، كما كانت حنان .. التي هي الآن في طور الذبول...

ذهبت (حنان) مع أمها في سيارة أجرة إلى البيت... وبقيت أنا وحسن ننتظر نتيجة التحليل .. الوقت يمر ببطء.. لأول مرة أشعر بالوقت الثقيل البطيء اقترحت على (حسن) أن نذهب إلى مقهى قريب نشرب القهوة ونقطع الوقت وننتظر مروره .. فائد اقتراحي وذهبنا إلى مقهى (الطير المسافر) .... كانت الكراسي من الجلد المريح وكانت كل طاولة تضم كرسيين فقط .. ولاحت مني التفاتة إلى الشارع فرأيت الناس بعجلة من أمرهم في جيئة وذهاب ...

قلت :

إنه العمل الذي يشغل الإنسان.. ولولاه لكانت

الحياة في سام ممل...

سألت حسن :

ماذا تنوي أن تعمل بعد إنهاء تعليمك الثانوي؟

إنني أحب الزراعة وأعشقها .. وأحلم أن تكون عندي مزرعة كبيرة أعتني بأشجارها وورودها. أزرع فيها النبات بطرق حديثة. يكون لي فيها بيت أنيق ..سقفه من قرميد ... يحيط به سياج نباتي مقصوص بطريقة هندسية فريدة.. وداخل البيت (ديكور) جميل مع مدفأة جدارية من الحطب

- حلم جميل أراه سيتحقق ولكن ألا تريد إكمال دراستك الجامعية ؟

فكرت في ذلك ولكنني سأدرس بالمراسلة الاقتصاد ، وهذه الدراسة لا تحتاج إلى دوام فعلي في الجامعة.. وبإمكاني أن أدير المزرعة وأدرس

سيتحقق حلمك

كيف ؟

. لقد ورثت عن أبي مبالغ كبيرة ، جمعها من ميراث جدي ومن عمله وجهده.. وقد فكرت انا بعد استلام ميراثي أن أعود فاشتري مزرعة المرحوم عمران زوج خالتي بشرى... المزرعة التي باعها جانتي والأعرج بأبخس الأثمان.. فكرت بإعادة تلك الأرض إحياء لذكرى من استشهد من الحيين.. ولكوني سأتابع دراستي، فأنا بحاجة إلى من يدير المزرعة .. ووجودك فيها وإدارتك لها

تعني أنني أنا الذي أديرها لأنني أنا وأنت واحد وأنا أحلم بأن أرى (حنان) وقد شفيت تتنقل فيها وتبحث عن طيورها وفراشها ونكون معاً أسرة واحدة .

تصور يا (حسن) أن كثيراً من فلاحينا قد تركوا أرضهم ، ونزلوا إلى المدينة ، فعملوا جباة ، وأذنة مدارس ، وحجابا في دوائر ، تاركين أرضهم ، مع أن الأرض كنز

أحيانا لا يعرف الإنسان أين يكمن الخير، لأن الراحة هدفه والمظاهر الخداعة تبهره.

نظر (حسن) في ساعته وقال :

أظن أن مخبر التحليل قد أنجز مهمته فلنذهب لنرى النتيجة .

خرجنا معاً باتجاه مخبر التحليل كانت تراودني أفكار سوداء .. ماذا لو كان المرض خطيراً.. ولكن اليس لكل مرض علاج ؟

ثم قلت لنفسي :

بعض الأمراض ليس لها علاج إلا الموت .. ثُمَّ طردت تلك الأفكار المتشائمة وقلت لحسن :

إن شاء الله النتيجة سليمة .

عندما وصلنا إلى المخبر قال الطبيب المحلل :

من منكما أخوها . ؟

فقال له (حسن) : أنا ...

قال : تفضل معي إلى الغرفة الداخلية وابق أنت خارجاً ...
لم يعجبني هذا التصرف .. لابد أن شيئاً ما خطيراً في التحليل

مكثا ربع ساعة ثم خرج حسن مكفهر الوجه منطفئ العينين ، حزيناً محكماً .

قلت بلهفة قلقة :

ما الأمر .. وما نتيجة التحليل ؟

في الطريق سأنبئك بأخبار غير سارة كنا قد خرجنا من المخبر. وأصبحنا على الرصيف

قلت برغبة قاسية تنم عن فقدان صبر .

أخبرني فوراً ، لقد شغلت بالي وأقلقتني ؟

إن (حنان) مصابة بـ (اللوكيميا) يعني سرطان الدم .

جاءت النتيجة ضربة ثقيلة لم أكن لأتوقعها فصرخت :

يا الله ماذا تقول ، قل لي غير ذلك.
هذه هي الحقيقة الجارحة . وقد أوصاني الدكتور المحلل أن أكتم الأمر عن حنان وامي ، بل عن سائر الناس.. ولكني لا استطيع والآن لتذهب إلى الطبيب كتمانه عنك المعالج نريه التحليل .

دخلنا عيادته وكان عنده مريض فانتظرنا في غرفة بعد برهة إلى غرفة الممرضة التي أدخلتنا المعاينة عنده.. جلسنا بعد أن ناوله حسن الأوراق بينما هو كان يقرأ نتيجة التحليل وتقرير الدكتور المحلل .. رأيته وقد امتقع وجهه ثُمَّ قال :

كنت أخمن ذلك في خاطري.. ولكنني لم أكن متأكداً منه.. وها قد ظهر الآن كل شيء.. مع الأسف إن أختك مصابة بسرطان الدم.. ولن

تعيش إلا أسابيع قليلة ، قلت للطبيب :

ألا يمكن علاجها خارج القطر ؟

لم يجدوا علاجاً لهذا المرض حتى الآن في أي بلد .

قال حسن :

هذا قضاء الله وقدره، وعلينا أن نتجمل بالصبر

شكرنا الدكتور وخرجنا نسير بصمت حزين كمن يمشي بجنازة عزيز .. ثُمَّ افترقنا بصمت حزين ... ذهب هو إلى بيته ، عدت أنا إلى أمي ، لأخبرها بالنبأ الحزين .

الفصل الثاني عشر

فتحت باب بيتنا ودخلت ، لم أسمع أي حركة ناديت

أمي .. أين أنت ؟

لم يرد علي أحد . كانت ماتزال في عملها بشركة التفصيل والخياطة .. جلست في الشرفة أشرب كوباً من العصير البارد .. أراجع أحداث الماضي القريب التي كرت بسرعة أكبر مما كنت أتصوره يا ليت لي القدرة على توجيه هذه الأحداث أو السيطرة عليها.

قلت في نفسي :

الطبيب يريد كتمان الخبر عن الجميع .. ما تصرف غير عملي .. قررت إخبار (حنان)

بالحقيقة المرة .. ففي هذه الحياة لا تصح إلا المواجهة . حتى الموت نفسه .. علينا مواجهته بقوة التسليم والقبول .

ثم قلت في نفسي علينا إخبار الشيخ محمود أولاً والوقوف على رأيه ، فهو عالم ضليع ومجرب محنك .. وصاحب فكر. ثُمَّ علينا إخبار عاطف رغدان بحقيقة مرض (حنان) بشكل صريحومفصل ثانياً .

هاتفت أمي ، فردت بسرعة واقتضاب :

بعد نصف ساعة سأكون عندك ثُمَّ أقفلت قلت لنفسي :

هل ندعو الشيخ محمود إلى بيتنا أم نذهب نحن إلى بيته ؟

تذكرت المقولة القديمة : (في بيته يؤتى الحكم)

كان الشيخ محمود يمثل للبلدة حكمها .. ومرجعها ... بل ضميرها الحي .. فكيف نقول له :

تعال إلينا يا شيخ محمود لتحكم في قضية اعترضتنا .. أو نريد أن نأخذ رأيك في أمر ما ...

إذن من الأفضل الذهاب إلى بيته أنا وأمي .

ثُمَّ قلت بعد ذلك نتصل بعاطف رغدان ، وهو الذي قال لي يوماً :

اذا صادفتك يا فارس مشكلة مهما صغرت ، لا تتردد في الاتصال بي في أي وقت كان)

قد يكون الطَّبَ أفضل وأجدى في الغرب.. بل هو فقد تقدموا علينا في كل مضمار . وعملوا لدنياهم ، في الوقت الذي زهدنا نحن بالحياة ، ورغبنا عنها ، مع أن تُراثنا يأمرنا بأن نعطيها حقها كما لو كنا مخلدين فيها فتخلت عنا وأعطت ثمارها لهم بالتأكيد أوسع وأدق وأشمل ..

والاتصال به لا ضرر منه .. بل إن معرفة رأيه ، وهو الخبير المجرّب ، مفيدة من كل النواحي

دخلت أمي مستعجلة وهي تقول :

ما الأمر يا فارس هل حدث أمر جلل ؟

كارثة .. كارثة حلت يا أمي ..

كارثة ؟ لقد أخفتني وبمن حلت؟

كارثة حلت بحنان وأهلها جميعاً . .. بل حلت بنا

ماذا جرى لها .. وماذا قال الطبيب وما نتيجة التحليل ؟

سرطان الدم .. (اللوكيميا)

صرخت والدتي من هول الصدمة :

- يا إلهي .. أنزل علينا رحمتك . من كان يظن أن تلك الصبية النضرة ، يأتي الموت إليها ليخطفها من بين أيدينا !

شعرت أن والدتي قد أخذت بالخبر. وأن ظلالاً من اليأس داهمتها فقلت :

علينا أن لا نجزع أو نينس .. فبالروية والهدوء وإعمال العقل تُحل أكبر المشاكل .

- إنه الموت يا بني هذه المشكلة ليس لها حل.

الموت نهاية كل حي ولكن علينا تأخيره لنعطي الحياة ونأخذ منها .. ونؤدي

الرسالة.. ليتسلمها أولادنا وأحفادنا .

ماذا ترى إذن ؟

يقول الطبيب :

لا تخبروا أحداً بالأمر المحتوم .. فحياتها. أسابيع وتفارق الدنيا .. المسألة محسومة .. لا يوجد علاج حتى الآن لهذا المرض لا هنا ولا في الخارج . لماذا يا أمي نخفي الخبر .. لماذا لا نعلم الجميع ونشاورهم في الأمر لأن من شاور الرجال شاركهم في عقولهم . وأرى بداية أن نخبر الشيخ محموداً على بحوزته أفكاراً لعلاج أمر كهذا .. ثُمَّ نخبر الدكتور فالطب هناك متقدم عاطف رغدان ، ونطلع على رأيه ونسمع منه أما الشيخ محمود فأرى أن نذهب إلى بيته إجلالاً وإكراماً له .. لا أن نستدعيه إلى بيتنا فننقص من قدره ... نتصل به ونأخذ منه موعداً .. ثم نذهب لزيارته ونخبره بحقيقة الأمر.

هذا رأي سديد وخذ منه موعداً ... اتصل بالشيخ محمود حالاً

اتصلت بالشيخ محمود فرحب بي وسألني عن صحتي فقلت بخير إن شاء الله لكنني أود أن أزورك أنا وأمي مساء لمشاورتك في أمر هام.

قال:

(الساعة الخامسة مساء اليوم إن شاء الله)

بدون شهية ولا قابلية .. تناولت الغداء أنا وأمي... أكلت بضع لقيمات.. وكذلك فعلت أمي .. كان وقع الخبر عليها كالصاعقة المدمرة .

في الوقت المحدد اتصلت بالسائق أبي محمود طالباً منه الحضور ليوصلنا إلى بيت الشيخ محمود ليبقى منتظراً بسيارته حتى انتهاء الزيارة .. وهكذا كان .. ففي الخامسة تماماً فتح لنا الشيخ محمود الباب

دخلت أنا وأمي البيت .. مازال على بساطته ، لم يضف إليه الشيخ شيئاً .. هو متواضع بفرشه لكنه

مرتب وأنيق ونظيف أثاثه مباشرة بدون مقدمات . دخلنا في الموضوع

قالت أمي :

حنان .. يا شيخ محمود حنان...

ما بها ؟ عساها بخير!

لقد ألم بها مرض داهم مفاجئ خطير.. إنه سرطان الدم.. والطبيب يقول إنها لن تعيش أكثر من أسابيع

خبر محزن.. شفاها الله.. الأعمار بيد الله، ولن يستطيع طبيب تحديد أجل الموت

ما الحل عندك يا شيخي ؟

المسألة طبية صرفة وعلمية بحتة والرأي هنا لأهل الاختصاص ، فقد قال تعالى (واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) وأذكر لكم هنا قصة ، هي عبرة في الوقت ذاته ...

فقد اجتمع مرة السفير البريطاني بشيخ الأزهر وقال له :

تقولون إنّ في قرآنكم كل شيء مذكور.. بلا استثناء .. وقد ذكره الله في هذا الكتاب ، فهو لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ...

قال شيخ الأزهر : نعم هذا صحيح...

فسأله السفير بخبث :

- إذا كم رغيفاً في كيس الطحين الأبيض ؟... يعني كم عدد الأرغفة التي يمكن أن تعمل من كيس الطحين ؟

قال الشيخ :

- أمهلني إلى الغد..

وذهب يسأل أرباب مهنة الخبازين.. فأجمعوا كلهم بأنه يمكن أن يعمل من الكيس منة وخمسون رغيفاً...

وفي اليوم التالي قابل الشيخ السفير فقال له السفير :

هل وجدت الحل في الكتاب ؟

- قال الشيخ نعم وإنه مئة وخمسون رغيفاً ..

- قال السفير بخبث ومكر وقد بدت على وجهه

أمارات الظفر:

وفي أي آية وجدت هذا الرقم ؟

- قال الشيخ : في الآية الكريمة التي تقول واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) والذكر هنا أهل الاختصاص والعلم في شؤون كل قضية أو مهنة أو أمر من الأمور .. فأسقط في يد السفير الماكر وخاب مكره وارتد عليه . ثُمَّ أردف الشيخ محمود :

الأمر يا فارس كله بيد الله .. وأحياناً يموت الطبيب قبل المريض وكان قد حدد له أياماً لموته .. وكم من مرض عضال برئ صاحبه بعد أن أكد الأطباء حتمية موته.. المهم هو العامل المعنوي والتعلق بالحياة.

شكرنا أنا وأمي الشيخ محموداً وقلت له :

لقد أفدتنا كثيراً بحديثك يا شيخ محمود .. فيالروعة حكمتك وعذب حديثك !

ضحك الشيخ محمود وقال :

- حدسي الداخلي أن (حنان) ستشفى.. وأنها ستكون لك في يوم ما .. فالله في كل ساعة يجترح المعجزات ويبين لنا الآيات .. ولكن أكثر الناس لا يعقلون

عندما خرجنا باتجاه السيارة الواقفة ، قالت أمي :

لم يفدنا الشيخ محمود بشيء .

بل أفادنا بالكثير .. فلو دققت في أقواله وأمثاله لوجدت الكثير من النصائح والحلول .. ليس الشيخ محمود بمجترح للمعجزات ، ولا هو نبي زمانه، ولكنه يتميز بطيب الطوية . والإيمان العميق ، وقراءاته الكثيرة ، وتجاربه في الحياة أعطته رهافة الحس والحدس

يعطي رأياً يحفز على النقاش على الأقل

كنا نتجادل ، ونحن نسير على الرصيف باتجاه أبي محمود الذي لمحناه قابعاً خلف مقوده بانتظارنا فتحنا الباب وركبنا ووجهته باتجاه بيت حنان .

كان شيء من الظلام قد حل . ولمع قرميد الأسطح من نور منعكس . كانت الأشجار بلونها الأخضر القائم تلمع بأشعة تلك الأنوار المزروعة في

الطرقات بأناقة وفنّ . وكانت نوافذ البيوت مضاءة . لم تعد الكهرباء شحيحة ، إنها تكاد لا تنقطع؛ ، وعندما وصلنا إلى بيت حنان ، كانت أنوار نوافذ بيتها ، خافتة خامدة . أو هكذا بدت لي .. طرقنا الباب.. ففتح حسن.. رحب بنا أشد الترحاب.. لكن نظرته حزينة.. ودخلنا بممر يفضي إلى موزع واسع .. هناك التقت أمي بأم حنان ، سلمت عليها بحرارة ، وعانقتها . قبلت كل منهما الأخرى بدموع وحزن.. وتبادلتا بعض العبارات .. ثُمَّ لمحتني خلف أمي فتقدمت مني وضمتني إلى صدرها وقبلت جبيني ، وقالت :

- أهلاً بابني فارس .. أعتز بك سنداً .. مثلما أعتز بحسن..

ثُمَّ جلسنا في الصالون نتبادل العبارات المقتضبة بقلوب منقبضة .. وأحضرت القهوة.

قالت أمي مخاطبة أم حنان :

كيف صحتها اليوم بتفاصيل الأمور كلها لقد أخبرني فارس بتفاصيل الأمور كلهّا

على حالها لم يطرأ عليها أي تغيير

- هل علمت هي بشيء عن حقيقة مرضها .. أو عن التحاليل.. وتقرير الطبيب

لم تخبرها بشيء عن ذاك المرض الخبيث...

بل قلنا لها عندما سألتنا :

مرضك نقص في بعض الهرمونات والخضاب ، لكنها لم تقتنع وكأنها تدرك ما يجري.

بعد هنية من صمت محزن قلق قالت أمي :

هل ندخل غرفتها ؟

انتظروني برهة .. سأخبرها .. وأعود بعد قليل ...

وقد عادت ودعتنا إلى الدخول إلى غرفة حنان. كانت حنان في سريرها مستلقية على ظهرها .. وبدا على وجهها اصفرار ووهن... لابد أن المرض قد تغلغل فيها وأضناها .. لكن خيوطاً من فرح ضئيل ظهرت على ملامحها عندما رأتني رحبت بأمي بصوت واهن :

أهلاً أمي .. أقعدني المرض عن زيارتك فاعذريني

حبيبتي حنان ... كنت تزورينني كل يوم قبل مرضك .. أنت ابنة وفية .

بعد أن جلسنا وقد أخذت مقعداً مقابلاً لوجهها بحيث أراها بوضوح .. وتراني دون عناء .. نظرت إلي بابتسامة حبّ كليلة .. ابتسامة اشتياق كدرها المرض

ثم قالت :

كيف حالك يا فارس هل أنت على أحسن ما يرام ؟

أكون كذلك عندما تشفين من المرض .. إن الشيخ محمود يسلم عليك ويتمنى لك الشفاء العاجل.. وقال: إنه سيزوركم قريباً.. وقد جلسنا عنده ساعتين من الزمن تحدثنا فيها عن أمور كثيرة ، وقال : إننا سنتزوج ونخلف نسلاً قوياً. ستشفين قريباً

فرحت حنان بطريقة لا يمكن وصفها .. تدفق الدم غزيراً إلى وجنتيها ، فغاب الاصفرار وتألقت العيون الذابلة فغشيها شيء من ألق خفيف ، وفرح ظاهر، وتطلعت إلي بعينين ذات معان غامضة قلقة ، ثُمَّ تلاشى فرحها رويدا ...

عندها تطلعت إلى أمها بابتسامة حزينة وكأنها

تقول :

ولكن سبق السيف العذل ..)

أما أخوها حسن فقد لمحته وقد أطرق برأسه إلى الأرض مخفياً ملامح وجهه الحزينة البائسة ، وكانه يغالب دمعاً يكاد يغلبه ، بعد ذلك لمحته يشير إلي بان نخرج من الغرفة ، فقلت :

-عن إذنكم قليلاً .. سأعود

خرجت أنا وحسن إلى غرفة أخرى .. جلسنا وخمنت بأن عند (حسن) أنباء يريد أن يدلي بها

-ما رأيك أن نتصل الآن بالدكتور عاطف رغدان ونخبره بمرض أختي ونأخذ بنصيحته ورأيه ثُمَّ نتصرف ؟

كانت هذه الفكرة تراودني وأنتظر الوقت المناسب لطرحها .. ولكن هل نأخذ رأي أمك أولاً ؟

لا داعي لذلك .. إن نحن الآن استدعيناها لنشاورها فإنَّ هذا سيثير شك (حنان) ويؤجج قلقها .

اتصلت بعاطف رغدان ، وكان حسن يسمع صوته ، فسلمت عليه واخبرته بمرض حنان من أوله إلى آخره فرد قائلا :

ابعثوا إلي بالتحليل مترجماً ومرفقا بتقرير الدكتور المعالج وأية وثائق أخرى تتعلق بمرضها مثل أسماء الأدوية وما شابه وأرسلوا كل ذلك بالبريد السريع إلى سويسرا ... وهناك نأخذ رأي مجموعة أطباء.. وارد عليكم الخبر.

ثم أضاف :

-وأنت ما أخبارك يا فارس ؟

سأترك المدرسة .. وأدرس في البيت وأتقدم لفحص الثانوية العامة هذا العام مع الطلاب الأحرار

لماذا لا تظل في المدرسة وتدرس هناك ؟

سأدرسها مع (حنان) في البيت، فهي أيضاً تحضر للثانوية العامة .

كما تريد .. إلى اللقاء ..

أخذت قراري بترك المدرسة دون الرجوع إلى أمي. كنت أعرف أنّها ستعارض هذا القرار، بل إن

.. الجميع يعارض ذلك ، ويعتبرونه قراراً خاطئاً ولكنني أعرف أن دراستي في البيت ضرورية من أجل حنان لأنني أنا من سيدرسها ويدرس معها ... ثم ما قيمة حب.. لا يقف الحبيب بجانب حبيبه وقت المحنة.. وقد تتعافى على الرغم من قول الطبيب بأنها سترحل بعد أسابيع.. ولكن كم من مريض بالسرطان شفي بعد أن قال له جميع الأطباء إنه ميت لا محالة بعد ستة أشهر.. لعله الإيمان الكامل بالشفاء.. والثقة المطلقة بالبرء الآتي من الغيب . قال السيد المسيح :

) لقد شفاك إيمانك يا امرأة) ولم يقل لها أنا شفيتك ؛ وإنما عزا ذلك إلى الإيمان والثقة التي لا حدود لها بأنها ستشفى .

قال حسن :

أراك قد شردت .. وأصابك الذهول فيماذا كنت تفكر ؟

أريدك يا حسن أن تساعدني وتقف إلى جانبي بإقناع أسرتك بأن يوافقوا على اقتراني بحنان خلال أسبوع .

ماذا تقول ؟ هل أنت مجنون ؟ أختي ستغادر الدنيا بعد أسابيع.. وتريد أن تتزوجها فهل يعقل هذا ؟

أختك (حنان) لن تغادر وسننجب معاً نسلاً صالحاً .

على أي إثبات تعتمد وعلى آية قناعة بنيت رأيك؟

على الإيمان القوي.. والحب القوي.. والنية الصافية .. الإيمان يا حسن يزيح الجبال من مكانها ...

هل أنت متأكد من شفاء (حنان) بإيمانك الكامل ؟

متأكد بل ومؤمن بذلك .. ولكن دعني أنفذ خطتي التي وضعتها من أجل شفائها ومن أجل سعادتي أنا أيضاً.. دورك أنت أن تحمل عائلتك على الموافقة.. وسأعقد قراني عليها حالاً إذا وافقوا

نهضنا وذهبنا إلى غرفة (حنان) عندما دخلنا لاحت إشراقة جميلة علت ملامحها حتى إن عيونها صارت تضحك .

ثم قالت :

تحيكون المؤامرات علينا ؟ ماذا كنتم تعملون في الغرفة الخارجية .. أكنتم

قلت :

هي مؤامرات من أجل الخير .. ومن أجل السعادة ستشفين يا حنان؛ وسندرس هذا العام الشهادة الثانوية معاً. أعلمك وتعلميننني .

هذا أحلى خبر أسمعه في حياتي.

ظننت أنها شفيت بلحظتها .. فقد عاد كل الألق الذي غاب.

استأذنت أنا وأمي بالذهاب .. تمنينا لحنان الشفاء العاجل وودعنا أهلها وذهبنا.

عندما وصلنا إلى البيت قالت أمي :

- إنك تخطط لأمر ما يا فارس .

هو كذلك

ولكن ألا يجب أن نتناقش قبل اتخاذ قرارك ؟

قلت :

-هذه المرة إني جائع كثيراً ، وسأكل بنهم لأنَّ معنوياتي ارتفعت الأسباب أجهلها والزمن بدأ يبسم لي .

ريسم لك ؟ أين وكيف؟

على طاولة العشاء كنت اتسامر أنا وأمى فقلت لها

مفاجئاً :

اريد منك أن تخطبي لي (حنان) .. فإنني أريد الزواج منها .

هل أنت مجنون لتتزوج فتاة بقي لها من الدنيا أسابيع ؟

لا يا أمي... حنان ستعيش .

وكيف تقول ذلك بثقة وتأكيد ؟

لاحظت الفرح والإشعاع المنبعث من عينيها بعد أن كانت ذابلة

بالغرابتك ! بل بالجنونك .. كنت أعرف أنك تحبها ، لكني لم أتخيل أن يصل بك الإصرار إلى الاقتران بها وهي على شفا الموت .

أريد منك أن توافقي على هذا الأمر ، ولقد وضعت خطة لشفاء (حنان) بعد أن عجز الأطباء عن شفائها. وأمر آخر. إنني في هذا العام سأدرس الثانوية العامة في البيت وأترك المدرسة .. كما أنني سأتسلم في هذا العام ميراثي وسأشتري المزرعة التي باعها (جانتي) والتي كانت لزوج خالتي المرحوم عمران وورثها عنه .

قرارات سريعة غير مدروسة .. متى اتخذتها وفي أي لحظة جنون ؟

تقترب العبقرية أحياناً من الجنون ولا يميزهما إلا صراط بسماكة شعرة .. سأدرس الثانوية مع حنان وسننجح معاً.. لدي الإيمان الكامل... ومن كان لديه الإيمان الكامل .. سينجح حتماً أنت ستتابع دراستك فمن يدير المزرعة ؟

سأعهد بإدارتها إلى (حسن). وسأعطيه توجيهاتي.. وعنده ميوله الجامحة في هذا المجال .. وهذا كفيل بنجاحه في إدارتها... أريد أن أسترجع أرض رجل شريف خدع من ربيبه ومن غريب كريه قتله. الأرض غالية مقدسة إنها الوطن . ومن لا أرض له لا وطن ...له

قد يكون ما تقوله صحيحاً ، ولكن على الأقل الآن ليس وقت القرارات السريعة الغزيرة لا يضر يا بني أن نقعد مجدداً.. ونمعن في التأمل والتفكر .. في كل ما صدر عنك من قرارات سريعة.

لا يمنع شيء من ذلك، وقد نضيف بعض التفاصيل المفيدة

في الصباح التقيت بحسن ، وذهبنا إلى مترجم فترجم لنا الأوراق والتحاليل وأسماء الأدوية وتقرير الطبيب وأرسلنا ذلك بالبريد السريع إلى عنوان عاطف رغدان بسويسرا ...

بعد يومين جاء الرد التالي :

بعد دراسة أوراق المريضة تبين أن مصيرها الموت المحتم لإصابتها بمرض اللوكيميا)

حزنت كثيراً.. لكني لم أينس، بينما كان اليأس والقنوط يلف كيان حسن وأسرته وقد علم المختار والشيخ محمود بما جاء في الرد.. فينس الجميع من أمل شفائها إلا أنا ...

ذهبت إلى الشيخ محمود فيما بعد ، وقلت له بعد أن سمعت موافقة حسن وأهله على ما عزمت عليه ...

- إنني يا شيخ محمود سأعقد قراني على حنان وسأتزوجها .

لكن (حنان) ستموت قريباً يا بني

انت قلت يا شيخنا أن الأعمار بيد الله .. وإن

الله على كل شيء قدير .

نعم هو كذلك هل أمك موافقة ؟

نعم

وأهل (حنان) ؟

وافقوا بعد أن أقنعهم (حسن) لأن ذلك ضروري لشفاء (حنان).

غداً في السادسة مساء سنكون جميعاً في بيت (حنان) لنكتب عقد الزواج، وعندئذ ستصبح زوجة لك .

أخبرت أمي بذلك قالت :

أنت ابني الوحيد.. ولا أريد أن أفرض عليك رأيي.. وغايتي سعادتك

في المساء اجتمعنا في بيت (حنان) ، كانت خارج السرير ، تجلس على كرسيها كملكة ، لم يهزمها المرض على شراسته .. ترتدي ثوباً بلون زهر الدراق .

قال الشيخ :

هل توافقين على أن يكون فارس زوجاً لك ... بدا السرور على وجهها.. وابتسمت وقالت :

أوافق ... بشدة .

ضحك الحضور واعتقدوا أن معجزة قد اجترحت .. فقد بدت (حنان) معافاة وبصحة جيدة.. حتى إنها كانت تبدو وكأنها لن تعود إلى سرير المرض وقد زادها ثوبها الابيض الوردي الانيق ، ألقا وبهاءً..

ثم سألني الشيخ :

هل توافق على الزواج من حنان ؟

فقلت :

أوافق بشدة أكبر .

ضحك الحضور للمرة الثانية وتعجبوا من ذلك... وكنت قد اشتريت خاتمين فأخرجتهما من العلبة... وألبست أمام الجميع (حنان) خاتمها بإصبعها ، بعد أن أمسكت بيدها ... كانت يدها دافئة بحنان قل نظيره.. وقد افتقدته... وكنت أظن أنني لن أحصل عليه ... لكنني الآن حصلت على ما كنت أظنه

حلما، ثم أمسكت هي بيدي وكانت باردة قليلاً... ووضعت الخاتم في اصبعي.. وداهمني إشعاع عينيها ، الدافق السريع كشهب الليل ، أو الأنوار الخفية في الليالي المقدسة، فوقعت في سحر .. ياله من سحر !!

ثم قال الجميع لنا :

- مبروك..

صافحوني.. وقبلتني والدتي.. وكذلك فعلت أمها وكنا جميعاً مسرورين، ثم قدم عصير الفواكه الطازجة ، وبعض الحلويات.. وكانت الحفلة على بساطتها.. أجمل من تلك الحفلات التي تقام في أماكن باذخة، والتي غالباً ما تتفشى فيها المظاهر الكاذبة ، والأبهة الفارغة وحب المال والافتخار به وغالباً ما تكون النفوس خاوية، أو مليئة بالخبث، أو يكون الزواج مصلحياً، حيث يضمر كل فريق مكراً للآخر؛ والذكي هو من يكسب أكثر من زواجه ، وغالباً ما تنتهي مثل هذه الزيجات بالفشل أو الفضائح أو الخيانات.. أما أنا وحنان فكان الأمر

مختلفاً تماما ، فقد كانت كل نجوم السماء لنا ، ولم تكن نجوماً خمساً أو سبعاً افتراضية لفندق .. كنت متيقنا بأن الله في عليائه ، قد بارك هذا الزواج ، وأنه سيمدنا بمعجزة الشفاء القريب. سررنا جميعا، بفرحة صادقة، لا حدود لها، وقد أنسانا ذلك السرور المرض اللعين .

الفصل الثالث عشر

مرت أيام عشرة على حفلة القرآن كانت أحلى أيام حياتنا .. لم ينغصها إلا بعض نوبات من الألم، كانت تنتابها في بعض الأحيان. كنت أنظر اليها بدهشة وانبهار .. فرغم المرض لم تبارحها الأنوثة الطاغية .. ورغم الألم مازال البهاء ثاوياً في طلتها ونظراتها .. كنت أمسك بيدها وكأنني قد ملكت مفاتيح هذا العالم أتغزل بعينيها وشعرها وشفتيها بكلمات تخرج كالنبع.. وببلاغة عفوية أعذب من الشعر .. لم أتماد في هذه العلاقة ، على الرغم من أنها أصبحت بحكم الزوجة إلا بضمها إلى صدري وتقبيل جبينها .. لم ألمسها أكثر من ذلك.. فهذا الحب الذي ولد عذرياً سيبقى عذرياً حتى شفائها ... وعند ذلك سأتزوجها .. لم يكن ليراودني أدنى شعور بالتقزز من مرضها .. فكم كنت أتمنى أن ألثم فاها .. ولكنني أثرت ، كما وعدت نفسي ، أن ابقى وفيا لذلك الحلم الجميل : عند شفائها التام

كنا نجلس ونتحدث عن أفق جميل قادم.... وكأننا سنعيش معا ستين عاماً أو أكثر .. وأننا إذا نتزوج ... غادرنا فسنغادر معاً .

ومرة قلت لها :

حنان .. هل تعرفين أن مرضك عضال ؟

أعرف ذلك .. واعرف أن الطبيب قد دون ذلك في تقريره.. وقال إن أيامي معدودة .

ولكنك لم تجزعي ولم تحزني .. بعضهم قد ينهار

.. لماذا الجزع وماذا يفيد اليأس ... أنت معي الآن ، ربما لأسابيع أو أكثر .. فلماذا أعكر فرح الأيام بالحزن اليس الإنسان بالأساس محكوما عليه بالإعدام ... مع وقف التنفيذ ... وهو لا يدري متى وقت الحلول ؟

أنت مرة قلت :

إن إرادة الانسان قوية لدرجة لا تصدق.. وإذا هاجمه مرض فدواؤه بداخله ، يصنع له المضادات والعلاج .. فهو ليس بحاجة إلى طبيب أو صيدلي . ولكن عليه أن لا يجزع بل عليه أن يتحلى بالإرادة والاعتقاد الراسخ

بأنه سيشفى.. لكن هذا الاعتقاد يجب أن يصل إلى درجة اليقين، وعندئذ يعمل قانون الجذب عمله.. الإيمان يجذب الشفاء والدواء من الداخل. أذكر مرة أنك شرحت لي ذلك وأفضت وسميت ذلك بقانون الجذب والاعتقاد اليقيني.

اما زلت تذكرين ذلك ؟ أعتقد أنه كان يوم أهداني المجلس الدراجة.

إنني أذكر كل كلمة تقولها ، وأحياناً أسجلها في مذكراتي التي لم يطلع عليها أحد

النفس البشرية.. سر لم يكشف منه إلا القليل في الجانب المادي برع الإنسان في الاكتشافات والاختراعات ، فعثر على القوانين العلمية اليقينية.. وجاء نيوتن بقانون الجاذبية ومن قبله أرخميدس، ثُمَّ جاء أينشتاين بالنسبية... وأخيراً أحمد زويل باكتشاف المورثات والجينات .. ولكن من هو الذي اكتشف الروح وأسرارها أو النفس وخباياها، مازال العلم مقصرا في ذلك ، ثم

قلت لها :

ما رأيك أن نغير المكان ونعيش بين الطبيعة فترة .. إنها أمنا ومصدر عافيتنا وشفائنا.. منها نشأنا وإليها نعود .

ولكن أين ؟

هناك بقع جميلة في بلادنا .. طبيعة بكر... تعرفت عليها من خلال السنين التي قضيتها في مدرسة عاطف رغدان.. حيث تعتمد هذه المدرسة على الرياضة والتعايش مع الطبيعة والانغمار في سحرها وجمالها.. هناك جبل التجلي وسفوحه الواسعة التي تتوزع عليه البلدات والقرى كلؤلؤ منثور...

وقد زرت فيما مضى مع زميلي (جورج) بلدة أم الزنانير.. كانت بلدة بسيطة تقبع في حضن الطبيعة بغاباتها وبحيراتها وتضاريسها .. لقد وجدت فيها أنواعاً من الأزهار البرية لم أرها في

حياتي.. ووجدت أناساً بسطاء... فقراء في المال.. أغنياء في الطيبة.. لكنهم أحياناً يقعون نتيجة طيبتهم.. فريسة للمساومات والاستغلال.. تصوري يا (حنان) وجدت جداً عجوزاً يحضر زفاف حفيدته .. التي بيعت تحت ستار زواج مؤقت . وقد

تعرفت على أبيها صالح وكانت هي تدعى (خضرا) ، و (صالح) هذا قلبت له الحياة ظهر المجن.. فأضحى فقيراً معدما .. لا يقوى على تعليم ابنته.. أو حتى إطعامها.. فجاءه رجل له كرش في السبعينيات من عمره.. من الخليج أو من بلاد البترول.. ربما دله سمسار على المنكوب (صالح) أبي خضرا .. أظهر نقوده مفتخراً وعرض مبلغاً كبيراً.. وساوم (صالح) على أن يزوجه (خضرا).. فدس المال الوفير في جيبه.. ليمتلك الفتاة ويتمتع بها بكل ما أوتي من قذارات وكبت وسفالات وكأنها من بهائم الأنعام؛ وهي لما تبلغ السابعة عشرة من عمرها .

وما هو هذا النوع من الزواج ؟

طريقة جديدة لإلباس الزنا ثوب الزوجية المشروع.. يحددون فيه مدة الزواج بشهر أو شهرين، ثُمَّ يتركون الفتاة لقدرها .. كليمونة امتصوا رحيقها .. ثم ألقوا بها في سلة النفايات يوم كنت أنا وجورج ، نستطلع جبل التجلي، عثرنا على هذه الأسرة التي باعت فتاتها .. أرى

ان نستأجر عندهم غرفتين فبيتهم كبير بغرفه ، وواسع في صحن داره.. ومن تلك المنطقة نذهب إلى البحيرة بسيارة أبي محمود التي سترافقنا طيلة تلك الرحلة.. وسننصب خيمة أو خيمتين على شط البحيرة ، ونستأجر قارباً لنجدف ونصطاد السمك ثُمَّ نعود لننظفه ونشعل الحطب ثُمَّ نشويه . أنه مكان ساحر يرد الروح .. نحن لن ننسى كتبنا ودروسنا سنحدد لها أوقاتا.. كما نحدد أوقاتاً للمسيرات والرياضات ، بعد أن تكوني قد تحسنت قليلاً ... أذكر غابات فواحة بأريج مسكر .. أذكر أنهاراً تستحم الشمس على صفحتها.. وتتلألأ .. أذكر سهوباً خضراء .. ووديانا عميقة تجري من خلالها سواق كالأنهار .. ويعرش النبات على جنباتها.. ويصدح الطير في أرجائها.. أذكر أزهاراً ليلكية وبيضاء كانت تطرز التلال المخضرة.. وكان الفراش الملون يحوم فوق زهورها .. هناك الحياة جميلة رائعة .. أخاذة. هناك يتغير كل شيء في الإنسان.. عندما يتعايش معها.. هناك تدحر طاقة الطبيعة

الخلاقة المرض ومسبباته.. وتعود الصحة والعافية إليك بقوة .

سرت (حنان) أيما سرور بتلك الفكرة وقالت :

فلننفذها من الغد...

قامت إلى غيتارها وأصلحت أوتاره ودوزنتها .. وعزفت لي أروع الألحان .. كانت روحها فرحة ، ولم أجدها فيما مضى بمثل ذلك المرح والتألق.. كانت مشحونة بروح ملاك...

* *

في اليوم التالي التقيت بالسائق أبي محمود وشرحت له الفكرة قلت : سنذهب إلى المدرسة أولاً .. ثم نعود إلى جبل التجلي حيث هناك جسر يعبر إلى البلدات الرائعة .. فنصل إلى قرية أم الزنانير لنستأجر فيها بيتا ونعود .. وأخبرت (حسن) بما نويت وقلت له :

- ستذهب معي لترى الطبيعة البكر والغابات الرائعة والسهوب الممتدة أعرف أنك تحب ثُمَّ تعود بنا فيما بعد أنا وحنان إلى أم الزنانير الطبيعة مثلى فلتكن رفيقي في مشوار) جميل ...

وهذا ما جرى حيث اتجهنا بسيارة أبي محمود إلى المدرسة . كان (حسن) قد زارمدرستي مع أخته حنان يوم التقيت بهما ، وسررت بتلك الزيارة المفاجئة.. توقف أبو محمود السائق عند باب المدرسة.. ونزلت أنا وحسن واتجهنا إلى مكتب مديرها ، فاستقبلنا المدير بترحاب وعتاب ...

قال لي :

لماذا تركتنا يا فارس ، أنت نبراس المدرسة .

لكل إنسان ظروفه وأريد أن أدرس السنة الأخيرة في البيت دراسة حرة .

استأذنت المدير بأن أذهب لأودع رفاقي ، وأجلب حقيبتي فأذن لي .. ذهبت إلى الغرفة التي عشت بها

سنتين مع ناصر وحمدان ، فوجدت فيها (طوني) و (جورج) . وقد طلباً من المدير الانتقال إليها للعيش مع ناصر .. فوافق وانتقلا

عرفتهم على حسن وجمعت حوائجي وحقيبتي

وقلت :

سأغادركم وقلبي معكم.. لكننا سنكون على اتصال دائم.. وربما تجمعنا الحياة في حيز لقد تزوجت من حنان اخت مشترك حسن.. لكنني سأتابع الدراسة منفرداً.

قال ناصر :

هل من أخبار جديدة عن حمدان ؟

آخر مرة قال إنه سيغادر إلى جهة مجهولة...

ومكان عصي.. فقد تعرض للاغتيال من أحد أفراد عشيرة سعدى .

سألنا جورج عن قصة حمدان وما جرى وكيف تعرض للاغتيال ؟

قال ناصر :

سأقصتها عليكما فيما بعد .. هي قصة طويلة مشوّقة ولكنّها مأساوية

لم أطل المكوث فهناك أعمال كثيرة سأنفذها في بلدة أم الزنانير .. ودعتهم أنا وحسن واتجهنا إلى الباب الرئيسي .... فركبنا السيارة وقلت لأبى محمود :

إلى جبل التجلّى وقرية أم الزنانير حالاً.

كانت السيارة مسرعة تنهب الطريق الأسفلتي الضيّق .. وكانت الحقول الخضراء ، تتموج مع .. أما اسراب القطا رياح غربية منعشة فشاهدناها برفوف عظيمة بالآلاف تحوم فوق البحيرة .. بعضها قد حط على الضفاف عطشاً يشرب الماء ويرفع منقاره للأعلى ثُمَّ يعود ليشرب ثانية ...

قال حسن :

- لم أشاهد أروع من هذه السهوب وتلك الغابات الزرقاء المخضرة والينابيع الكثيرة.. يا لتلك الطبيعة الساحرة !

قال السائق أبو محمود :

ليت ذلك يستثمر في السياحة ، إذن لكان من ذلك مورد عظيم لأهالي تلك البلدات .. سيأتي يوم تستغل فيه الامكانيات والثروات .

وصلنا إلى قرية أم الزنانير .. توقفت السيارة قريباً من دار (صالح) . ونزلت أنا وحسن وبقي أبو محمود فيها

على الباب شاهدت الجد العجوز.. عندما سلمت عليه عرفني فصافحني قائلاً :

تفضلا للداخل، ابني (صالح) موجود .. وكذلك حفيدتي خضرا قلت :

بل نجلس تحت شجرة الكستناء في حديقة الدار فنادى الجد :

- أحضروا لنا كراسي من القش.. فأقبل صبي يحمل بضع كراس، فجلسنا نتسامر . قلت :

لم يأت أيلول بعد .. فأين زوج خضرا ؟

قبل أن يجيبني الجد العجوز .. كان صالح أبوها قد أتى في هذه اللحظة . فسلم ونادى على امرأته أن تأتي بالشاي . قلت موجهاً الحديث إلى صالح :

في الحقيقة أنا قد أعجبت ببلدتكم الرائعة الوادعة بأشجارها وينابيعها وغاباتها، وأريد قضاء شهر العسل في ربوعها فأنا قد تزوجت

من اخت (حسن). قال صالح :

ألف مبروك عليك....

ثم تابعت أنا الحديث :

رأيت أن استأجر من داركم غرفتين لمدة شهر أو شهرين وربما أكثر ففي داركم الكريمة العديد من الغرف الفارغة .. وسأدفع الإيجار الذي تطلبون

بدت علائم الفرح على وجه صالح وتبسم أبوه العجوز . وقال :

الزواج المبكر فيه خير وبركة.. بارك الله لك بزوجك .

قال صالح :

على الرحب والسعة ، فالبيوت كلها على حسابكم . قلت :

نتفرج على البيوت الفارغة ، فأختار غرفتين أو ثلاثاً

قال صالح :

تعالا معي لتختارا الغرف التي تشاءان تجولنا في البيوت .. كانت مبنية من الخفان سقوفها من التوتياء .. أرضها مبلطة .. والجدران نوافذ ذات إطلالات .. أعجبتني غرفتان متطرفتان كانهما شقة مستقلة . قلت لصالح :

أريد إقامة حائط بين هاتين الغرفتين وبين بقية غرف الدار فتصبحان شقة مستقلة.. على أن تقام فيها بعض المنافع .. وأنا سأتكفل بقيمة البناء..

قال صالح وأبوه العجوز يسمع :

إن كلفة الحائط مع بناء المنافع.. عشرة آلاف.. أما أجرة الغرفتين المفروشتين فخمسة آلاف

قلت :

وخمسة آلاف أخرى لفرش جديد نظيف.... وهذه عشرون ألف قيمة كل ذلك وأعطيته المبلغ.. فرح صالح كثيراً، وكأنه كان في ضائقة ثُمَّ انفرجت.. ورأيت كذلك تعابير الانشراح على وجه أبيه العجوز... ثم أردفت القول :

لكنني أريد السرعة في العمل

قال صالح :

في ثلاثة أيام يكون كل شيء جاهزاً ...

فأجبته :

في الأسبوع القادم مثل هذا اليوم سأكون مع زوجتي عندكم.. وأرجو أن يكون فرش الغرفتين جيداً وجديداً .. قال صالح :

اتفقنا

نادت زوجة صالح :

تعالوا .. لتشربوا الشاي

جلسنا مجدداً تحت شجرة الكستناء .. وحركت نسمة منعشة رطبة أوراقها. قلت :

اين خضرا ؟

قال العجوز

لقد جرت أحداث مؤلمة ، بل مأساوية ليلة العرس.. حيث كانت تتهيأ لزواجها

قلت :

خير إن شاء الله ...

قال العجوز :

انت يا بني صاحب نظرة دقيقة وبعيدة .. لم تكن تريد لها هذا الزواج.. لقد كنت على حق... وكنا مخطئين

في هذه اللحظة جاءت خضرا فسلمت وجلست كانت حزينة.. بهت فيها الألق، وغاب الفرح... كانت مسحة الحزن العميق تلف كيانها ....

قال صالح :

احكي يا ابنتي لفارس ما جرى لك.. حسن ليس غريباً لأن في ذلك عبرة . وفارس وحسن أخوان لك.. فلا تخجلي

احمرت وجنتاها ، وظهر الخجل واضحاً على ملامحها ثم قالت :

بعد انتهاء الحفلة البسيطة.. ذهبنا إلى غرفة النوم.. في دار استأجرها لثلاثة أشهر. أقفل الباب بالمفتاح تغيرت ملامحه كلها فأخافني.. نظر إلي بعيون ذئبية مفترسة.. أراد التهامي كضبع يريد أن ينقض على حمل صغير .. كان في عجلة شرسة من أمره.. أنا الطريدة التي قدمت له على طبق من ذهب

لا يدري ايتناول رقبتها أولاً .. أم صدرها أم فخذيها .. أم يخلقها ثم يلتهمها ...

هجم علي وقال :

- تعالي هذه لحظة الافتراس ...

اجفلت

وأخذ الخوف مني كل مأخذ ... وشعرت بتقزز يدعو إلى الغثيان...

قلت في نفسي..

- هل تحولت إلى نعجة ليفترسني ذنب ؟

أمسك بثوبي من فتحة الصدر فمزقه قطعتين وانكشف ثدياي؛ فقال :

هكذا أجمل فالموز لا يقشر إلا بهذه

الطريقة...

خفت كثيراً وتراجعت إلى الخلف خطوتين وقلت له:

- ما هكذا يا سعد تورد الإبل

قال :

هربت من الإبل وأتيت إليك لتعودي فتذكريني بها ؟ أنت لوز مقشر أريد از دراده بلقمة واحدة .

هجم على بقوة وعنف وصار يعض لى من رقبتي ومن صدري وتحت إبطي ، فينفر الدم .. وحتى الهرب.. ولكن بحيلة فالباب مقفل من فخذي وقدمي.. ففزعت وقلت لنفسي : لابد من

قلت له :

أريد الذهاب إلى الحمام وعند عودتي التهم ما

شنت

قال :

بسرعة لا تتأخري

خرجت من عنده ، من ولبست ثياباً خفيفة .. ثم هربت النافذة إلى بيت خالي.. وكان يبعد عن البيت مسيرة خمس دقائق فقط .. كانِ الظلام مخيماً على الحي.. ولم يكن أحد في الطريق ، فقد أن للصبح انبلاجه.. وصلت إلى بيتهم.. ثُمَّ طرقت الباب بعنف.. بعد قليل فتح خالي الباب ، وقد استيقظ لتوه من نوم عميق .

قال:

خضرا ماذا جاء بك في هذه اللحظة.. أما

كانت ليلة (دخلتك) ؟

قلت :

آية (دخلة) .. وأية فرحة لقد كان كابوساً .. لقد هربت من شاذ حقير ونجوت بحيلة وفررت إليك فاحمني يا خالي

قال :

أنت بحمايتي ، ولن ينتزعك من هذا البيت إنسان... استريحي إلى الصباح وسأنهي المشكلة..

وهنا تدخل أبوها صالح وأكمل الحديث بعد أن رأها تبكي من انفعالها وترتجف وكأنها كانت تعيش حقيقة تلك اللحظات

في الليل طرق علينا الباب وقال هربت خضرا .. هل هي عندكم ، أتضحكون علي بتمثيلية ابتدعتموها ... تريدون ابتزازي مجدداً ؟

قلت له :

لماذا هربت هل أخفتها أو أسأت إليها أو آذيتها؟

قال :

لا تريدني أن أمارس معها الزواج.. لقد هربت وتقولون إنها ليست عندكم أريد نقودي الآن أو

اعطوني المرأة

اختليت بأبي وبدأنا نتشاور .. بعدها جاء ابن خالها يطمئننا بوجودها عندهم .. ويحكى لنا ماجرى .

قال أبي :

أعطوه نقوده واطردوه إنه شاذ .. لقد حكى لنا ابن خالها كل ما جرى معها من أهوال وشاهدوا جميعاً جروحها وهي تنزف.. أخذ نقوده وهرب تاركاً البلدة... قلت مخففاً الإنفعال عن (خضرا) :

البداية حسناً فعلت يا أختي (خضرا).. هذه جرأة تحسب لك .. و يا ليت تلك الجرأة ظهرت منذ فرفضته.. وعلى كل لعل العاقبة خير.. عندما أجئ مع زوجتي في الأسبوع القادم سنبحث في كل الأمور.. توجد يا عم صالح الكثير من المشاريع التي يمكن أن تدر عليكم المال.. فعندكم الأرض

التي يمكن استثمارها بطرق حديثة كإقامة بيوت زراعية بلاستيكية عليها.. وهي مشاريع منتجة.. قال (صالح)

ولكن من أين المال ؟

الباحث بدقة عن شيء لا يعدمه.. هناك قروض من المصارف الزراعية مع تقديم وكل الالام خبرات من وحدات ارشادية سنتدارسه بعد أسبوع...

فرح صالح بأفكاري ، التي أحيت عنده أمالاً

نائمة ثم قال لي :

بعد أسبوع سيكون كل شيء جاهزاً.

ودعناهم جميعاً وعدنا إلى بلدتنا مسرورين بإنجازنا هذا . لاحظت اهتماما زائدا من حسن بخضرا .

وصلت السيارة إلى بلدتنا وكانت الطريق أول ما أصر هو أن أنزل تمر بالقرب من بيت حسن معه

قلت : أعود بعد قليل

قال :

- بل الآن انزل .

فأعطيت السائق أبا محمود الأجر وصرفته .. ثُمَّ دخلت أنا وحسن البيت جلسنا في الصالون

وأحضرت لنا أمّه القهوة وسألتني عن الرحلة فحكى لها حسن باختصار، ثم سألتها :

هل حنان نائمة ؟

كانت نائمة قبل مجينكما قد تكون الآن مستيقظة سأذهب إلى غرفتها وأتيقن . كان الليل قد حل ... وكان التعب قد نال منا ، واستلقيت على الأريكة سانداً ظهري إليها قال لي حسن:

تمدد قليلاً على الأريكة لتستريح .

جاءت أم حنان تدعوني إلى الدخول إلى غرفة حنان لأنها قد استيقظت وتريد رؤيتي

نهضت ، وأنا أخفي فرحة داهمتني بعد سماع كلام الأم.. عندما دخلت غرفتها نهضت قليلاً تريد الخروج من السرير للقاني فأشرت بيدي أن تبقى فيه . وقلت :

ابقي في سريرك .. وسأجلس بالقرب منك على حافته ، انحنيت عليها وقبلتها من جبينها ثُمَّ تابعت القول كنت معنا ! اشتقت إليك كثيراً .. ليتك

ضحكت وقالت :

وأنت كنت ببالي وافتقدتك اليوم كله كنت أقول لنفسي ليتنى كنت معكما .. والآن قص على ما جرى

جلست على الكرسي قبالتها وأخبرتها بالتفصيل بكل ما حدث. في هذه اللحظة دخل

(حسن) وسلم على اخته قائلاً :

كيف حالك اليوم أراك تتحسنين ؟

سألتها أنا مجدداً قبل أن ترد على سؤال أخيها :

هل تشعرين بألم ما .. ينتابك ؟

.. ولكن لقد اختفى الألم .. وأشعر بتحسن انحطاطاً عاماً وتعباً يلف جسدي كله قلت :

وإيمانك بالشفاء هل ازداد ؟

لقد وصل إلى حد اليقين الكامل .. اطمئن يا فارس .. سأشفى بكل تأكيد

أعجبني قولها ، تأكدت من ايمانها الراسخ من ملامحها ونبرة كلامها الواثقة.

هذه أول خطوة صحيحة في ألف ميل لنصل إلى الشفاء الكامل.

ثم تسامرنا معاً في أمور كثيرة وشربنا كوباً من العصير بعد ذلك استأذنت بالذهاب إلى امي التي أعلمتها بوصولي .

قال حسن :

هل سترجع إلينا الليلة لنسهر معاً ؟

لا .. قد آتي في صباح الغد

ذهبت مشياً إلى بيتنا ، كانت الأنوار تشع من البيوت.. الشوارع بدت مضاءة بعدما أقام المختار الكثير من الأعمدة الكهربائية المضيئة .. النظافة أعطت البلدة ألقا وبدأت الحدائق الصغيرة التي كانت قبلاً مرمى للقاذورات تزهر وتنمو فيها ورود حمراء قانية.

وصلت إلى البيت ودخلت مسلما. كانت أمي في المطبخ ، أتت إلى غرفة الجلوس حيث كنت أجلس .. لمحت غضباً فشلت في إخفائه كله من ملامحها؛ ثم قالت :

أولاً الحمد لله على سلامتك وثانياً ليس من اللائق أن تذهب إلى بيتهم قبل أن تأتي فترى

أمك وتدخل إلى بيتك فتستحم وترتاح ثم تغيّر ملابسك.. بعد ذلك تذهب اليهم إذا شئت

قلت :

معك كل الحق فيما تقولين .. لكن الطريق تمر ببيتهم أولاً .. وقد أحرجني حسن بإصراره على نزولي في بيته فاضطررت إلى الموافقة ، فاعذريني يا أم فارس أحياناً تكون الظروف أقوى من الانسان ... ضحكت أمي وقالت : ..

أأنت تقول ذلك يا فارس؟ أنت الذي تحديث الظروف وأنشأت نفسك حكيماً منذ صغرك متمرداً على الترهات ... أنت سبقت زمانك وملكت زمام أمرك .. تصرف كما تشاء يا حبيبي ..

على مائدة العشاء قصصت كل ما جرى معي في سفري ثم قلت لها :

قد أبقى أنا وحنان في قرية أم الزنانير ونواحيها شهرين أو أكثر حتى تبرأ . والجدير بالذكر أن (حنان) كانت اليوم ذات معنويات

عالية .. وازداد يقينها بالشفاء بدرجة كبيرة بعد قليل من السمر .. ذهبت إلى سريري ونمت لكنها ماتزال تشعر ببعض الانحطاط والتعب . من فوري ثم رأيت في ما يرى النائم .. أبي وقد أتى على براق له أجنحة حاولت تقبيل يده .. فما وصلت إلا إلى قدمه فقبلتها؛ وقلت :

لم أستطع الوصول إلى وجهك المنير كالقمر ولم أستطع الوصول إلى يديك .. فأقبله فالمسهما وأقبلهما

ابتسم برضا وقال :

حنان ستبرأ .. وستنجبان نسلاً صالحاً ...

استيقظت بعد الحلم مرعوباً ، ولكنني في الوقت ذاته كنت فرحاً .. كان الصباح يبشر بهالات بيضاء وشعرت بأن الفجر بدأ يتنفس .. كما شعرت بمرارة في فمي .. فشربت من زجاجة ماء كانت قرب سريري وصحوت أكثر والحلم ما يزال في خاطري كأنه واقع .. غادرني النعاس فشعرت بنشاط مفرط...

كانت أمي نائمة .. والبلدة يلفها هدوء شامل احسست برغبة شديدة بالحركة التي افتقدتها قمت ولبست لباس الرياضة .. وانتعلت خفافتي ثُمَّ فتحت باب بيتنا بهدوء وخرجت...

كان الهواء نظيفاً منعشاً وبدت الأشجار رغم الغبش زاهية تتمايل مع النسيم الخفيف الرطب ، أما سقوف القرميد الزاهية فقد أعطتها خيوط تمشيت بين البيوت ثُمَّ الصباح ألقاً إضافياً خرجت إلى المزارع .. كان الناس في البلدة قد استيقظوا وبدأ الفلاحون والمزارعون عملهم وسمعت صوت الأبقار في الحظائر تخور كما رأيت أغناماً يقودها راع يسير في مقدمتها كبش كبير في عنقه جرس يرنّ . لقد عادت الحياة إلى البلدة...

عندما عدت إلى البيت كانت أمي قد استيقظت وبدأت بإعداد القهوة . قالت :

إن مدرسة عاطف رغدان قد علمتك الاستيقاظ المبكر والرياضة الصباحية الجميلة ونفضت عنك غبار الكسل الذي مازال

معشعشاً في بعض أبناء جيلك إن ذلك بداية تفوق الجيل الجديد

قلت :

لقد رأيت أبي في المنام فجافاني النوم وقصصت عليها الرؤيا ففرحت وقالت :

هذا شعور الرضا الداخلي والانا العليا ، فاعمل ما بدا لك وسأستفسر لك عن المزرعة التي باعها (جانتي) .. وهل أن مالكها الآن راغب في بيعها ؟

احتسينا القهوة في الشرفة المطلة على الأفق الممتد بلا حدود، ثم دخلت الحمام واستحممت ثم جلسنا نتناول الفطور معاً ...

قالت أمي :

لا تنس التحضير للشهادة أنت وحنان، خذ كتبك واذهب إليها.. وهكذا فعلت. وقد استغربت عندما وجدتها، وقد استيقظت وشربت قهوتها ، وبدأت تدرس موادها ،

قالت لي أمها عندما فتحت لي الباب :

هي اليوم نشطة ، وقد انكبت على دراستها بأمل غامر .

سألت (حنان) وقد جلست على كرسي أمام سريرها :

هذا النشاط الظاهر يبشر بخير ؟

لقد تركت الدواء الذي وصفه الطبيب . كان الدواء يخترني

حسنا فعلت ، فجسدك ، سيشفي نفسه بنفسه...

هو كذلك ، وأنا متيقنة من الشفاء التام ، ولكن لا أعرف الوقت اللازم لذلك.

درسنا ساعات وتسامرنا ثم قالت لي :

أتدري أنني اليوم مارست الرياضة لمدة ربع ساعة فقط .. وعندما تعبت .. توقفت.

- هذا خبر سار، وتستحقين عليه قبلة، ثم حضنتها وقبلتها من شفتيها لاول مرة ؛ فذابت بين يدي كشمعة ، في موقد مشتعل .. فمددتها على السرير محاولاً الاندساس معها فيه.. ولكنني تذكرت وقلت يا فارس ألم تعاهد نفسك ، بعدم لمسها حتى شفائها التام ؟

قال الطين في داخلي :

(هي امرأتك .. ولا أحد يلومك أن تأتيها الآن)

فجاوبت الأنا العليا عنى :

(ولكن ما موقفك من نفسك ، ؟ ألم تقطع عهوداً ؟ وتشهد إلهك على ذلك ... فتراجعت .. كان لتلك القبلة سحر يصعب وصفه.. كنت كمن يصعد إلى السماء ، ولكن صدري لم يكن ضيقا حرجاً.. بل كان رحباً كبحر ، طرياً متموجاً كسهوب خضراء بلا حدود ، هبت عليها رياح العالم الطرية الدافئة

او كرقصة التانغو يؤديها راقص مع حبيبته ببراعة منقطعة النظير حتى ليظن الناظر أنهما ذابا في جسد واحد ، يقفز .. ثُمَّ يطير ..

الهذا الحد تفعل القبلة بالمحبين ، وأي طاقة كهربائية، أو ما فوق الكهربائية يحررها ذلك التمازج القدسي البديع ؟

بعد ذلك بدقائق استعادت حنان وعيها ، ورجعت لتتماسك بعد ذوبان، ثم قالت :

ما أروع الحب !

احسست آنذاك ، أن (حنان) قد عادت بكامل ألقها ، وبكل إشعاعات النجوم ، التي لا تحصى ، والتي ركنت في جسدها الساحر . . لم أكن لأعلم أن الحب يغيّر طبائع الأشياء، وأن امرأة حقيقية تقدر أن تشعل آلاف القناديل بثانية واحدة من لحظها الساحر، يا لذلك السر الكامن ، في الأنوثة لقوته ... في حبنا تكمن قوة النقاء، وصوفيته . ويا أمضيت الأسبوع مع حنان ، بنشوة غامرة ، أدت إلى تحسن مستمر متصاعد في صحتها حباً فريداً ، يزداد ألقاً في كل يوم ويكبر ... .. كان

ومرة قالت لي :

فارس... كنت فيما مضى تقرض الشعر فلماذا هجرته ؟

لم أهجره ، ولكن أتت ظروف ، شغلتني عنه.

أتدري أنني أنا قد بدأت اقرض الشعر ؟

لم تقولي لي ذلك قبلاً.

أخفيته عنك .. وعلى كل ليس من زمن بعيد

منذ متى ؟؟

بعد مرضي بقليل.

هاتي اقرنيه لي ...

ذهبت، وأخرجت ورقة من دفتر، ثم جلست تنشد شعرها ..

أنت الذي أعطى الوفاء .. وفاءه

والحب والاخلاص نوراً .. فاستطال بهاؤه أنت الذي أعطى الفؤاد سماء لاضفاف لها إلا النجوم .. ضياء .. والنبع الغزير صفاؤه أنت الذي اعطى العصافير .. البيادر خيره والنبع والأعشاب والطير البديع سماءه أنت الذي أهرقت خمر العمر في سفح السنا

فأضاء في العهد القديم ... جديده في كل ثانية .. مرت بخاطر مهجة كانت لها ذكرى.....

وبعض الذكر أبلغ من حكم الزمان .. دعاؤه

انتهت حنان من إلقاء شعرها .. بدت وكأنها تنشد مزمورا من مزامير داود.

كانت الدموع تنفر من عينيها و تتناثر كحبات اللؤلؤ على خديها ، وأثارني ذلك فرحت أبكي...٢٩٦

الفصل الرابع عشر

مضى أسبوع .. وحان اللقاء و صالح) في بلدة أم الزنانير .. فلنسافر ونز ما أنجز صالح . لاشك في أنه قد أنجز ما وعد به

اعددت حقيبة كبيرة تحوي البسة ووضعت فيها أمي أشياء أخرى.

قالت أمي :

لقد أعددت لك كل ما يلزمك في شهر

العسل هذا .

لماذا تسمينه شهر العسل ؟

قالت :

الآخرون يسمونه كذلك

شهر واحد في العمر يكون عسلاً .. إذن بقية

أيام العمر ماذا تكون ؟

ضحكت أمي وقالت :

مسؤولية وعمل وتعب .. وتربية جيل جديد .

هذه الرحلة ليست بشهر عسل . إنها شهر

للأمل .. أمل شفاء (حنان) ...

على كل استمتعا بوقتيكما .. كما تحبان ..

سنذهب إلى الطبيعة.. بغاباتها.. وجبالها ..

المعتمة وبحيراتها العذبة الباردة ، التي تتجمع من ينابيع صافية وإلى السهوب الخضراء المانجة .. التي هي أحلى من كل مقاصف العالم وفنادقه .. وفي الليالي المقمرة .. أو ستكون لنا النجوم كلها بألقها وضوئها ، تسبح في فضاء رحب عظيم أستمتع بعزف جيتار حنان التي أجادته فتحول بين يديها اللحن إلى سحر .. أما أنا فاعزف على (حنان) نفسها .. هناك للروح مدى واسع لا يَجِدَّ ، ومجال حيوي ينبع بفيض السعادة الروح دائماً تشتاق إلى فضاء الحرية والدفء مثل الطيور المهاجرة إلى البلاد الدافئة .. ونحن لا نريد أن ننغلق في فندق نجومه خمس فقط.. في الوقت الذي نستطيع أن نحضن كل نجوم السماء.

جاء أبو محمود .. ففتحت له أمي الباب

قالت :

أهلاً بأبي محمود لقد تم قبول طلبك بالتوظيف في شركة الملابس كسائق تنقل العاملات والعمال في الحافلة الكبيرة إلى بيوتهم بعد انتهاء عملهم.. وتنقلهم صباحاً إلى مكان عملهم في الشركة أيضا .... قال أبو محمود

أشكرك يا أستاذة .. على جهودك ومساعدتك بل اشكر أنت كفاءتك ومهارتك .. لأنك كنت الأفضل من بين كل المتقدمين . ولم أتدخل لا أنا ولا غيري في توظيفك .. إن عهد (الوساطات) والمحسوبيات قد ولى واليوم هو عهد الكفاءات والمهارات الرجل المناسب في المكان المناسب . ووضع

في هذه اللحظات كنت قد أخرجت الحقيبة وساعدني أبو محمود على وضعها في المكان المخصص في صندوق السيارة. قلت لأبي محمود :

لم تقل لي إنك قد تقدمت بطلب توظيف الآن وقد قبلت سيارتك ؟ فماذا سيكون مصير

سأؤجرها لسائق أمين .. وأتقاضى منه أجراً شهرياً .

قد أجد لك السائق اللائق الأمين .. فدع ذلك للظروف . التي أتت مواتية وفي محلها المناسب

ركبنا واتجهنا إلى بيت (حسن) ... كانت (حنان) جاهزة للسفر .. حمل (حسن) حقيبتها ووضعها في السيارة بجانب حقيبتي .. ودع أخته ثم ودعني وانطلقت بنا السيارة

كانت حنان متألقة فرحة .. زاهية كجورية أول تفتحها .. غذاها الندى بالنضارة والسحر .. كانت كقمر بديع كامل .. كأنها عادت معافاة .. البسمة والثقة والتألق دليل صحة وكانت تملك كل ذلك بريق العيون الخاطف للأبصار يزودني بشحنات الحب المتألق ، فأمسكت بيدها ووضعت أصابعي بين أصابعها ، وحلقنا في الفضاء ...

انطلقت بنا السيارة قاصدة أم الزنانير .. كان نسيم الصباح منعشاً ، وكان الندى ما يزال على أوراق الشجر. ولاحظنا النباتات الخضراء على حواف الوديان ، وقد ازدهرت بلونها المتألق وأزهارها ومر أرنب بري من أمام اللامعة الضاحكة السيارة يقفز إلى الجانب الآخر من الغابة .

قالت حنان :

أهو أرنب .. أم ثعلب ؟

قلت :

بل هو أرنب بري لونه بلون الثعلب... أملح الثعلب. يمتاز بذنبه الطويل تحب السيدات الأنيقات المترفات ، وضع فروه على أكتافهن وصدورهن فيلبد ساكنا متربصا .. ويغطيهن بأناقة ويزيدهن جمالاً على جمال .. ولا أدري أهن يحببنه لأناقة يضيفها فروه.. أم لأنهن يحببن مكره وحيلته فيتخذن جلده وفروه شعاراً يلف أكتافهن وصدورهن

ضحكت حنان .. وابتسم أبو محمود .. ولم يعلق بشيء ...

بينما قالت حنان :

ليست كل النساء كذلك .. قلة منهن فقط .. لا تظلموا النساء

وصلنا إلى بلدة أم الزنانير فاستقبلنا (صالح) وسلمنا عليه.. فقادنا إلى الغرفتين ، وقد أصبحتا حقاً شقة مستقلة .. وقد أجاد صالح في عمله وأتقن ما اتفقنا عليه.. حتى إنه وضع لهما باباً يؤدي إلى خارج الدار.. وباباً آخر يؤدّي إلى صحن الدار .. أما الأثاث والفرش فقد كانا جديدين ونظيفين .. وكان في المطبخ براد وغسالة كما كان يحوي كل الأدوات اللازمة للطبخ وإعداد الطعام .

أعجبت (حنان) بشقتها الجديدة مثلما أعجبتها الطبيعة الساحرة ...

أنزلنا الحقيبتين ، ووضعناهما في الغرفة .. ثُمَّ دعانا صالح إلى صحن الدار لشرب المته.. بعد ذلك جاء أبوه العجوز وشاركنا أيضاً شربها. قلت لصالح هل تجيد قيادة السيارات ؟

نعم وقد اشتغلت مرة سائق) ميكرو باص) ما بين بلدتنا وما بين المدينة المركز وعملت ما با سابقاً على سيارة أجرة . ثم اختلفت مع أيضاً . المالك ، فتركت العمل عليها .

قلت لصالح :

هل تحب أن تعمل على سيارة أجرة ، فتنقل الركاب من بلدتكم إلى المدينة ؟

قال :

يا ليت هذا يتحقق .. ولكن أين السيارة ؟

قلت لأبي محمود :

أتؤجرنا سيارتك يا أبا محمود ليعمل عليها صالح ، ويدفع لك في مطلع كل شهر أجراً تتفقان عليه .. وأنا الضامن والكفيل ...

قال أبو محمود :

موافق على الفكرة ولكن ما هو الأجر الشهري ؟

قلت :

سأذهب أنا وزوجتي إلى شقتنا.. لنفرد حوائجنا ونترككما نصف ساعة.. تكونان قد اتفقتما على الأجر الشهري وعلى أسس

التعامل رحبا بالفكرة وذهبت أنا وحنان فرتبنا غرفتينا خصصنا الأولى للنوم وكانت مريحة هادئة وذات فرش نظيف جديد... وجعلنا الغرفة الثانية للضيوف . وكانت لها إطلالات جميلة على الغابة والسهول. وفيها أرائك عريضة بحيث يمكن أن ينام عليها إنسان .. إذا دعت الحاجة إلى ذلك...

ثم ذهبت مع حنان إلى المطبخ فرتبته وإضافة الأدوات التي وضعتها أمي في حقيبتي فصار لا ينقصه شيء .

كانت حنان تبدو بصحة جيدة ولم تتعب كثيراً من الرحلة . قلت لها :

- استريحي في غرفة النوم ، وسأذهب لأرى هل اتفقا .. أم هما بحاجة إلى وساطتي.

قال صالح :

لقد تم الاتفاق وتسلمت السيارة من الآن وسأعود به إلى كفر الزمان وأرجع بالسيارة وحدي وهي منذ هذه اللحظة في عهدتي.

الوقت.. بالنجاح والتوفيق يا صالح.. ولا تُضع اذهب الآن لإيصال أبي محمود وعد بركاب إلى أم الزنانير ليبدأ إنتاجك من هذه اللحظة .

قال:

هو كذلك وقاما باتجاه السيارة وسافرا .

وات الحنان : فلت

الآن أصبحت السيارة بمتناولنا وتحت أمرتنا نذهب إلى المكان الذي نشاء . قالت : ما أروع سرعة بديهتك.. إنك تستفيد من كل ظرف ، وتسخره لمصلحتك

قلت :

. بل لمصلحة الجميع .. وهي مصالح متبادلة فيها الخير للكل .. فصالح) أمن مورداً مالياً وأبو محمود صار له راتبان الأول من شركة الخياطة والتفصيل، والثاني من (صالح) ، وبهذه الحال

ينفق على تعليم ابنه في كلية الطب. وخضرا) تستطيع النزول إلى المدينة والتسجيل في المدرسة الثانوية التي حرمت منها ، وهكذا تتابع تعليمها حتَّى أعلى المراحل.. ونحن قد أصبح هذا ستتحسن أموره كما يجب.. إن (صالح) هذا لدينا واسطة نقل، لكننا سندفع الأجر (الصالح) وظروفه بمشاريع أطرحها أمامه غداً لينقذها وليعلم أن الانسان اذا اجتهد وعمل فإن الله لا يضيع عمله.. وإن اللجوء إلى زواج البنات من فاسدين أثرياء من أجل تحسين أوضاع الأسرة هو فكر خاطئ ومبتذل تعافه النفس الأبية والكرامة الانسانية

استرحنا قليلاً، وبدأنا بالدراسة الممنهجة حسب النظام الذي وضعناه لأن هدفنا هو جمع اعلى المعدلات وسنثبت للآخرين صحة قرارنا . وعاد (صالح) بعد ساعات .. عندما التقيت به قال :

يا لأفكارك الرائعة .. لن أنسى صنيعك هذا مدى الحياة . لقد عدت بأربعة ركاب من المدينة إلى البلدة ، وقبضت منهم مبلغا لابأس به ، وهكذا أكون قد استفدت من اللحظة الأولى التي وجهتني إليها ...

قلت له مازحاً :

كل شيء بثمنه .. فقد قيل (رب فكرة قيمتها تعادل آلافاً)

سأعطيك ربع انتاج (الغلة)

ضحكت من قلبي لأن (صالح) هذا كان طيباً

وبسيطا . فقلت له :

لا أريد نقوداً يا (صالح)

قال :

ماذا تريد إذن ؟ هل تريد أن تتزوج من ابنتي

(خضرا) زواج مسيار أيضاً ؟ ضحكنا من القلب ثم بجدية قلت :

أتريد أن تعرف الثمن...

قال : نعم ..

تشتري كتب الصف العاشر ل (خضرا) غداً... و ثمن الكتب هدية مني ، وأعطيته مبلغاً رفض في البدء أن يأخذه .. لكنه قبل فيما بعد تحت الضغط والاصرار؛ ثم أردفت القول : أنا وحنان سندرسها مواد الصف العاشر بكاملها .. لا يعني هذا ألا تعتمد على دراستها الفردية ، نشرح لها نحن ما يستعصي عليها فهمه

ما أروعك يا فارس أنت بحق إنسان متفوق . لك حكمة الشيوخ واندفاع الشباب ... سأفعل كل ما تأمرني به ، فلقد وثقت بك إلى أقصى درجات الثقة وسأخبر (خضرا) بما قلته لي ستفرح كثيراً؛ وقد لا تنام هذه الليلة من الفرح.

أنا وأنت يا (صالح) نحتاج إلى حكمة الشيوخ.. وعلى رأسهم أبوك.. وفيما سيلي من الأيام.. سأبحث معك مسألة تفعيل إنتاج أرضك.. فارضك زراعتها بدائية وعليك اقامة بيوت بلاستيكية وبقرض من المصرف الزراعي وخبرة من الإرشاد الزراعي وسترى أن أرضك كنز مهجور .

هجم صالح علي وقبلني من جبيني وقال :

لقد أرسلك الله إلي لتساعدني.. وكان ذلك استجابة لدعاء (خضرا) المظلومة بلا ذنب ... لن أنسى فضلك يا فارس ما حييت

الفضل كله لله.. وإنَّما أنا أتيت إليكم أيضاً مشيراً بإرادة لا أدركها.. ونحن البشر نحتاج إلى أن نبرأ من أمراض قد نكون سبباً في جلبها.. وقد أتيت إلى أرضكم التمس برءاً .. الله محققه وهو الملهم وهذه

الطبيعة البكر هي الأم الحاضنة بكل حنان للبشر . ففي حضنها نعافي

لم يفهم (صالح) ما قلت وما عنيت ولا الأمراض

التي قصدتها؛ لكنّه قال :

سأذهب إلى مضافة البلدة الآن ، وأعلن عن مهنتي الجديدة وعن حيازتي السيارة أجرة ، حتى يعلم القاصي والداني ذلك . فيركب معي في الذهاب والعودة. قلت :

على بركة الله .

عدت إلى (حنان) وقصصت عليها ما جرى فقالت :

كنت أسمع حواركما . وحسناً فعلت بقصة (خضرا) ودراستها...

قلت :

ما رأيك أن نتجول في البلدة فنشتري بعض اللوازم والطعام ، وتطلع على أحوال الناس ثُمَّ نعود ؟

قالت :

هو كذلك

خرجنا نتجول ، وقد هبت رياح جبلية باردة ولكنها منعشة 6 ورأينا الطيور حائمة على

رؤوس الأشجار تبغي المبيت ، تزقزق فرحة على الرغم من أنها لم تؤمن طعاماً للغد، وتعجبت من أصحاب الملايين الذين يبيتون حزاني على تجارة أو خسارة تلفهم الكآبة المفرطة ، على الرغم من أن خزائنهم تكفيهم طعاماً لمئات السنين لهم ولأولادهم وأحفادهم ..

ثم قلت لنفسي:

يا لروعة الطيور .. وزهدها .. من أجل ذلك كوفئت بالحرية ، وأهديت الأجنحة .. لتتمتع بالآفاق .. فتتجاوز القيود

لاحظت حنان شرودي، فقالت :

اراك شارد الفكر، هائما ، إنني اعذرك فالجو ساحر أخاذ . . لقد أخذك مني

للحظة فقط؛ فهذه الطيور، لا تملك مالاً، حتى ولا طعاماً للغد ، ولكنها تملك ما هو أثمن من كل ذلك . تملك الحرية التي لا تقدر بثمن ، وتطير متجاوزة الحدود ، تأشيرة أو جواز سفر... فلا تحتاج إلى

قالت حنان :

ما أروع التأمل إنه صلاة حقيقية |

قلت :

التأمل مناجاة حب من نوع خاص بين الانسان وخالقه ، ولعله أرقى أنواع الحب

هذا صحيح ..

اشترينا بعض الأطعمة ، وبعض المواد الأولية اللازمة للطبخ ، فقد أردت أن أثبت لحنان مهارة تعلمتها في مدرسة عاطف رغدان حين كنا نختم وتطبخ طعامنا بأيدينا أحيانا، ونتعايش مع الطبيعة بكل الطاقات؛ ثم عدنا، واستحممنا ،

وليسنا مناماتنا ، قلت لها :

سنذهب غداً إلى البحيرة ، لصيد السمك وشيه على الحطب ، وفي الصباح سيوصلنا (صالح) ، تسامرنا قليلا .. وشربنا شيئاً من العصير ثم جاء وقت النوم .. قلت :

سأنام على الأريكة في الغرفة الثانية وتنامين أنت في غرفة النوم .

لماذا تنام على الأريكة والسرير واسع .. ننام عليه معاً الست زوجي؟

قطعت عهداً على نفسي .. بأن لا أتزوجك فعلياً إلا عندما تشفين تماماً .

دعك من هذه الوعود .. تعال ونم .

استلقيت على السرير .. وكانت هي قد تمددت عليه. كان نور القمر يتسلل عبر النافذة مرسلاً ضياء فضيّاً ساحراً على جسدها المستور بمنامة رقيقة تكشف معظم صدرها .. لم أستطع النوم ولكنني بقيت متمدداً على ظهري صامتاً أتأمل القمر البهي. هي كذلك لم تتكلم .. ولم تتحرك ...

بعد برهة ليست قليلة سالت نفسي هل نامت؟... فجأة .... قلبت جسدها باتجاهي فلاحظت عينيها تطغيان على نور القمر وشعرت بأصابعها الطويلة تغزو صدري فتصل إلى إبطي ورقبتي . قلت :

عاهدت نفسي أن لا أقترب من جسدك .. ولا أحاوره إلا حين تبرئين.

لقد برئت .. وشفيت .. وها إن الحطب قد ألقي عليه الزيت فاشتعلت النيران .. فألق بعهودك التي عاهدت نفسك بها واستحم بلهيب الحب .

النورانية على شعرها ، انثنيت نحوها .. كان ضوء القمر يرسل خيوطه فيتألق بارقاً بسحر ويضيء وجهها ورقبتها ، فتلمع عيناها بشهوة عارمة طاغية .. ولمحت ثدييها ناهدين يستحمان بضوء القمر .. وضعت يدي على خدها .. كان مشتعلاً ومضرجا .. ثم وصلت إلى رقبتها فداعبتها قليلاً.. ونزلت أكثر فامتزجت اصابعي بضوء القمر، .. التصقت بها بقوة .. وقد اصبحت تحت سيطرتي وكياني بشكل كامل .. فلثمت فاها .. فهبطت النجوم من عليائها مشتعلة .. والتقت العيون بحمى الرغبة .. قالت :

انتظرت هذه اللحظة من سنين .

لم أدعها تكمل جملتها لأنني تناولت شفتها .. وقد ذابت بين شفتي وتلاشت نهائياً .. فقد كنت أول من يدفنها ولما أفلتت شفتيها .. لتستريح قليلاً .. قالت :

أحبك .

كانت النيران تأكل صدري والقلب مشتعل كياني مغمور بلدة وندى. . للاحتراق لذة لا يعرفها إلا

من استحم بها ، إنها نيران الرغبة .. ثم قلت بدون وعي :

-عندك وجدت كل حنان فقدته بحياتي .

ألما لذيذا .. سمعتها تتأوه بلذة .. ربما المتها قليلاً .. لكنه كان عندما تغشيتها .. خرجت من جاذبية الأرض ودخلت في جاذبية الحب.. وصرت أجوب هضاباً وسهولاً وغابات استوائية وأعبر وديانا وكأنني نسر محلق .. ثُمَّ وجدت نفسي في حلبة أصارع خصما .. وأحسست أنني صرعته لأن الدم بعد ذلك هدأت العواصف وسادت سال منه السكينة فاستلقيت تعباً ، ورأيت (حنان) على ضوء القمر وهي في نصف إغماضه ، لكن ثغرها كان مفتراً عن ابتسامة خفيفة ناعمة ، وبقيت أصابعنا، متشابكة حتى الصباح .

*

عند أول الشروق ... استيقظنا معاً في وقت واحد .

كانت عيناها ماتزال تحمل البريق ذاته ، ممزوجاً بنعاس.. وانتشرت في ملامحها بعض ابتسامات والق شابه بعض الخجل.. ثُمَّ قالت :

كانت ليلة العمر .. كانت أجمل من حلم... وأروع من ذكرى.. أؤكد لك أنني برئت تماماً ..

لقد تذوقت حناناً صافياً .. أحلى من العسل... وأصفى من الندى .. ولم أنم براحة مطلقة كما نمت هذه الليلة

نهضنا واستحممنا ثُمَّ تناولنا فطورنا ولبسنا ثيابنا

وقلت لها :

سنذهب إلى البحيرة .

خرجت من الباب المؤدي إلى صحن الدار وناديت (صالحاً) فأتى وقال :

أتحتاج إلى شيء

أحتاج إلى أن توصلنا إلى البحيرة وتعود مساء لترجعنا ؟

كانت حنان قد جهزت الحقيبة ووضعت فيها بعض السنانير التي جلبناها لهذه الغاية وركبنا في السيارة التي قادها صالح بمهارة حتى وصلنا إلى البحيرة ، فنزلنا على شاطئها وعاد صالح إلى عمله . بعد أن طلبنا منه العودة إلينا في الرابعة.

كانت البحيرة في الصباح صافية هادئة . تتلألأ أشعة الشمس فوقها كمرأة زحمتها أضواء كثيرة ... وضعنا الحقيبة ، تمشينا قليلاً على الشاطئ . فوصلنا إلى مجموعة أشجار تشكل أيكة .. وجدنا عندها قارباً صغيراً من الخشب يعمل بالمجاديف . وكان صاحبه قد ربطه إلى شجرة . قلت له :

هل تؤجرنا هذا القارب لما بعد الظهيرة ؟

قال :

بمنتي ليرة تدفع فوراً

موافق

وبينما كان هو يجهز الزورق.. ذهبت وجلبت الحقيبة ووضعتها في الزورق.. قال الرجل:
هل تريدان أن أبقى معكما في الزورق ؟

- لا داعي لذلك فأنا أتقن التجديف عد في الرابعة لاستلام زورقك.

ركبت أنا وحنان القارب وجدفت إلى العمق.

.. كانت حنان في غاية السعادة ، ولم تصدق روعة الطبيعة ، وجمال المكان . ركبنا وبدأت أجدف كانت حنان تراقب كيفية التجديف في زورق.. ظلت

صامته حتى وصلنا إلى منتصف البحيرة تقريباً ... فتوقفت وأخرجت السنانير من الحقيبة ووضعت الطعم في الكلابات الصغيرة ثم ربطت كل سنارة في قسم من جسم القارب وانتظرنا .. ماهي إلا لحظات حتى رأيت إحداها قد شدَّ خيطها .. وتحركت.. فجذبتها للأعلى، فظهرت سمكة كبيرة عالقة، من النوع الذي يلذ طعمه يتلوى في الهواء ... فجذبتها بقوة إلى القارب.. وخلصت فمها من السنارة ورميتها في وعاء كان بالقارب .. في هذه اللحظة أيضاً تحرَّك خيط ثان فقلت لحنان حصلنا على صيد أيضاً

يبدو أن حظي جيد .

كانت السمكة أصغر قليلا من سابقتها .. وهكذا بدأت السنانير تتحرّك.. فنعيد الطعم ونلقيها ثانية ومضت ساعتان من الزمن تجمع لدينا خلالها سمك كثير فتركنا الصيد ولجأنا إلى رياضة التجديف .. علمت (حنان) التجديف فصارت تجدّف والقارب يسير تعبت قليلاً في البداية فقلت لها :

عليك بتنظيم تنفسك وتنظيم حركة يديك وسترين أن الأمور أسهل .

وبعد قليل توقف التجديف ثم توقف القارب قلت لها:

ما رأيك في السباحة ؟

أعرف السباحة ولكني لست ماهرة

أنا سباح ماهر

فاجأتها بإمساكها من خصرها.. والقائها في الماء ... صرخت من الخوف والمفاجأة خفت من ارتباكها فألقيت بنفسي في الماء أيضاً . سمعتها تصيح :

النجدة .. النجدة

لم يكن على الشاطئ ، أو في البحيرة أحد ، فكانت صيحتها كما يقولون صرخة في واد

قلت لها :

لا تخافي .. إني معك

فا فرخ روعها .. وعادت تلعب بالماء وتسبح .. لم تكن مياه البحيرة باردة بدرجة مزعجة كانت. لذيذة منعشة .. لاعبتها ونحن نسبح .. واقتربت منها وضممتها إلي فكدنا نغرق فاقتربت هي من القارب وأمسكت طرفه الخشبي بيدها اليمنى، فتقدمت نحوها وضممتها إلى صدري بقوة ثُمَّ قبلت فاها .. ضاغطاً على صدرها .. فذابت وتراخت... ثم ضممتها أكثر إلي . وسرت في عروقي دماء حارة لم يستطع الماء إطفاءها ، انها ثورة الرغبة .

فأخذتها في الماء .. وهي تتضاحك لذة ، ومارست

معها فعل الحب والماء يغمرنا حتى الصدر اصطبغت وجنتاها بحمرة الورد الجوري ، وتألقت عيونها بجنون الاندهاش و السحر.. ثُمَّ تراخت ... وفي الضمة الأخيرة استسلمت .. غير عابئة بالماء.. فخفت عليها من الغرق.. ثُمَّ قالت بصوت رخي كأنها في منام :

ضعني في القارب.

فأصعدتها إليه ولما صارت فوقه ، استلقت على ظهرها ، منفرجة الساقين ، وعيناها شبه مفتوحتين أما الفم فكان يفتر عن ابتسامة غامضة .. ثم ما لبثت أن استلقيت قربها .. وقد التصقت يدي بيدها وجسدي بجسدها وكنت قد خففت عنها بعض ثيابها المبتلة.. فأصبحت شبه عارية. قلت :

الشمس هنا مفيدة .. فلنأخذ حماماً شمسياً . فلم تنبس ببنت شفة.. واستمر ذلك حوالى ساعة أو أكثر .. كنا في شبه إغفاءة .. وكان الزورق يتهادى بنا في المكان نفسه لأن ريحاً خفيفة كانت قد بدأت تهب مداعبة صفحة الماء التي اعتراها الموج .. عندئذ استيقظت فاستندت إلى كوعها وقالت :

يا الله إنني شبه عارية .. ربما رآنا أحد

ليس من أحد في البحيرة .. حتَّى ولا على الشاطئ

ما أروع الحب في الماء !.. وما ألذ دفء الشمس بعد السباحة ! .. لقد جعت.. لنعد إلى الشاطئ...

ارتدينا ثيابنا التي جفت ، وجدفت القارب باتجاه الشط . كانت بعض شجيرات من الكينا يلتف بعضها على بعض مشكلة أجمة صغيرة بين الصخور، ربطنا القارب بشجرة . وقمنا بتنظيف السمك.. وجلب الحطب.. ثم صارت (حنان) تفرم الخضار.. أشعلت النار وانتظرت حتى أصبح الحطب جمراً ... وضعت السمك قريباً من الجمر.. ولما نضج أخرجته .. وكانت مائدة لذيذة بعد تعب وجوع. قالت حنان :

ألذ غداء اتذوقه .. وأطيب سمك أتناوله

ذلك لأن كل شيء طازج هنا .. لا يعرف التلوث

انتهينا من الغداء وغسلنا أيدينا ، وأنزلنا الحقيبة من القارب . وفي الموعد المضروب بيننا وبينه، جاء رجل القارب ، واستلم قاربه .

ثُمَّ انتظرنا قليلا فقدم (صالح) قال مندهشا :

لقد لوحتكما الشمس .. هل سبحتما ؟

- هذا السمك لك يا (صالح) .. عشاؤك اليوم

سمك طازج .. ولكنه يحتاج إلى تنظيف

هذه مهمة (خضرا) وأمها. سيسعدان اليوم

بعشاء لذيذ . قلت :

كيف كان عملك على السيارة هل من صعوبات ؟ وما أخبار الغلة ؟

غلة وفيرة .. ولا توجد صعوبات .

ركبنا السيارة وعدنا إلى البيت استحممنا ثم شربنا القهوة . وقلت لحنان :

ماذا سنعمل الآن ؟

آن وقت الدرس النعوض ما فات... هذا هو برنامج الليلة يا عزيزي

ضحكت مسروراً. وكانت هي على درجة كبيرة من الانشراح وهكذا لم ألحظ ما يشير إلى مرض في جسدها .. لقد تأكدت من أنها قد هزمت المرض بفعل الحب... أو العيش بأحضان الطبيعة... أحيانا تفعل الصدمات المفرحة أو المحزنة ، مثلما تفعل الصدمات الكهربائية ، فتعيد القلب المتوقف إلى عمله ، فتستمر الحياة...

هاتفت أمي .. وكنت مشتاقاً إليها فردت وقالت :

قلقت عليك فما أخبارك ؟ فارس ...

كان المنزل الجديد مريحاً .. وقد ذهبنا اليوم إلى البحيرة وركبنا القارب

وحنان .. كيف صحتها .. هل هي بخير ؟

على أحسن ما يرام وقد تحسنت كثيراً حتى انني سبحت وإياها في البحيرة .

هذا خبر يدخل السرور إلى قلبي

سأتصل بك يا أمي بين فترة وأخرى .. ثُمَّ ودعتها وقلت لحنان :

إلى الدرس الآن

مع أول خيوط الشمس استيقظنا.. قلت :

لنشرب القهوة في صحن الدار .. تحت شجرة الكستناء وقرب حوض الزهور . عملت حنان القهوة. جاءت (خضرا ترتدي تنورة حمراء وفوقها قميص أبيض بنصف كم وقد طرز صدر القميص بمنمنمات حمراء (صباح الخير)

قلت :

هل وصلتك الكتب ؟

شكراً على هديتك القيمة عندي أغلى من الدرر . ، وصلت وهي

قالت حنان :

سنساعدك في الدروس والمواد التي يصعب عليك فهمها . وما عداها ستدرسينه وحدك في البيت .. إذ أن الدراسة الفردية تعتمد على التركيز

أنا ممتنة لكما كثيراً .

قلت لحنان :

اليوم لن نغادر البيت .. سيكون الوقت كله أما غداً فهو يوم المسير في للدرس أحضان الطبيعة واكتشاف الغابة.

الفصل الخامس عشر

في الصباح هبت من النافذة انسام ناعمة رطبة. ألقيت نظرة بالعصافير، فلاحت شجرة الكستناء وهي مليئة ، كان لتماوج أوراقها حفيف يشبه الموسيقا ، بل هو أروع من الموسيقا ، لأن السلم الموسيقي عجز عن ابتكار مثله . إنه روح البهجة والأمل .

استيقظت حنان عندما رأتني أنهض وأطرد وسناً مازال عالقاً بعضه في جفوني ...

احتسينا القهوة بلدة مع الحب الذي لا ينضب.. قلت:

لنتناول فطورنا وتملأ (مطرتينا) ونأخذ معنا بعض الطعام لأننا سنتغدى في الغابة .. نهضت بعد لأي وبدأت تحضر الأدوات واللوازم، وتضعها في حقيبة الظهر التي سارتديها أنا أثناء المسير.. ثُمَّ لبسنا اللباس

المريح .. وانتعلنا خفافتينا .. بعد ذلك اتصلت

بصالح وقلت :

- ستوصلنا إلى الغابة البعيدة حيث كنا نختم العام الماضي

هل أنتم جاهزون الآن ؟

- نعم نحن في كامل الجاهزية تعال حالاً.

ركبنا معه وانطلق بنا إلى الغابة البعيدة .. كان في تطل على وديان . فنزلنا أولها ساحة كبيرة وذهب (صالح) إلى عمله ، أكدت عليه العودة في الثالثة . وقفت أنا وحنان نتأمل الوديان .

قلت لها :

هذا الوادي السحيق يدعى وادي الموت

لماذا سمي كذلك ؟

يوجد حرف من أعلى الجبل انكساري يؤدي إلى ذاك الوادي العميق .. من يسقط من اعلى الجرف .. يموت حتماً . في هذه الغابة تكثر الأرانب والثعالب والسلاحف البرية ... وقد توجد الذئاب والضباع .

فزعت حنان وقالت :

لماذا تأتي بي إلى غابة الرعب ووادي ضحكت وقلت : الموت.. أهذا جزء من برنامج شهر العسل ؟

لا يوجد خوف الخوف عشعش في نفوسنا، من زمن الضعف .. القوى لا يخاف .. وهذه منا .. فالأجدر أن لا نخاف منها الحيوانات وجدت للتوازن البيئي.. هي تخاف

.. وشاهدت كانت الطيور على الأشجار تتقافز وتتحرك من غصن إلى غصن . ثم تهبط إلى أرض الغابة فتلتقط طعامها وتعود إلى الأغصان حنان سلحفاة برية تزحف بين الأعشاب في منخفض صغير .. تخبئ رأسها ، فتتوقف ثم تظهره ، وتمشى كانت تحمى نفسها .. قالت .

ظهور السلحفاة أمامنا فأل حسن ...

بدأنا المسير .. كانت الطريق صاعدة متعبة ، فاستهلكنا مطرات الماء .. من بعيد لمحنا مياهاً تتساقط من عل .. تنزل كشلال صغير إلى حفرة انهدامية كبيرة . فتتجمع المياه من تلك المساقط مشكلة بحيرة صغيرة .. كان المنظر رائعاً أخاذاً فالبحيرة بدت كأنها مسيجة بأشجار بلون البنفسج

هو أقرب إلى الليلكي .. كيف نبتت هذه الأشجار ، وكيف زئرت البحيرة .. الله وحده يعلم.. وعلى الضفاف القريبة نبت السدر والقصب .. وعند اقترابنا أكثر من البحيرة شاهدنا بطتين بريتين تسبحان في وسط البحيرة .. قالت حنان :

أيوجد في البحيرة سمك ؟

- لا أظن فمثل هذه البحيرات لا يوجد فيها إلا بعض الضفادع .

كانت على الضفة مرجة خضراء يوشيها زهر النقل الأبيض . و لم تكن أرضها رطبة أو موحلة . وكان فيها شجرتان ضخمتان، فغسلنا أيدينا ووجهينا، وأسندت ظهري إلى الشجرة، ومددت ساقي على العشب.. وكذلك فعلت حنان.. استرحنا

قليلاً .. ثم تناولنا غداءنا الذي حملناه معنا .. بعد الطعام شعرنا بنعاس وخدر.. وهكذا أغمضت عيني قليلاً .. ثم رأيت حنان تلتصق بي وتضع رأسها على فخذي، وقد أخذها النعاس والتعب.. شعرت بحميمية وحنان دافق نحوها تمنيت أخذها على المرج فداعبتها.. أشارت قائلة (فيما بعد)

فأغمضت عيني محاولا استدراج الوسن الا انني سمعت دبيبا على الأرض يشبه مشى حيوان فتحت عيني ، فرأيت حيوانا يقترب من مضجعنا جلده أبيض مصفر .. ينظر الينا مندهشا من اثنين استسلما لغابة .. أو كانه اشتم رائحة الطعام الذي بقي بعض منه لم نأكله .

قلت لحنان :

افتحي عينيك وظلي مسترخية في مكانك تتصنعين النوم الجميل. وانظري إلى الثعلب

لما نظرت إليه انتابها فزع ، فجلست وضمتني وقالت :

ما هذا الحيوان ؟ إنه أكبر من ثعلب .

بل هو الثعلب ولا شيء آخر .

استعدنا نشاطنا ، ملأنا المطرات بالماء البارد النقي من الشلال كانت الساعة قد قاربت الثانية بعد الظهر .

قلت :

لنعد أدراجنا وسيستغرق مسير العودة ساعة فتلتقي حسب الموعد مع صالح .

في الطريق أثناء عودتنا شاهدنا آثار حفر الخيم التى أقيمت العام الماضي حيث أمضينا في المكان شهراً . جاء صالح وتوقف بسيارته بالقرب منا .

ترجل ثُمَّ قال :

هل كانت الرحلة متعبة ؟

متعبة لكنها مدهشة يرتادها إلا القليل وهذه الغابة البكر لا

يقال أن في الغابة ذئاباً وضباعاً فكيف تجرأتما على المسير فيها ؟ قلت :

لم نجد مما ذكرت شيئا ، هل سمعت في يوم ما ببلدتكم أن ضبعاً أكل إنساناً ؟

لا لم نسمع .. بعض الذئاب اختطفت نعجة أو نعجتين .

إذا لا تبالغ في خوفك ، ولا تتعود إخافة الناس

ركبنا السيارة وفي طريق العودة قلت لصالح :

عليك غداً أن تجهز بيانات القيد العقاري للأرض.. وسند الملكية . لأنني سأكون معك ، فنذهب إلى المصرف العقاري ، لنطلب لك قرضاً من أجل مشروع زراعات محمية

كما سنمر على الوحدات الإرشادية للتعاقد مع خبراء مختصين بهذا النوع من المشاريع للإشراف على البيوت (البلاستيكية) بعد .تركيبها.. وكذلك علينا أيضاً أن نمرّ على شركات الدراسة الجدوى الاقتصادية لهذا المشروع.. لنعرف أي المزروعات أفضل وأربح وأجدى

ساعد كل ذلك وأتفرغ لذاك العمل نهار الغد ولكن أعذرني من أين لك هذه الثقافة والخبرة؟

من مشاريع طبقت في بلدتنا .

وصلنا إلى البيت ونزلنا من السيارة وعاد صالح إلى عمله. استحممنا .. وشربنا القهوة. درسنا من المنهاج قسما عظيما وتناقشنا في الموضوعات الدراسية ثُمَّ نمنا .

في الصباح جاء صالح.. وكنت قد استيقظت مبكراً ، فلبست ثيابي ، وجهزت نفسي للسفر معه.....

قلت لحنان :

استدعي (خضرا) وناقشيها فيما درست ، وما استوعبت ، ثُمَّ أعطيها بعض التوجيهات واشرحي لها بعض الدروس الصعبة التي لم تستطع فهمها إلى حين عودتي .

عندما جاء (صالح) ركبت السيارة معه ، وسافرنا إلى المدينة...

دخلنا إلى شركة تختص بدراسة الجدوى الاقتصادية للزراعات المحمية . وقابلنا المدير ، وشرحنا له موضوع المشروع.. ومكان الأرض... وكان بعض المهندسين يكتب ما نشرح ، وما نعطيه من معلومات.

قال المدير :

ستكون الدراسة جاهزة بعد أن نأخذ عينات من التربة واننا سنرسل معكما موظفاً ليأخذ عينة من التربة ليحللها. ويطلع على ارض فى الثانية بعد الظهر سنمر ونأخذه معنا المشروع.. ويدرسه على الواقع . قلت :

ثم مررنا على الوحدة الارشادية التابعة لمديرية الزراعة.. واثقفنا مع مختصين منهم بالزراعات المحمية. . على الإشراف على المشروع المزمع إقامته .

آخر محطة كانت المصرف الزراعي.. وصلنا إليه في الساعة الثانية عشرة وقابلنا المدير وشرحنا له تفاصيل المشروع .. وأريناه المستندات فقال :

إن الضامن هو الأرض ... ولذلك سنضع اشارة تأمين على صحيفة العقار . وإن قيمة القرض تمول خمسة بيوت بلاستيكية . وهي مساحة كبيرة وعليكم من الآن تمهيد الأرض وإعدادها وتجهيزها.. بعد أسبوع سنحول المبلغ إلى شركة البيوت (البلاستيكية) ليقوموا بالتركيب.. ويبقى قسم من القرض للعملية الانتاجية برمتها ... من بذور وأسمدة ، وأجرة عمال ومصاريف أخرى.. أما التسديد فبعد خمس سنوات من الآن . بفوائد زهيدة ...٣٣٣

سرّ صالح من الانجازات الكبيرة التي تحققت في يوم واحد .. لقد أصبح الحلم حقيقة وسينتقل هو وأرضه.. من العطالة إلى الإنتاج.. ومن الفقر إلى الغني .

أثناء عودتنا أخذنا معنا مندوب شركة دراسة الجدوى الاقتصادية. وعدنا إلى أم الزنانير .. كانت حنان بانتظاري . قالت :

منذ نصف ساعة خرجت (خضرا) من عندي ... لقد استوعبت منهاجها بفترة قصيرة من الزمن ، إنها ذكية سريعة البديهة . قلت :

إن إنساننا ذكي .. لكنه كالنبتة.. إن لم تر ضوءً .. أو تشرب ماء.. أو تسمد وتغذى... فإنها لن تزدهر وتنمو ... أتدرين يا حنان أن سوريين حكموا روما.. وأصبحوا أباطرتها ومنهم فيليب الحمصي.. الذي كانت أمه جوليا دومنا .. إن السوري متفوق بطبيعته ، عودي إلى التاريخ وستلمسين ذلك.. ستجدين ممالك أنشأها فينيقيون سوريون على ضفاف المتوسط شعت حضارة ونورا في عصور كانت معظم أقطار الأرض تغط في الجهل،

وإذا كان في الكون شعب متفوّق فإن هذا احرقوه الشعب يستحق هذه التسمية وليس غيره، كلما ، نبت كطائر الفينيقي من الرماد يونانيون ورومان وفرس واتراك وسلاجقة يغيروه و فرنجة وكل طغاة التاريخ مروا من هنا ولم ، بل امتزجوا فيه وذابوا وبقي كالماس أقوى منهم، وستعاد أمجاد هذا الشعب، في يوم ما .. ليكون منارة العالم.

- هذا صحيح ، وعلى الاجيال القادمة أن تدرك هذا .

تناولنا غداءنا ونمنا .

رن الهاتف صوتها يقول : فقلت لحنان هذه أمي؛ وسمعت

كيف أنت يا فارس وكيف حنان ؟ هل تسير أموركما على ما يرام ؟

كلنا بخير وكذلك دراستنا مستمرة أفضل مما لو كنا في مدرسة.

اسمع يا فارس إن مالك المزرعة المزمع فقد أرسلت شخصا شراؤها يريد بيعها وفتح معه (البازار) .. فوافق وطلب مبلغاً زهيدا كالذي اشترى به المزرعة .. أي أنه لا يريد ربحاً .. الرجل لا يعرف كيف يديرها ... إنها بدلاً من أن تكون أداة انتاج .. أصبحت مصرفاً لنقوده.

عظيم .. عليك يا أمي السرعة بشرائها وإبرام العقد .

سأقوم بذلك غداً .

ودعتها فطلبت الكلام مع حنان، وسألتها عن صحتها ...

في تلك الليلة فرحت أنا وحنان كثيراً بعودة أرض الأجداد للأحفاد .. وبتحقيق وعد قطعته لحسن

خلال هذا الأسبوع سارت الأمور بشكل ميسر ساعات القراءة مدروسة وأوقات النزهة ما تبقى من الوقت أمضيه أنا ممنهج ... منتقاة بعناية وصالح في متابعة المشروع والإشراف عليه .

جاء تقرير من شركة دراسة الجدوى الاقتصادية يفيد... بان الأرض خصبة وممتازة وتصلح لكافة الزراعات.. ولكن زراعة القرنفل والزنبق الهولندي انتاج قابل للتصدير إلى الخارج . هي الأجدى من حيث الربعية الاقتصادية .. وهو

بعد ذلك بأيام جاءت سيارات محملة بأنابيب معدنية نصف دائرية من شركة البيوت (البلاستيكية) لتركب المنشأة على الأرض .. وبعد أن تم تركيب الحديد كسيت بالرقائق البلاستيكية ثم سويت الأرض ومددوا أنابيب الري وأصبحت خمسة بيوت تغطي أرض (صالح) وكأنها شركة كبيرة ، فتغيرت معالم الأرض . ثم جيء بأدوات التدفئة ، فركبت أيضاً.

وقف العجوز أبو صالح وأفراد أسرته ، معهم (خضرا) يبكون من الفرح. كان فرحاً يفوق الوصف ...

ولكن العجوز بدا متوجساً فقال :

اذا خسر المشروع من أين سنسدد للمصرف؟ قلت :

لن يخسر المشروع لأن شركة مخصصة درسته و هناك خبراء ومهندسون سيشرفون عليه

قال صالح مخاطباً أباه :

في أسوأ الأحوال عمل السيارة سأسدد للمصرف من

قلت لا داعي للقلق.. والعمل أي عمل... تجارياً كان أو زراعياً خاصاً ولاسيما المشاريع.. تحتاج إلى هامش من المجازفة ولكن على صاحب المشروع أن يشبع مشروعه بحثاً بدراسات علمية مستفيضة... ومشروعكم هذا قد نال من الدراسات ما يستحق .. الآن وقت عمل وليس وقت تردد .

يعملون بدأت وحدات الإرشاد تعمل والعمال الزراعيون وجاءت الشتول والأبصال وزرعت داخل البيوت ثُمَّ سُقيت بالأنابيب والمرشات .. لم يصدق صالح ما يجري ، كنت أنا أشرف على الخبراء والعمال فأوجههم وأستفيد من خبرتهم

قالت لي عندما عدت إلى البيت وكان من جراء ذلك أن تغيبت كثيرا عن حنان التي

اهذا شهر عسل .. أم شهر عمل ؟

قلت :

هذه خبرة فريدة تفيدنا، وقد عادت لنا مزرعة الأجداد وسيكون (حسن) أول الفرحين بالإنجازات الجديدة .

*

مضى على وجودنا في بلدة أم الزنانير أكثر من شهرين فقلت لحنان :

أرى أن ننزل إلى المدينة ونحلل لك الدم ... ونقف على تطور المرض

قالت :

ولكن إن كان المرض مازال ثاوياً في داخلي ، فسيكون ذلك مدعاة حزن مقيم لا تخافي .. ولا تحزني لقد ولى المرض وتعافيت .

في الصباح لبسنا ثيابنا وشربنا قهوتنا.

قلت لصالح وهو يجهز سيارته :

سننزل معك إلى المدينة .

أنا رهن إشارتكما وسأبقي أنا والسيارة معكما ركبنا السيارة ونزلنا إلى المدينة...

قلت لصالح :

ساراك في المكان الذي أنزلتنا فيه هاهنا الساعة الثانية بعد الظهر؛ أنت حر فيما تبقى من وقت ، ثُمَّ تمشيت أنا وحنان في المدينة فوجدنا مخبر الطبيب المحلل دخلنا وقلت للطبيب المحلل :

سأحلل الدم لزوجتي وأنا أظن أنها تعاني من (اللوكيميا)

في الساعة الواحدة تظهر نتيجة التحليل وجدنا فائضاً من الوقت قلت لحنان :

هذه فرصة لنتجول في المدينة ونقعد في مقهى ونتناول الكاتو ونشرب الشاي...

تجولنا أولاً . وتسوقنا بعض اللوازم . ثُمَّ اشتريت لخضرا وأهلها هدية .. بعد ذلك وجدنا مقهى يطل على قارعة الطريق العام .. كان المنظر مسلياً

وحركة السيارات دائبة.. والناس تتحرك إلى اعمالها .. طلبنا الكاتو والشاي.. وقطعنا الوقت بأحاديث عن المستقبل وعن تأهيل المزرعة التي اشترتها أمي...

وحان الوقت لمراجعة الطبيب المحلل.. فنهضنا واتجهنا صوب عيادته.. كان قلبي يضطرب ... واعترائي بعض الخوف.. إنها لحظة مصيرية تفصل بين الموت والحياة. كانت (حنان) مصفرة الوجه وقد جف ريقها واتسعت عيناها كالمذعورة ... بل كانت مذعورة حقاً ...

سلمنا الطبيب ظرفاً وفيه تقرير عن التحليل ثُمَّ قال:

الحمد لله سليمة ولا يوجد في دمها ما يُدعى بسرطان الدم .

تهلل وجهي ورأيت) حنان) وقد طارت من الفرح.. ضحكت وتحولت إلى طفلة تصيح فرحة في عيد .. تغيرت ملامحها إلى الأروع بشكل لم أره من قبل بل طفرت دموع الفرح من عينيها وقالت :

الحمد لله .... لا أكاد أصدق

قال الطبيب :

لماذا أنتما قلقان إلى هذه الدرجة ؟

قلت :

سبق أن قال لها طبيب.. في بلدتنا .. إن في دمك اللوكيميا.. وأنك لن تعيشي أكثر من أسابيع قليلة.. وقد مضت شهور على ذلك... وهي كما ترى بصحة جيدة ... قال المحلل :

أحياناً تحدث معجزة .. وطبعاً هناك أسباب لا ندركها .. أحيانا الفرحة الزائدة تؤثر في نقي العظام فتدفعها إلى العمل بعد أن كانت متوقفة إنها تعود إلى إنتاج الكريات الحمراء.. وكذلك الخوف الزائد.. او الفرح الزائد.. لكن الأهم هو الإيمان بحتمية الشفاء و بالمختصر أي صدمة سلبية أو ايجابية... قد تحرك عضواً قد توقف أو غدة تعطلت.. أو هرموناً جف.. ثُمَّ عاد فصار طبيعياً بفعل ما ذكرت . وفي النهاية الإيمان بالشفاء هو الطريق الأمثل

لم تتمالك (حنان) نفسها فألقت بجسدها علي وعانقتني وهي تبكي، وأنا ضممتها كذلك ولما عدنا إلى الوعي قلت له :

نعتذر منك فالمرض ليس بالأمر السهل لا عليك فتصرفكما طبيعي والحمد لله على

سلامتها

خرجنا من عنده فرحين اتصلت بأمي فرحا منفعلاً

ومتهيجا بشدة وقلت :

أمي .. شفيت (حنان) وكانت نتيجة التحليل

سلبية ...

تخيلت أمي وقد شهقت ثُمَّ تهدج صوتها وانفعلت وقالت :

الحمد لله لك يا رب.. لقد منحتنا معجزة ... في كل يوم تحدث معجزات ونحن لاهون ، مساء سأتصل بكما .

ثم اتصلت بحسن وأخبرته بما حصل. لم يصدق ما جرى وصرخ من الإنفعال وقال:

يا الله ما أعظمك!

وأخبر أمه.. وأخذت (حنان) الهاتف وحدثتها بما جرى وهي تبكي منفعلة

كانت فرحة لا تصدق.. ملأتنا بسعادة غامرة...

بعد قليل قال حسن وقد تسلم الهاتف من أمه :

غداً سأكون عندكما في أم الزنانير ، كيف

حال (خضرا) ؟

قلت :

لا تنس أن تجلب كتبك ومنامتك ومنشفتك معك.. لأنك ستبقى عندنا أياماً كثيرة قال :

هو كذلك..

فقلت له :

سأرسل لك (صالح) بسيارته فقد صار يعمل

على سيارة أبي محمود .

في المساء سهرنا في بيت صالح.. وقدمنا لهم بعض الحلويات والمأكولات التي جلبناها معنا من المدينة.. كان الجد العجوز نائماً.. وقيل لنا إن وعكة صحية خفيفة ألمت به.. لم نذكر شيئاً عن مرض (حنان).. لكنهم لاحظوا سرورنا الزائد

فسألت (خضرا) :

أراكما اليوم في غاية السعادة والسرور لعل خبراً مفرحاً وصل إلى سمعكما.

قلت :

سيأتي غداً (حسن) أخو حنان .. فأرجو يا (صالح) أن تذهب غداً إلى بلدتنا .. في الساعة

الثامنة لجلبه.

قلت لخضرا ضاحكاً :

لقد جاءك مدرس ثالث فكم أنت محظوظة يا خضرا

أتدري يا فارس .. أنني استوعبت منهاج الصف العاشر منكما أكثر مما لو كنت في مدرسة، وعلي الآن تثبيت الأفكار. إن (حسن) هو خير من يثبت لي الأفكار ..

قلت :

قد يكون لحسن أسلوب إقناع أفضل من أساليبنا .. وعلى كل الأيام بيننا. ضحكت أنا وحنان، لأننا أدركنا أن الحب في قلبيهما مازال يخفق .

ثم توجهت بالحديث إلى صالح وقلت :

إن (حسن) مولع بالزراعة يهواها.. وسنستثمر ذلك في البيوت البلاستيكية عندك ليزيد الخبراء خبيراً

ثم قلت مازحاً :

وعسى ألا تحترق الطبخة .. لأنهم يقولون إذا كثر الطباخون .. احترقت الطبخة .

ضحك الجميع وقال صالح :

بوجودكم ازدهرت حياتنا وتغيرت.. بل و (حسن) طعم الطبخة ولن تحترق أبداً بإذن الله .

في اليوم التالي جاء حسن فسلمنا عليه بالعناق ورحبنا به وقد نفرت دموع الفرح عندما عانق أخته.

قال لحنان :

الحمد لله على سلامتك والفضل يعود إلى فارس وجهوده ووفائه.

قلت :

الفضل كله الله .. لقد نفعنا إيماننا كما قال السيد المسيح للمرأة التي شفاها إيمانها.

وعن تحسن أحوال الناس.. في المساء تسامرنا .. وحكى لنا عن أمور البلدة.

ثم قال :

لقد أخبرت الشيخ محمود بشفاء أختى وهو يسلم عليكما من واجبي أن أخبره أنا وأن أعلم المختار وعاطف رغدان أيضاً . فيما بعد حين أخبرتهم تعجبوا ودعوا لنا بدوام

السعادة .

لم يُضع (حسن) كبير وقت.. بل ذهب إلى أرض المشروع.. وتفقد البيوت البلاستيكية . كانت في طور الإنتاج .. وما ترك خبيراً أو مهندساً أو حتى عاملاً إلا سأله عن كل صغيرة وكبيرة ليكتسب معرفة وخبرة .

في المساء سهرنا عند صالح .. كانت (خضرا) قد ارتدت ثوباً ورودياً أنيقاً ، فبدت رائعة ، ذات جمال اخاذ .. كان حسن لا يمل من النظر إليها بعينين

وقادتين فاحصتين ، وكانت ملامح وجهه تنبئ عن بداية حب يكبر ويكبر . قلت :

هذا حسن .. أستاذك الجديد سنلقي عليه عبنا ثقيلا بتدريسك . سُرَّ حسن وقال :

ساعفي صهري واختي من تدريسك يا (خضرا).. وأتفرغ تماماً لك.. جلسة في الصباح.. وجلسة في المساء .. وقد نزيد حسب الظروف

كانت سهرة رائعة غشيتها البهجة . وبدأت ثقة كبيرة تتكون ما بيننا وما بين أسرة صالح وقد برئ العجوز وشفي وصار يسهر معنا .. وأعجب كثيراً بحسن..

ومرة قلت لحسن عقب وصول السرير والفرش الذي جلبه صالح :

هل أعجبك السرير فنمت نوماً مريحاً ؟

هو أكثر راحة وأدعى للسكينة من سرير بيتي سأمكث عندكما .. حتى تعودا .. لقد أعجبني السرير.. قلت

أعجبك السرير ..؟ أم أعجبتك (خضرا) ..؟

في الحقيقة .. الاثنان معاً ...

لا تنس دراستك إذن.. وتنشغل كثيرا (بخضرا)

اتصلت امي مساء .. وحدثتني عن شرائها .المزرعة.. واستلامها لها .. وقد وظفت ناطوراً أقام فيها يحرسها . وقالت لي :

إن المبلغ المتبقي من الميراث مازال كبيراً .. وإنني سآخذه بعد عودتي.

كان اهتمام حسن يزداد (بخضرا) يوماً بعد يوم..

مرة شاهدناهما يذهبان في نزهة عبر الطرقات الجبلية والغابة القريبة

قلت لحنان :

ما رأيك لو نذهب ومعنا (حسن) و (خضرا) إلى البحيرة الكبيرة ونصطاد السمك

نعم الرأي

زرنا البحيرة وركبنا القارب واصطدنا السمك. كانت رحلة ممتعة

بدأ القرنفل في البيوت البلاستيكية يكبر ويزدهر وكذلك الزنبق فقد نما بسرعة غريبة. قال المهندسون

إن جو البيوت البلاستيكية مدروس من ناحية الحرارة والرطوبة مما يجعل النبات ينمو كالفروج في المداجن وقال مهندس آخر :

- سيتم القطف والانتاج بعد شهر .. إن دورة رأس المال سريعة في هذا النوع من الزراعة وربحها وفير .

قطف الإنتاج وتم تسويقه ، وكان (حسن) يشترك في كل تلك المراحل .

مساء جاءنا صالح ومعه ابنته (خضرا) ، وسهرا عندنا ، كان قد جلب معه هدية من المدينة.. علبة فيها حلويات فاخرة .

قال صالح :

لم أكن لأعلم أن مردود الإنتاج سيبلغ الذي بلغ .. هل تعلمون أنني الآن أستطيع شراء

سيارة أبي محمود ... بل وأفضل منها .. من قيمة إنتاج القرنفل والزنبق ؟

قلت :

الم أقل لك يوماً .. أن أرضك كنز متروك وها قد آن الأوان لاستخراجه .. وأول الغيث

قطر .

كانت (خضرا) ماتزال معلّقة نظرها بحسن فلم يثرها أو يحرّك فيها كلام أبيها كثيراً من السرور ..

بل كانت عينا حسن هي مصدر السرور .

قالت حنان :

من الغد يا عم صالح اذهب أنت وخضرا إلى المدينة وسجلها في المدرسة الثانوية .. واذا أخضعوها لاختبار .. فنجاحها مؤكد.

قال حسن :

سأذهب معكما .. لأتعرف على المدينة وأساعدكما في التسجيل .

اخفيت أنا وحنان ضحكتين مكتومتين . وقلت

لنفسي:

ما أروع الحب.. وما أعجبه .. يصنع المعجزات !

نهض صالح وخضرا. قال صالح :

سنذهب مبكرين .. فكن يا حسن جاهزاً ذا أردت الذهاب معنا .

قال حسن بعد خروجهما :

الحب يأخذ الانسان على حين غرة .. ويدخل القلب بلا استئذان إنه ساحر مخير لذيذ ، يغمرك بالأحلام كالبخور المنعش لا يقف في طريقه شيء .. لقد احببتها بجنون ، لابد

أنكم لاحظتم ذلك. قالت حنان :

اعجابك بها واضح وباد.. وقد قيل قديماً ثلاثة أشياء لا يمكن اخفاؤها .. وأولها الحب.. ولكن عليك التأكد من مشاعرك ومشاعرها .. ويا ليت أن هناك اختباراً .. كما جرى بيني وبين فارس كان المرض هو الاختبار الحقيقي لوفاء نادر تمتَّع به فارس.. لم يتركني فارس في أقسى اللحظات.. ولكن الله خلصنا من المرض .

قال حسن ضاحكا:

أمن الضروري أن تمرض خضرا ، حتى استطيع اختبار حبي لها ؟

قطع كلامه رنين الهاتف الخط. قالت : كانت أمي على

هل أصبحت لكم بلدة أم الزنانير وطناً ، فهجرتم بلدتكم ؟ تعال يا فارس وتسلم مزرعتك وأدر شؤونها. قلت :

بعد غد الخميس سناتي جميعاً ونهبط إلى البلدة ثُمَّ ودعتها .٣٥٣

الفصل السادس عشر والأخير

ليلة الأربعاء .. كانت سهرة الوداع في بيت صالح.. في الغد سنهبط بلدتنا كفر الزمان .. هي سهرة الوداع ولاشك ، ولكن لن تكون الأخيرة ، فالمكان جميل وهادئ وقد أعجبنا .

كان (حسن) قلقاً جزعاً بل أصابه بعض الحزن لأنه سيفارق (خضرا ويخسر لقاءاتها ....

قال لأبيها :

سأظل على صلة بكم بالهاتف أتابع (خضرا) وأخبارها هل تسمح لي بذلك يا عمي، لقد أعجبت بها وفيما سيأتي من أيام سأعود مع أمي لأطلب يدها منك .

فوجئنا جميعاً بهذا الطلب رغم أن الحب بينهما كان بادياً.

قال صالح :

يشرفني ذلك، نحن بدورنا سنزوركم ببلدة كفر الزمان.

التمع البريق في عيونها .. خجلت قليلاً .

قال حسن :

هذه البلدة الهادئة لن أنساها .. وسيكون لها مكان هام في حياتي... قالت (خضرا) : اشكرك يا حسن فأنت قد قدمت لي من المساعدة ، ما أعجز أنا عن مكافأته لكنني سأهديك كنزة صوف ، ترتديها في برد الشتاء المقبل . إنها صنع يدي ...

قلت لصالح:

انتبه يا صالح على مشروعك الزراعي فإنتاجه الشتوي .. أغزر ربحاً و أكثر مالاً لقد وضعت قدمك على طريق المستقبل الزاهر. وعليك أن تستمر في تعليم ابنتك (خضرا).. إلى أعلى درجات العلم .. وسنظل إلى جانبكم حتى النهاية ...

قال صالح :

لقد تغيرت أفكارنا .. وتحسنت أوضاعنا ... بوجودك يا فارس بيننا .. إن الصلات

ستتواصل واللقاءات ستستمر .. ليس بالهاتف فقط ، بل بالزيارات أيضاً.

كانت سهرة الأربعاء حميمية ، عاطفية ، وكانت تحمل شيئاً خفيفاً من الحزن على فراق أصدقاء مخلصين.. عشنا معهم أكثر من ثلاثة أشهر وكأننا أسرة واحدة يضمنا حيز واحد.. ودعناهم جميعاً .. لاحظت دمعتين تبرقان في عيني ...)خضرا(

عدت مع حسن وحنان.. وجلسنا نتسامر قبل النوم.

قلت لحسن :

أتدري يا حسن أن أموراً هامة تنتظرنا في الغد وبعد الغد في بلدة أم الزمان.. علينا

إنجازها

قالت حنان :

ما هي ؟

قلت :

سنذهب غداً منذ وصولنا إلى البلدة إلى الطبيب الذي عالجك ، ونبرز له التحليل الذي أجريناه في المدينة التي هي مركز بلدة أم الزنانير.. بعد ذلك تذهب إلى الطبيب المحلل في بلدتنا.. لإجراء تحليل اضافي ، للتأكد مرة ثانية . وإذا كان لدينا فائض من وقت نذهب إلى المزرعة التي اشترتها أمي ، لنطلع على ما جرى فيها .. وما آلت إليه.. ثُمَّ نتفرغ للدراسة بشكل كلي . فالفحص بات قريبا جداً...

في صباح الخميس.. جاء صالح.. كنا قد جمعنا اشياءنا وسددنا الذمم المترتبة علينا.. وأعطيت (صالح) كل ما اشترينا لحسن من أغطية وأدوات منامة. ودعناهم جميعا وكانت لحظة مؤثرة .

ثم ركبنا جميعاً في السيارة باتجاه البلدة .

وصلنا إلى بلدتنا في الساعة التاسعة .. كانت أمي تداوم في عملها بالشركة .. أخبرتها بوصولنا. قالت:

انتظرك أنت وحنان على الغداء في الثالثة

أدركت أن أمي جدية مخلصة في عملها . لم تأخذ وكان بإمكانها إجازة ساعات لاستقبالنا ، فالعمل جهاد ، والجهاد ليس فيه إجازات حتى يتحقق الهدف منه.

توقفت السيارة عند باب بيت (حسن) .. استقبلتنا الأم.. كان اللقاء حاراً فبعد أن دخلنا الباب وصرنا في الممر، عانقت ابنتها بحرقة وحميمية.. لقد حدثت المعجزة وشفيت حنان .

ثم التفتت إلى وعانقتني وقالت :

اشتقت إليك يا فارس .. لقد أبديت من الوفاء والصدق، ما يعجز عنه الوصف.. وإن جميلك هذا سيبقى أمثولة مدى العمر.

قلت :

إن ما قمت به هو واجب ، يقوم به أي ابن تجاه أهله

تسامرنا عن أيامنا التي أمضيناها في أم الزنانير... وعن التحليل الذي أجريناه في المدينة التي تتبعها بلدة أم الزنانير

ثم قلت :

لن نضيع كبير وقت سنذهب الآن إلى الطبيب الذي عالج حنان وبعد ذلك إلى الطبيب الذي حلل لها الدم أول مرة .. لنتأكد بشكل قاطع من الشفاء التام .

نهضنا أنا وحنان وحسن وذهبنا إلى الطبيب بسيارة عابرة .. لما عرضنا الأمر عليه وأريناه التحاليل تعجب وقال :

إن الله على كل شيء قدير.. لقد حدثت معجزة.. وعلى كل اذهبوا إلى الطبيب المحلل ثانية ..

خرجنا من عنده واتجهنا باتجاه الطبيب المحلل عندما شاهدنا تعجب أيضاً نظر إلى حنان وقال :

كيف صحتك ؟ أراك تعافيت ، قلت :

أتينا لنعيد التحليل.. وقد أجريت لها تحليلاً في مدينة كنا نزورها .. وهذه نتيجته .

أخرجت ورقة التحليل وأريته إياها قال :

سنسحب كمية من الدم ونحلله فنتأكد للمرة الأخيرة.. تأتون إلي في الساعة الواحدة لتعرفوا النتيجة.

قلت لحسن :

التقي بك في الواحدة هنا ، اذهب أنت وحنان حتَّى حلول الوقت.. أما أنا فسأذهب إلى لقاء الشيخ محمود ... سامر على المختار وفي الواحدة تماماً نلتقي عند الطبيب المحلل

ذهبا إلى بيتهما ، ويممت أنا باتجاه بيت الشيخ محمود . طرقت الباب ففتحه واستقبلني بترحاب كبير ثُمَّ قال :

أهلاً بفارس الحمد لله على شفاء حنان ... لقد كنت تعلم.. وأنا كذلك أن الله سيمن عليها بالبرء .. هلم وادخل لتحدثني عما جرى ... وعما عملت الطويلة عنا . وعما درست.. في غيبتك

حدثته عما مر معنا في بلدة أم الزنانير ، وكيف سارت الأمور . وبمعظم الوقائع التي حدثت خلال شهور الغياب .. ثُمَّ قلت :

-كيف أمور البلدة يا مولانا ؟

قال :

بين تحسنت أحوال الناس وانشغلوا بالعمل المفيد ... وسادت الجدية والأخلاقية والسلوك الحميد الناس والعباد.. لقد تغيرت الأمور للأفضل.. بعد أن غيروا ما بأنفسهم.. وبعد أن تحسنت أوضاعهم المادية انعكس ذلك على مستوى الأخلاق. ثم أردف :

أفكار أبيك التي نثرها كحب في أرض صالحة بدأت تؤتي أكلها

سأذهب إلى المقبرة وأضع على قبره الزهور، واقرأ ما تيسر لراحة نفسه .

أذهبت إلى المقبرة أحمل إكليلا من الورد الأصفر ، واسترحت على مصطبة قبره ، شعرت أن روحه قد حضرت، وباركت عملي وفرحت لفرحي.. وقرأت بعض الآيات... وعاهدته على متابعة مسيرته وتطوير البلدة كما أراد

كان الموعد في مركز التحليل قد حان .

قال المحلل :

النتيجة سلبية .. أي أن حنان سليمة تماماً من أي مرض .. لقد اجترحت معجزة لا أحد يعرف كيف حدث ذلك

رجعنا إلى عيادة الطبيب المعالج ، فأكد سلامتها وشفاء ها ....

قلت له :

أريد منك تقريراً بالفرنسية لأرسله إلى عاطف رغدان .. وبدوره الى لجنة الأطباء التي قالت بأن حنان لن تشفى أبداً وأيامها معدودة

قال الطبيب :

سيكون التقرير جاهزاً غداً

-عدت إلى بيت حسن وكانت الفرحة كبيرة. قلت

لحنان :

سنذهب الآن إلى بيت أمي لقد دعتنا إلى الغداء اليوم .

ودعناهم وعدنا إلى البيت .

لم تكن امي قد عادت بعد من عملها .. فجلست أنا وحنان في الطابق العلوي وجلبت كوبي عصير من الثلاجة وصرنا نشرب العصير ونتأمل الأفق. هبت رياح ناعمة، وكانت أنسام رطبة تهب من البحر فتمتزج بأريج الغابة....

قلت لحنان :

سيكون الطابق العلوي، شقة مستقلة لنا وستبقى أمي في الطابق الأرضي.. قالت : نعم المكان .. إطلالة رائعة.. وهواء نقي... ثُم اردفت :

ما هي الخطوة القادمة ...؟

غداً سأذهب مع حسن إلى المزرعة نتفقدها ... ونطلع على أحوالها التي آلت إليها . ستبقي الناطور فيها ليحرسها ، ويسقي أشجارها ومزروعاتها .. لن نقوم حالياً بأي تطوير جذري فيها . إلا بعد اجتياز فحص الشهادة الثانوية العامة.. عندئذ سيكون حسن مديرها وفي نيتي أن أسجل له نصفها في السجل

العقاري ويسدد لي الثمن من إنتاجها .. وبذلك نطبق مبادئ التكافل الإجتماعي بين أسرتينا ... لتقتدي البلدة وأهلها فينا

قالت حنان :

الست مغبوناً في تصرفك هذا ؟

العكس تماماً فالجميع رابح.. إن (حسن) سيطورها بجهده وعمله وفكره.. فتزداد قيمتها وإنتاجيتها.. وفي نفس الوقت أتابع أنا وأنت دراساتنا العليا.. لننشئ مركز الأبحاث.. ذلك الحلم الذي راود أبي ووضعته أنا نصب عيني وهدف أحلامي .

قطعت علينا الحديث خطوات أمي التي جاءت ومعها طعام جاهز .. طيب ولذيذ وضعته على المائدة ، وكنا قد نزلنا من الطابق العلوي

كان استقبال أمي لنا حاراً وحميمياً.. اندفعت نحوي وعانقتني ، ثُمَّ حضنت حنان وقبلتها وفرحت أكثر عندما أخبرناها ما قاله المحلل والطبيب؛ ثُمَّ تعاونت أمي وحنان في بسط الطعام على المائدة.. وتحضير بعض اللوازم فتناولنا الغداء ونحن نتبادل الأحاديث .

سهرت أنا وحنان في الشرفة .. انسحبت أمي قبيل منتصف الليل ، لتنام مبكرة ، فالعمل في الشركة .. بقيت أنا وحنان يستهلك الكثير من طاقتها وحدنا.. كان الجوّ رائعاً والقمر بدرا ، لاعبتها في الشرفة.. ومالت نحوي ، فاستند رأسها إلى كتفي..

كانت لحظات من السعادة تملأ كياني

ثم قالت لي :

- لنذهب إلى الغرفة الداخلية فالسرير ينتظرنا

كان الخريف في أوله، وهو يشبه الربيع في آخره.... برودة لذيذة تعدل من سعير النيران التي اشتعلت في جسدينا.. لاعبتها قليلاً.. كانت تهرب مني بدلال.. ثم تتقدم .. فتلتصق بصدري لتداعبني... قبلتها بعنف وأز السرير تحتنا.. وما لبثت أن استسلمت في الضمة الأخيرة.

بعد ذلك هدأت العواصف ، وحلت السكينة....

فقالت :

للحب هنا طعم حلو رائع .. كان للحب نكهات .. تتغير حسب الأمكنة والأجواء... وافقتها على رأيها ثم ضممتها ثانية.. بعنف

أكثر وقلت :

هذه النكهة لن تنسى أبداً ..

في الصباح استحممنا .. وتناولنا الفطور مع أمي التي غادرت إلى العمل

ثم اتصلت بحسن فجاء . وأعدت حنان القهوة فشربناها ونحن في الشرفة البديعة .. طلبنا سيارة بعد ذلك وذهبنا إلى المزرعة .

كانت المزرعة تقوم على أرض مرتفعة قليلاً عما عداها ...

فتح لنا الباب الحديدي ناطور، في الخمسين من عمره .. يبدو أنه مارس هذه المهنة منذ زمن طويل.

عرفته على نفسي قائلاً :

أنا مالك هذه المزرعة التي اشترتها أمي ، وأقامتك فيها ناطوراً .. وهذا صديقي حسن .

، وقادني أنا وحسن رحب بي الناطور ترحيباً زائداً ، إلى بناء فيها كبير .. يتألف من طابقين .. يعلو الطابق الأخير (جملون) من القرميد.. وأمام البناء مسبح واسع.. ووزعت أحواض الورود على جنباته ، بشكل مدروس

عام .. كانت الأشجار ضخمة عريضة الجذع ، بشكل ملفت.. ربما كان عمر بعضها أكثر من مئة فيها الدلب والبلوط والصنوبر والسرو والشوح .. وحتى الأرز.. وكانت المزرعة كبيرة ، بحيث يظنها الناظر محمية طبيعية.. وكانت تتألف من قسمين : القسم الأول يأخذ شكل الغابة ذات الأشجار الكثيفة ، والتي لا تبتعد الواحدة عن الأخرى كثيراً .. ولكثافتها لا يرى الداخل فيها إلا قليلاً من ضوء الشمس

والقسم الآخر مساحات مستطيلة مقسمة ومخصصة للزراعة الموسمية .. وما بين القسمين كان يقوم البناء الحديث والمسبح .

عادت بي الذكرى إلى ماض سحيق.. وتذكرت أشخاصاً عاشوا فيها .. ركضوا بين أشجارها ... وزرعوا حقولها .. تذكرت (عمران) زوج خالتي بشرى وتذكرت قصته في تجارة السجاد وسفره إلى سمرقند وشراء الصبي من أبيه ، ذلك الصبي الذي كان يشبه حصان طروادة الذي أدخل الغريب إلى البلدة .. ثم تذكرت (جانتي) ذلك الدعي الأخرق الذي كان مثالاً للعقوق الكامل وللشر بأقسى مظاهره .. لأن الأب الحقيقي هو من ربي.. وليس من أنجب .. ولم يدرك (جانتي) حقيقة هذا الأمر ، فارتكب بحقهما أبشع السفالات.

رأينا السوسن البري والمارغريت .. والأقحوان والبنفسج.. على حواف البناء مزروعة في تراب أحمر وكانت يمامة (تترغل على غصن شجرة سنسرخت). قلت لحسن :

أترى هذا المكان ؟

قلت :

قال نعم .. وبماذا يتميز ؟

يتميز بأن أجدادنا حاربوا هنا دفاعاً عنه وقاتلوا الغزاة حتى الرمق الأخير .. وجرت دماؤهم غزيرة.. فامتزجت بتراب الأرض... أترى أزهار المارغريت وشقائق النعمان الحمراء .. لعل جدي ضحى بنفسه في هذا المكان في معركة دفاعاً عن أرضه.. التي هي ارضنا جميعاً.. اقتربنا من حوض للبنفسج واسع.. فعطرت أنوفنا روائح البنفسج المسكرة ... قلت لحسن :

أتعرف أهم إنجاز قمنا به حتى هذه اللحظة ؟

ما هذا الإنجاز ؟

أعدنا أرضنا .. لا من أجل الربح أو الكسب ولكن من أجل الحفاظ على دم الأجداد... وذكرياتهم وجهادهم وكفاحهم... ثم أردفت القول :

نصف هذه المزرعة لك ونصفها لي

ومن أين لي النقود لأدفع لك نصف ثمنها ؟

الأرض معطاء .. تدفع من إنتاجها ستكون أنت مديرها وصاحب الإنتاج والعامل فيها والمدبر .. كل هؤلاء تجمعهم في شخصك .. تعمل وتدرس.

ولكن بماذا ستختص ؟

بالهندسة الزراعية أقرن الدراسة النظرية بالتدريب العملي .. فلا فائدة من علم لا يجد له مجالاً للتطبيق .

شربنا كوب الشاي التي قدمها لنا الناطور ، ومن خلال الجلسة أعطيته بعض التعليمات لسقايتها وحراستها ، وإزاله الأعشاب الضارة منها . قلت :

سيبدأ عملنا فيها بعد انتهاء فحوصنا .

رجعنا كل إلى بيته فقصصت على أمي وحنان قصة المزرعة وفرحتي بعودتها وبأن ارجاعها كان أهم إنجاز لأن الأرض لا يفرط بها تحت أي عنوان

لقد مرت الأسابيع الأكثر تعبا وجدية. دراسة مكثفة وتحضير الفحص الشهادة الثانوية العامة انقطعنا أنا وحنان وحسن، عن الناس كافة ، فلم نلتق بهم إلا سويعات في يوم الجمعة؛

فكنت ألتقي بالشيخ محمود ، أو المختار، أو أتصل بصالح .. بينما كان حسن يتصل يومياً بخضرا ...

بعض الغزل ، بل الأمر جله غزل.. سألها عن أحوالها ودراستها .. ولا يخلو الأمر من

جاء الامتحان .. هو معركة أعددنا لها عُدتها وكتبنا الاجابات الصحيحة ، عن كل ما سئلنا

بعد شهر ظهرت النتائج نجحت أنا وحنان... بامتياز وبعلامات شبه كاملة أما حسن فقد نجحبدرجة جيد جداً .

اخبرت عاطف رغدان بنجاحي المتفوق. قال لي :

انتظر أنت وحنان هديتك بعد شهر .

بعد شهر اتصل بي عاطف رغدان وقال لي :

لقد أمنت لك أنت وحنان منحة دراسية في أحدى الجامعات السويسرية ، وستكون المصاريف مغطاة ، أما مصاريفك الخاصة فأتكفل بها .. وتردها لي بعد التخرج ، ستدرسان الفيزياء الذرية .. قلت :

إن ما بقي لي من ميراث يكفي.. لأن أصرف على نفسي وعلى حنان .. وعلى كل شكراً لك على اهتمامك وتأمينك تلك المنحة . قال :

إنك وحنان لا تحتاجان لشكري أو شكر غيري.. فمجموعكما هو الذي أمن لكما المنحة .. إن هؤلاء القوم لا يؤمنون بالواسطة.. كما يجري في بعض البلاد.. بل يشجعون النبوغ والتفوق.. أحياناً يعملون من أجل كسب العقول المبدعة إلى مجتمعهم... لكن في أكثر الأحيان، تهاجر تلك العقول إليهم بدون أن يطلبوا هم ذلك لأنهم يقدرون الإبداع والموهبة، ويعطون المقابل، بقدر العمل والجهد ولا يغمطون الناس حقوقهم والناس عندهم سواسية.. في تكافؤ الفرص، وفي حق العمل، والضمان الاجتماعي والصحي، والتعليم .

شكرته على اهتمامه وأغلقت الهاتف .. كانت حنان تسمع كل ما جاء في المحادثة .. وكل حديثي معه .

ألقت بنفسها علي، وعانقتني ، ثُمَّ قالت :

من الغد سنجهز جوازات السفر وأوراقنا كلها ولوازمنا وما نحتاج ، ونودع أهلنا ... ولكننا سنعود لنشارك في تعمير بلدنا ونسهم في

إرساء أسس نهضتنا الجديدة وننفذ ما بشر به أبوك من تطلعات وأمال نعمل على تجسديها منارة للأجيال .

تمت